لماذا أنا مسيحى

إن كل مالى من الدين استخدمه فى حياتى اليومية . فاننى لا أريد أن أحمل أثقالا أنا فى غنى عنها . ولا أود أن أثقل كاهلى بالنظريات التى لا طائل تحتها. لأن الديانة التى أدين بها هى مئة بالمئة عملية

تأليف

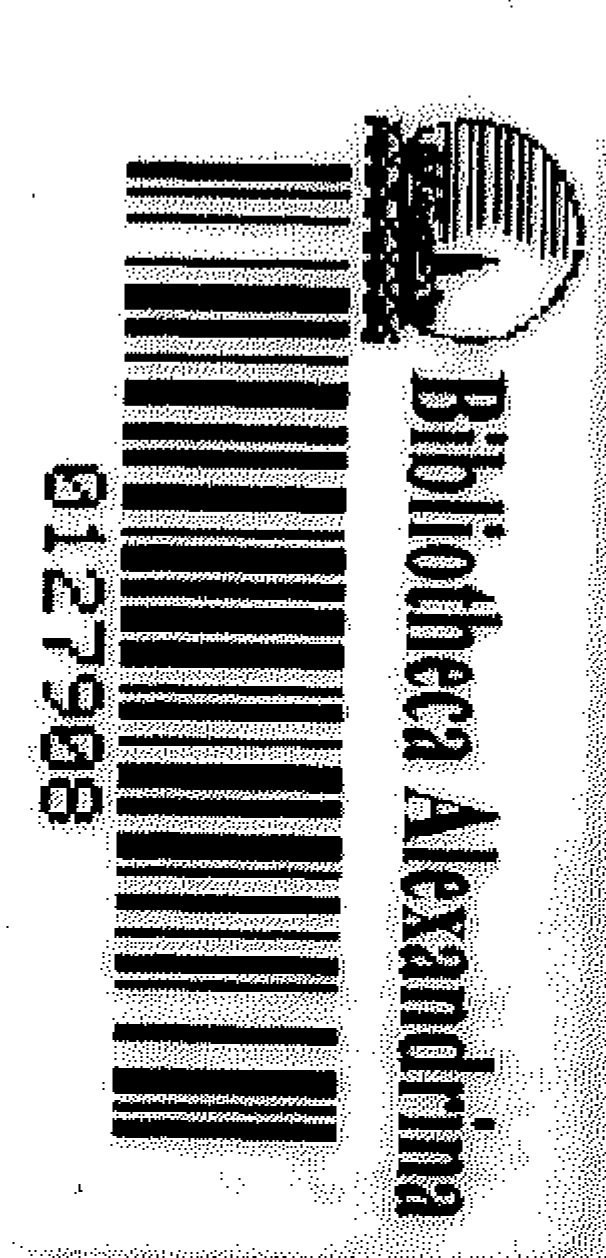
الدكتور فرانك كراين

ترجمة

الارشمندريت انطونيوس بشير

دار البستانى للنشر والتوزيع

الفجالة القاهرة


Bibliotheca Alexandrina
0127908

فهرس الكتاب

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

كلمة المعرب

الدين جزء من الوجدان وأكبر تعزية لبني الإنسان . ولذلك نرى الأمم على تعاقب أدوار التاريخ تبنى آدابها وأخلاقها وتصرفاتها على أصوله الأولية ومبادئه الأساسية . وهذه الاصول والمباديء قريبة بعضها من بعض ، إن لم نقُلْ واحدة ، في جميع أنحاء المعمور . فهي كالأنهار والجداول التي تحيى العمران وتنعش قلب الانسان ، يسير كلٌ منها في جهة تختلف عن الجهة التي يسير فيها الآخر ولكنها تنبُعُ كلها من قلب واحد هو قلب الارض ، وتسير إلى عمق واحد هو البحر . أما الاختلاف الظاهر في استعمالها والانتفاع بها فغير كائن في طبيعتها ، بل هو نتيجة التباين الطبيعي في رغبات الناس الذين يستخدمونها وفي حاجاتهم وأميالهم وغاياتهم . وفي عقيدتي أن جُلّ ما يقوم بين ذوي الأديان من الخصومات والعادات لا أثر للأديان فيه ، بل هو ثمرة الاختلاف فى مقاصد الزعماء ومطامع الرؤساء . لأن أتباع كل دين ، كمجاورى كل نهر ، تتوقف منفعتهم من دينهم أو نهرهم على مقدار استخدامه في حياتهم ، وليس على التعصب للراغبين في اتخاذه وسيلة لاشباع أنانيتهم والبلوغ به الى قنة المجد الباطل والفخر الزائل .

فالمشترعون الحكماء جاءوا بشرائعهم هدى للضالين من الناس عن السراط المستقيم . ولكن هذه الشرائع كانت ولا تزال في حاجة إلى من يوصلها إلى أذهان الناس ، ويغرس أصولها في أعماق قلوبهم ويتعهدها بالعناية لكي تنمو وتثمر في حياة الانسان بعيدة عن كل ما يقيد نُموها أو يقف في سبيل حريتها وإثمارها . ولذلك ما برحت من أقدم الأزمنة إلى اليوم عرضة لطموح ذوى الغايات من المؤتمنين على تنفيذها ، يتخذونها سلماً يصعدون بواسطتها الى قنن غطرستهم وكبريائهم ، ضاربين بروحها عرض الحائط ومحوّ طينها بطائفة

من التقاليد البلهاء التي تحولها إلى أوهام وقشور تبرأ منها روح المشترع المقدّسة وتأبى أن تطيعها أية النفوس الحرة العازمة في الارض . وقد نتج من جميع ذلك أنْ فقدَ الدين غايتَهُ الجوهرية كدين فصار في الناس مذهباً أو طائفة أو حزباً أو غير ذلك من مصنوعات البشر ، ينتسب اليه الانسان لمجرد التقليد ، ويمارس طقوسَه وفرائضه كالآلة الصماء وهو في عمله مُسيّرفي الغالب غيرُ مُخيّر .

فهذا مسيحي ، وذلك مسلم ، وذاك يهودي لان والد كل منهم أو جده أو المحيط الذي ولد فيه مسيحي أو مسلمٌ أو يهودي . ولكنه ، هو ، الذات الكائنة في أعماقه ، قلما وقف يفكر في قلبه قائلاً : لماذا أنا مسيحي أو مسلم أو يهودي ؟ لماذا أنا كاثوليكي أو سني أو بروتستنتي أو شيعي ؟ يذهب إلى الكنيسة أو إلى الجامع أو إلى الكنيس ، ويردد الصلاة مع المصلين ، غير أنه كثيراً ما يفعل ذلك وهو لا يدرى لماذا يفعله ، غير ان أباه وأمه وجاره وأهله يفعلون ذلك .

وماذا عساه يسمع ويتعلم هنالك ؟

يسمع ويتعلم ان دينه مُنزلٌ السماوات ، وان جميع الأديان الاخرى كاذبة لا حقيقة دونها ، وأنه وأتباعه وحدهم سيسيرون الى الفردوس ويتنعمون في جنات السموات ، وان جميع الناس الذين لا ينضمون الى دينه ، وان شئت فقل حزبه أو طائفته ، سينحدرون إلى الجحيم ، إلى النار المؤبدة المعدة لابليس وملائكته . يتعلم ان مجرد الانتساب إلى حزبه يجعله أكمل وأفضل من الخارجين عن طاعة رؤسائه ، فلا يلبث أن يشعرَ بنفور وكراهية لهم . وكثيراً ما كان ويكون هذا النفور أصل جميع الحروب التي قامت وتقوم في العالم .

هذه حقيقة يؤلمنا أن ندونها في مقدمة هذا الكتاب ، ولكن متى كانت الحقيقة غير مؤلمة ، وخصوصاً لذوى الغايات المارقة عن طريقها القويمة ؟

فالدين في حاجة إلى المخلصين الذين يدركون جوهره ويحفرونَهُ على صفحات قلوبهم قبل أن يبنوا مساكنه على شفاههم وفي زوايا شوارعهم . الدين في حاجة إلى المخلصين الذين يجعلون تعاليمه حقائق واضحة في جميع أعمالهم

قبل أن يحتفظوا بها في صدور هياكلهم وعلى رفوف مكاتبهم . الدين في حاجة إلى المخلصين الذين يحبون اللّه لأنه تعالى أبوهم الرؤوف العطوف ، ويحبون الانسان قريباً كان أم بعيداً لانه أخوهم الرفيق أمام وجه الشمس . الدين في حاجة إلى الذين يعملون الخير لأجل ما في الخير من اللذة والطمأنينة وليس خوفاً من العقاب أو طمعاً في الثواب كما كان يفعل المراؤون الذين وبخهم المصلح الاكبر بقوله : « انهم قد استوفوا أجرهم » الدين يحتاج إلى العمل الكثير في حقل الفضيلة والخير . « لأن الحصاد كثير ولكن الفعلة قليلون » الدين يحتاج إلى المخلصين الذين لهم غيرة على لبابه ولكن عن ادراك ومعرفة . الدين في جميع فروعه ، وسائر طوائفه يحتاج إلى أن يكثر بين أبنائه القائلون مع الدكتور فرانك كراين ، مؤلف هذا الكتاب ، فيلسوف اميركا وانضج فكر في هذا العصر « ان كل ما لي من الدين استخدمه في حياتي اليومية . فانني لا أريد أن أحمل أثقالاً أنا في غنى عنها . ولا أود أن أثقل كاهلي بالنظريات العقيمة التي لا طائل تحتها . لأن الديانة التي أدين بها هي مئة بالمئة عملية » .

هذا هو الرجل الذي أقدمه إلى قراء العربية الأحياء بهذا الكتاب الذي يضم بين دفتيه خلاصة درس حكيم في الدين العملي القويم الذي هو محجة كل دين و كل شريعة على الأرض .

ولي رجاء إلى القارىء الأديب أن يمعن النظر في كلمات المؤلف التالية قبل أن يشرع في مطالعة الكتاب : « ليس هذا الكتاب بحثاً لاهوتياً ، بل هو ترجمة حياة صاحبه الذي يكره المباحثات النظرية البعيدة عن الحياة . وهو لا يرغب في أن يغيّر عقائد أحد من الناس لكي يصبغها بصبغة فكره وعقائده ، بل كل ما يرمي اليه ايضاح بعض النتائج التي وصل اليها في ما مر به من الاختبارات رجاء أن تكون ذات فائدة للذين يطالعونها .... فكل ما أقوله في هذا الكتاب ليس من باب الجدل والمماحكة لاظهار تفوقي أو أنانيتي ، بل هو اعتراف بسيط أود أن أظهر فيه حقيقة عقيدتي بطريقة أحافظ بها على الصراحة والأمانة والاستقلال الذاتي ... وانني أرجو من القراء أن يتذكروا دائماً في قراءة هذا الكتاب انني انما

أكتب عن نفسي فقط بملء الصراحة ، ولست بما أكتب أنتقد أحداً من الناس لأنه يعتقد غير ما أعتقد .

وقد رأيت أن أضيف إلى الكتاب اكمالاً للفائدة خلاصة محاضرة القيتها في أواخر السنة الماضية على المهاجرين من أبناء الوطن الكرام في عاصمة الجمهورية المكسيكية ، موضوعها : « هل نموت ؟ » - « ورائدي في كل ذلك رأي الحكيم الصيني القائل : لئن حملت فرداً واحداً على البحث في موضوع يرفع نفسه ، ويرهف أخلاقه ، ويتعدى فيه حدود شخصيته المألوفة ، فذلك خير لي ألف مرة من أن أخضع ملايين الشخصيات لرأي واحد ومذهب فرد . لأن اخضاع الالوف عبودية ، أما كسر قيود الفردية فثروة وعظمة وحرية ! »

الارشمندريت أنطونيوس بشير

أميركا الشمالية سنة ١٩٢٦

توطئة

كم هو مقدار مسيحيتي ؟

ان كل مسيحيتي تنحصر في ما استطيع ان استخدمه في حياتي ،
وما زاد على ذلك فقد ألقيت به في سلة المهملات .

من اعتراف المؤلف

قد وضعت هذا الكتاب إجابة لاقتراح صديقي جون م. سيدال رئيس تحرير المجلة الأميريكية . فقد قال لي مرة :

« ان هنالك كتاباً اودّ لو تؤلفه يوماً ما ، كتاباً تسميه « لماذا أنا مسيحي » . وانني لو أثق بانك لو بسطت الحقيقة المجردة في مثل هذا الكتاب فانه يكون كتاباً ممتعاً . »

وإنني على ثقة بأن قد بسطت الحقيقة المجردة في كتابي هذا . أما إذا كان هذا الكتاب ممتعاً أم لا فذلك ما يجدر بالقارىء أن يحكم فيه لنفسه .

الديانة العملية

«ان كل ما لي من الدين أستخدمه في حياتي اليومية فانني لا أريد أن أحمل أثقالاً أنا في غنى عنها . ولا أود أن أثقل كاهلي بالنظريات التي لا طائل تحتها . لأن الديانة التي أدين بها هي مئة بالمئة عملية .»

لستُ متطرفاً في تفاؤلي فاعتقد بأن ما أسطره في هذا الكتاب معصومٌ عن النقد الحاد ، لأنني أعرف انني أتكلم عن الدين ، وأكثر ما يعتقد الناس في الدين أنه موضوع قد أغلقَ البحث فيه وليس من المواضيع المفتوحة أبواب البحث فيها لكل راغب بحّاثة . فان أغلب الناس قد وطّدوا أفكارهم على الديانة التي يدينون بها ، أو أنهم قبلوا نظريات سواهم من الناس على علاتها ، فباتوا لا يُعملون فكرتهم في بحث ما إذا كانت تلك النظريات صحيحة أم لا ، بل هم يجهدون عقولهم ويقضون أعمارهم في السعي وراء البراهين التي تثبت تلك النظريات وتؤيد صحتها .

على أن الدين لسوء الحظ يُرافقه في الغالب التعصبُ الأعمى أكثر من أي موضوع آخرَ سواه . لأنه لا يدعو الناس إلى التنقيب عن حقيقة لا يعرفونها ، بل إنما يدعوهم إلى الإيمان بما يبسطه أمامهم . فالانسان يكون كاثوليكياً أو بروتستانتياً كما يكون جمهورياً أو ديموقراطياً ، أو كما يكون أمريكياً أو ألمانياً أو فرنسياً . وكثيراً ما يكون الدين ارثاً يرثه الانسان عن جدوده كما يرث كل ما هو في ملكهم وتحت مطلق تصرفهم . ومن هنا نشأت العقيدة السائدة في العالم أن الذي يغير دينه خائن مائن .

وما لا شك فيه أن هذه العقيدة لها الفضل الأكبر في حفظ الملايين من البشر في طاعة الكنيسة ، ولكنها في الوقت ذاته تبعد عشرات الملايين عن الكنيسة .

غير انني أعتقد بالعكس من ذلك أن الدين أرفع وأسمى من أن يكون دعوة إلى الحرب أو إلى التحزب والكبرياء والافتخار ببلاد دون أخرى أو بحزب دون حزب أو ما شاكل ذلك .

فالدين في عقيدتي هو الحياة . هو جوهرُ تقديري للحياة حق قدرها ، والصلة الفضلى التي تصل بيني وبين قوات الحياة . ولذلك فهو قضيةٌ يجب عليّ درسها ، قضية تنمو بنموى وتتقدم بتقدمي . أجل ، وليس الدين صخرة صلدة قاسية مستقرة على حالة واحدة ، بل هو شجرة جبارة تنمو وتخرج براعمها وتتعالى أغصانها « وتعطي أثمارها في أوقاتها » .

لذلك آمل أن ينظر القارىء إلى هذا الكتاب نظرته إلى تقرير بسيط للموضوع الذى نحن في صدده كما يبدو لى ، لا إلى كتاب جدل عقيم .

وإننا إذا نظرنا إلى الدين كما ينظر إليه الكثيرون فربما لا تكون ديانتي مستحقة للاعتبار . لأنني واثق بأن فريقاً من الناس يقول انني ضال ، وفريق آخر يقول إنني لا أدين بدين البتة . ولكنني لن أبحث في ما يقوله هذا أو ذاك الفريق بل سأحصر بحثي في نقطة واحدة وهى : أن كل ما لي من الدين أستخدمه في حياتى اليومية . فاننى لا أريد أن أحمل أثقالاً أنا في غنى عنها . ولا أودّ أن أثقل كاهلى بالنظريات التي لا طائل تحتها . ولكننى على الأقل أستميح العاذلين عذراً وأقول ، ان الديانة التي أدين بها هى مئة بالمئة عملية .

فقد طالما أدهشنى أن أرى الناس يتبجحون بإيمانهم ، ويفتخرون بديانتهم ، مرددين عقائدها ومترنمين بصلواتها وأناشيدها ، ولكنهم لا يعملون بما يعرفون بل يحسبون العاملين مرائين دجالين . لان كل إنسان يدعى أنه يعيش على وفق ما تتطلبه كنيسته منه وانه عامل بكل ما يفرضه عليه ايمانه يعدُّه الناس متطرفاً متعصباً .

أما أنا فانني لا أتردد في الإعتراف بأني أستخدم في حياتي اليومية كل

الديانة التي أؤمن بها . وأما ما تبقى مما يؤمن به غيري فقد طرحته في سلة المهملات .

بيد أنني لستُ أدعى العصمة والكمال . ولا أعتقد بأن اللّه ينتظر مني أن أكون كاملاً نظيره تعالى ، كما أنه لا يريد ولا يتوقع من النبتة الصغيرة أن تصير في الحال شجرة كبيرة وكل خطيئة ارتكبها هي نقصان فيّ . وعليّ أن أسعى جهدى إلى البحث عن هذه الخطيئة والتخلص منها لكي أتقدم في معراج الكمال في هذا العالم وفي العالم الثاني .

أما قسمة الإنسانية إلى صفين ، صَفٌ الأبرار وصف الأشرار ، صف الخالصين وصف الهالكين ، وكل ذلك بقوة المقدر المقدور ، فهي في رأيي قسمة خرافية كاذبة ، ونتيجة منطقية لعبودية النظام القديم الجائر فان الحياة كثيرة العُقَد والعقبات فلا تستطيع أن تستخرج منها شيئاً بالمجادلات والمماحكات العقيمة .

انني لست بالسعيد لأني قد وصلت إلى محجتى ، بل أنا سعيد لاني لا أزال مسافراً إليها .

ولستُ براض مطمئن البال إلى حياتي لاني بارٌ قديس ، بل إنما تقوم طمأنينتي في اعتقادي بأن في وسعي أن أتقدم أبداً إلى حالة أفضل وأكمل من حالتي .

مدينة سكانها حفاة

منذ بضع سنوات كتب أحدهم مقالة تحت عنوان : « في كل مكان » ، أوردها في قالب حكاية يريد أن ينتقد بها تصرفات الذين يسمون أنفسهم مسيحيين .

وخلاصة الحكاية أن رجلاً قدّر له أن يسافر للمرة الأولى في شغل له إلى مدينة « يوبيك » (وهي كلمة لاتينية معناها في كل مكان) . فوصل في أحد أيام كانون الأول إلى محطة السكة الحديدية . وكانت الرياح شديدة باردة والثلوج تملأ ساحات المدينة وطرقها . وعندما خرج من المحطة ومشى بضعة أقدام رأى نساء يمشين و هن مرتديات أفخر الملابس وأثمن الحلى وإلى جانبهن رجال عليهم ثياب ثقيلة من الجوخ المبطن بالفرو ولكنهم يسيرون مع النساء حفاة الأقدام . وكانت أمائر الهيبة ودلائل الثروة والرخاء تبدو على جميع من رأى من سكان المدينة ، ولكنهم كانوا حفاة بأسرهم لا أحذية في أقدامهم . وكانوا يسيرون أمامه في الشوارع متعرجين على الجانبين متألمين متوجعين من شدة البرد والرضوض التي أحدثها الجليد والحجارة في أقدامهم .

وعندما ذهب إلى الفندق ليستأجر لنفسه غرفة يبيت ليلته فيها رأى أن الكاتب والخدام وجميع من في الفندق من رجال ونساء حفاة . وفي صباح اليوم التالي جلس إلى مائدة أنيقة ليتناول فطوره وكان إلى جانبه شيخ جليل تدل مظاهره على انه من أهل الفضل واليسار فشرع يجاذبه أطراف الحديث . وكان الشيخ يجيبه عن كل سؤال يسأله بملء الرقة واللطف ولذلك تشجع وسأله قائلاً :

« عفوك سيدي عن تطفلي ، فقد لاحظت في هذه المدينة أن جميع الرجال والنساء يسيرون في الشارع حفاة ، وكل منهم يتألم متوجعاً من رضوض قدميه وشدة البرد والجليد . فهل لك أن تخبرني عما يدعوهم إلى ذلك ؟ »

فرفع الشيخ عينيه وأجابه مشفقاً عليه ، « عجيب سؤالك يا صاح ، فهكذا

يجب أن يفعلوا . »

أما المسافر فانه لم يكتف بهذا الجواب بل عاد إلى محادثة رفيقه ، ولكنه لم يستطع أن يأخذ منه جواباً يصح السكوت عنده . لأن الشيخ أظهر له أن الأحذية ضرورية جداً لحفظ القدمين من البرد والأذية ، وأنه يجب على كل إنسان أن يلبس حذاء في رجليه ، ولكنه لم يستطع أن يخبره لماذا لم يكن أهل تلك المدينة يفعلون ذلك .

ثم نزل المسافر إلى المدينة يتجول في أزقتها وشوارعها وكان يجد في سيره بنايات عظيمة غاية في الزينة والزخرفة ، تفوق بعظمتها وعلوها جميع أبنية المدينة . فوقف أمام واحدة منها وإذا بالخادم يكنس أدراجها بعناية ومهارة فوقف به وسأله قائلاً :

« ما هذه البناية يا صاح ؟ فانني رجل غريب في هذه المدينة وقد لاحظت أن فيها غير واحدة من هذه البنايات الفخمة . . »

فاجابه الخادم قائلاً : « هذه معمل أحذية . . »

فقال له الغريب : « وهل يصنعون أحذية ههنا ؟ »

فأجاب الخادم : « كلا ! بل هم يخطبون في كيفية صنع الأحذية ، ويترنمون بذكر الأحذية ، ويصلون لأجل الحصول على الأحذية . . »

ثم نظر الغريب إلى الحائط فرأى إعلاناً مكتوباً باحرف كبيرة خلاصته أن رئيس المعمل الأعلى للأحذية سيلقي محاضرة في كل أسبوع موضوعها « الأحذية » . وفي جملة المواضيع التي كان الرئيس مزمعاً أن يطرقها : « أصل الأحذية » ، و « تاريخ صنع الأحذية » ، و « أجناس الجلد » ، الخ ، ثم أخبره الخادم أن كل الأشغال والحرف كانت تقفل أبوابها في كل أسبوع بأمر الحكومة ، ولم يكن يؤذن لأحد أن يفتح حانوته أو معمله في ذلك اليوم ماعدا أصحاب معامل الأحذية التي كان يجتمع اليها الشعب من سائر أنحاء المدينة ليترنموا بذكر الأحذية ويصلوا لأجل الحصول عليها ويسمعوا الخطب والمواعظ التي تلقى في شأنها . ولكن لم يكن في تلك المعامل من حذاء واحد ، وكان جميع القادمين اليها

والعاملين فيها « حفاة » .

وأخيراً وجد المسافر في أحد الأزقة الضيقة حانوتا صغيراً وفيه رجل ألماني اسكافي يصنع زوجاً من الأحذية . فاشتراه في الحال ورجع به إلى الفندق وقدمه هدية إلى الشيخ الذي تعرف إليه في وقت الفطور .

وشد ما كانت دهشته عندما رفض الشيخ أن يقبل هديته مؤكداً له انه لم يسبق من ذي قبل أن شريفاً من أشراف المدينة قبل مثل هذه الهدية ، وان من كان يجرأ على لبس الأحذية كان يحسب متهوراً متعصباً ومداجياً مراغيا .

وما أجمل انطباق هذه القصة على الحالة التي وضعت لأجلها . فأنه لمما تنفطر له القلوب ان يمتهن الدين ، وهو القوة المثلى الفعالة في العالم لتكوين الأخلاق وتعميم السعادة والغبطة ، ويحتقر حتى يستحى الإنسان أن يدعى بأنه يؤمن به ويطبق حياته وأعماله عليه .

فقد أمسى البحث في الدين مستحيلاً في الاجتماعات العمومية ، لأن الناس ينظرون إلى الدين نظرهم إلى حزب من الأحزاب السياسية أو مبدأ من المبادىء الشخصية . وما ذلك إلا لأن زعماء الأديان قد زادوا عليها في كل زمان ومكان زوائد فارغة عمياء وحوطوها بالتقاليد الرثة البلهاء حتى صار يعسر إدراك جوهرها والبلوغ إلى غايتها .

وإذا كان هذا الكتاب الذي أبسط فيه إعترافي الصريح وأجعل نفسي فيه عبرة لغيري سيولد في من سيقرأه ثقة بذاته ، ويبعث في قلبه حرارة الايمان بالله ويحرضه على اتباع تعاليم المعلم الصالح يسوع ومبادئه الأولية واقتفاء مثاله في الحياة فذلك حسبي وبه اكتفي .

على انني أعتقد بأن أكثر الناس مسيحيون أكثر مما يخيل إليهم .

أعتقد بأن الناس أفضل من أفضل النظم التي يضعونها ليقيسوا بها فضائلهم .

أعتقد بأن الطبيعة البشرية صالحة سليمة بذاتها وأن غاية يسوع من تعاليمه انما كانت لأجل استثمار هذه الطبيعة استثماراً تدريجياً فطرياً .

لماذا أنا مسيحي ؟

"ان الخلافات المستحكمة على ممر الأجيال
بين الطوائف المسيحية لا أثر لها في ذهني البتة.
فإذا سألتني ما إذا كنت مؤمنا بالتثليث أو موحداً،
فكأنما أنت تسألني إذا كنت بابوياً أو ضد البابا "

انني أودّ من صميم قلبي أن أبسط الأسباب التي تدعوني إلى أن أسمي نفسي مسيحياً بملء الصراحة والوضوح وبكمال الإخلاص والأمانة . وإني لواثق بأن هذا الاعتراف سيساعد الكثيرين من المسيحيين على فهم مسيحيتهم . لأنني عوضاً عن أن أعتقد بأن هنالك كثيرين ممن يسمون أنفسهم مسيحيين ولكنهم يتصرفون على عكس ما تتطلبه منهم المسيحية فأنا أعتقد بأن هنالك أكثر من الكثيرين ممن هم بالحقيقة مسيحيون بتصرفاتهم وأعمالهم ولكنهم لا يسمون ذواتهم مسيحيين . فكم هنالك من المسيحية الحقة الكامنة في ضمائر الألوف العديدة ممن لا يهتمون بتعصُبات الكنائس ، ولا يُعنَون بما تفرضه عليهم من الزواجر والنواهي . ففي أثناء خدمتي الروحية قد خبرتُ أخلاق الكثيرين من الناس الذين لم يكونوا أعضاءً لا في كنيستي ولا في غيرها من الكنائس ، ولكنهم « لم يكونوا بعيدين عن الملكوت » ، بل ربما كانوا أقرب إلى الملكوت من أبنائه الواهمين أنهم قريبون منه . وقد عرفتهم بحياتهم العملية قواداً مخلصين يتفانون في سبيل تأييد مبادىء المعلم الصالح في حياة البشر .

أما المشاحنات والمجادلات التي قامت في الكنيسة على ممر الأجيال فأني أعترف أن لا شأن لي فيها البتة . لأني أعتقد بأنها جميعها لم تأت بثمرة صالحة واحدة.. ويمكننا أن نسميها حروباً عظيمة استمرّت أجيالاً طويلة ، ولكن كلاً منها

في نظري هجومٌ قبيح بعيدٌ عن روح المسيح . واني أستطيع أن أقول ان جميع المجادلات والمباحثات النظرية التي انتهت إلى نتيجة واحدة ، هي سكوت القائمين بها ، لم تبلغ ما بلغت اليه إلا عن طريق النسيان وتقادم الزمان . أما إذا كان الناس لا يبحثون اليوم في القضايا اللاهوتية القديمة من مثل ما إذا كان الروح القدس ينبثق من الآب وحده أو من الآب والإبن معاً ، أو في شروط المعمودية ومادة العماد ، أو في حقيقة الإختيار السابق والمقدر ، أو في الخمير والفطير - فان ذلك لم ينتج عن أن أحد الفريقين المتناظرين قد أثبت عقيدته بالدليل والبرهان فاقنع خصمه وافحمه بل لان الناس قلما يعبأون اليوم بمثل هذه المناظرات . فكلا الخصمين قد سئما الخصام ولم يربح احدٌ منهما على رفيقه ، ولذلك ترك كل واحد من المتفرجين مقعده وسار في طريقه .

وانما إذا أعملنا النظر في جميع القضايا اللاهوتية التي كان يقوم عليها الجدال في سابق الأيام نرى أنه ما من واحدة منها نستطيع أن نعدّها من جواهر الحياة الضرورية وقد أدرك الناس هذه الحقيقة بعد اختبارات متواصلة ولذلك أعرضوا عن البحث فيها . وفي عقيدتي أن المسيحية قسمٌ جوهري لا تقوم الحياة بدونه . والمسيحية التي أؤمن بها اليوم هي كل ما يدخل في حياتي اليومية . فأنا لا أستحي أن أقول اني أفرح بالرب لأني أستطيع أن أنتفع به في حياتي كما أقول اني أفرح بالشمس لأني أقدر أن أنتفع بها في حياتي كل يوم . وأن أعظم الأناشيد التي أستطيع أن أقدم بها شكري للّه إنما هي في استثمار ما له تعالى من السلطة عليَّ لما فيه ازدياد نموي واكتمال تقدمي إلى ملْء قامته ، واقبح تجديف يمكن أن أقترفه ضد اللّه عزّت قدرته انما هو في ان انخرط في عبادته بشفتيَّ بتمتمة الألفاظ فقط ثم لا ألبث أن أسير مع رغبات نفسي الامارة بالسوء متناسياً أمره .

ولذلك أوضح بما أستطيع من الإيجاز الأسباب الجوهرية التي لأجلها أسمي ذاتي مسيحياً ، ويسرني اني على أتمّ الإستعداد لإيضاح هذه الأسباب الآن لأني قد تنحّيتُ من عهد عن المركز الذي كنت أشغله من ذي قبل كخادم من رجال

الدين . وأشتغل اليوم بشغل عالمي ، واسمي معروف من الملايين من الناس بواسطة مقالاتي التي أسطرها في الجرائد اليومية وقليلون منهم الذين يعرفون إذا كنت عضواً في الكنيسة أم لا .

وإني أمحض شكري مقدّماً للقاريء العزيز الذي ينظر في كلامي إلى بساطته والحقيقة التي يرمي اليها من غير أن يشغل فكره في أصلي وفصلي ومذهبي وديانتي . لأني أريد أن أتكلم ببساطة كمخلوق بشري له حق الكلام في هذا الوجود . أما الحقيقة الناصعة فهي أن الخلافات المستحكمة على ممرّ الأجيال بين الطوائف المسيحية لا أثر لها في ذهني البتة . فان سألتني إذا كنت مؤمناً بالتثليث أم موحداً ، كاثوليكياً أو بروتستانتياً ، مثوديستا أو معمدانياً ، فكأنما أنت تسألني إذا كنت باباوياً أو ضد البابا .

لماذا أنا مسيحي ؟

من الوجهة الشخصية

«ليس هذا الكتاب بحثاً لاهوتياً ،
بل هو ترجمة حياة . لأنني لا أريد
أن أجادل وأناظر بل أنا مورد فيه حقائق
اختباراتي . »

ليس هذا الكتاب بحثاً لاهوتياً ، بل هو ترجمة حياة صاحبه الذي يكره المباحثات النظرية البعيدة عن الحياة ، وهو لا يرغب في أن يغير عقائد أحد من الناس لكي يصبغها بصبغة عقائده بل كل ما يرمي إليه إيضاح بعض النتائج التي وصل إليها في ما مر به من الإختبارات رجاء أن تكون ذات فائدة للذين يطالعونها .

قد جزت الستين من العمر وأنا أكتب هذه السطور . وقد قضيت القسم الأكبر من حياتي ، وهو ما بين الخامسة والعشرين والخمسين ، خادماً للانجيل ومبشراً بالكلمة . وعندما بلغت الخمسين تركت وظيفتي في الكنيسة ووقفت نفسي على الكتابة في الصحف اليومية والمجلات الشهرية . ولذلك فان حياتي قد أصبحت منذ عشر سنوات حياة عامية ولم تبق لي علاقة ما بالدوائر الاكليريكية .

على أنني لا أزال أسمى نفسي مسيحياً . وكما أفهم هذه الدعوة أعتقد بأن مسيحيتي اليوم هي أفضل جداً من مسيحيتي عندما كنت متجنداً في خدمة كنيستي متخذاً الوعظ مهنة لي . لأنه يلوح لي أنه يصعب على الإنسان الذي يتخذ المسيحية حرفة له أن يكون مسيحياً حقيقياً . لأن الحرفة من ألد أعداء التضحية

والإخلاص . ولذلك فالكهنوت محك صادق للراغب في المسيحية ، لا يلبث أن يظهر حقيقته في وقت قصير وما أقل ذوى الكهنوت الذين يستحقون الاعتبار لعبقرية مسيحيتهم واني أؤمن بأن أفضل الوسائل لتكوين الأخلاق المسيحية كائن حيثما يرغم الانسان إلى تحصيل معاشه بعرق جبينه . وأفضل الطرائق المعاشية للإنسان انما هي في العمل النافع لذاتك ولغيرك . لأن المسيحية ليست عملاً يجب عليك إنجازه بل هي طريق تؤدى بك إلى القيام بذلك العمل . ولا تقوم المسيحية بالأقوال المنمقة والترانيم المزوقة بل قوامها الروح التي توحي إليك كيف تتكلم وكيف تترنم . وأكثر ما نرى ان الذين يجهدون عقولهم في اختيار الألفاظ يخسرون الغالب جمال الروح .

على انني لا أقصد بهذا التعريض بأحد البتة ، ولا التنقص من كرامة إنسان أو إنتقاد أفكاره ، سواء كان من ذوى الكهنوت أم من غيرهم من المبشرين والزعماء . فان لهم ملء الحرية في التبشير والتذييع ما استطاعوا لاقتياد الناس إلى طرقهم ومبادئهم . بل ربما دخلت معهم في مباحثاتهم ومناقشاتهم إذا رأيت لي من ذلك خدمة أقوم بها للعالم . ولكنني لا أريد ذلك الآن . لأن كل رغبتي في هذا الكتاب تنحصر في أن أظهر بكمال الإخلاص والأمانة الأسباب التي تدعوني إلى أن أكون مسيحياً في الوقت الحاضر . فابسط اختباراتي الماضية من الجهة الواحدة ثم أصحبها بآرائي ونظراتي الحاضرة .

فقد اسعدتُ بأن عشتُ إلى أكثر من السن الاعتيادي ومرت بي أدوار متعددة في جميع فروع الحياة . فعاشرت الفقراء والأغنياء على السواء ، الجهال والعلماء ، الفلاسفة والحكماء ، الأذكياء والأغبياء . وأتيح لي أن أقرأ كتباً عديدة في المذاهب والأديان ، فمنها من يؤمن ويمدح ومنها من يكفر ويقدح ، ومنها من يحتقر ويضحك ساخراً من كل مذهب ودين . وقدر لي أن أصغي إلى مشاهير الوعاظ المؤمنين كما كان لي أن أسمع نوابغ الزنادقة والمعطلين . وقد جربت تجارب عديدة وخبرت جماً من الدروس المفيدة ، وكانت مجاعتي تشتدُ في كل يوم لمعرفة كل ما في الوجود . فكنت تارة أحترق غيرة وطوراً تتأجج في قلبي

نيران الشك والكفر في عهدَي الفتوّة والشباب . وبالإجمال فقد رأيت نفسي في مقدمة السابقين كما رأيتني في مقدمة المتوانين .

وها قد بلغت إلى السن الذي أصبحت فيه كل عقائدي ومبادئي راسخة ثابتة في ذهني ، وتقررت فيه جميع علاقاتي بالحياة ، وقد استقرت عقيدتي في الوجود ولن يتغير شيء جوهري بعد من مذاهبي في الإنسانية أو في مركزي منها . غير انني بعد كل ما مر بي من الحوادث ورأيت من العجائب والغرائب المتناقضة ، ما برحت اسمى نفسي مسيحياً . وربما كانت للبعض لذة في معرفة ما يدعوني إلى ذلك .

ولكي لا يسيء القارىء فهمي لجهله الأسباب التي حملتني على ترك وظيفتي في الكنيسة أوضح ما يأتي بكل صراحة : فأنا لم أترك خدمة كنيستي لخلاف بيني وبين رعيتي قط ، كلا ، ولم أترك شعبي ومركزي بسبب هرطقة أو تعليم غريب مناف لعقائد كنيستي ، بل انما تركت الخدمة في الكنيسة لأني رأيت في الكتابة العمومية قوة تجذب قلبي إلى العمل ، قوة تستلذها روحي أكثر من أن أكون خطيباً مستأجراً لطائفة واحدة من الناس .

كثيراً ما نقرأ عن أفراد من رجال الدين يتركون خدمة كنائسهم لأجل راحة ضمائرهم المشككة في عقائد الكنيسة التي يخدمونها . غير اني لست من هؤلاء لأني كنت وما برحت أنظر نظرة غير المكترث لمثل هذه القضايا والشكوك . ولم يحدث أقل انزعاج مثل هذا في حياتي . لاني مازلت أعتقد بأن الكنيسة كرمة فسيحة الأرجاء ، ولابد أن يكون فيها كثير من العيدان اليابسة والفروع الذابلة ، غير انها تحتوي على الكثير من الدوالي اليانعة الآتية بأثمار الحق النافعة . وقد وقفت حياتي سحابة خدمتي الروحية على هذا القسم الثاني من محتويات كرمة الكنيسة . وانني ، ولاشك ، لو أتيح لي أن أصنع كنيسة جديدة لصنعتها من المواد والاساسات الضرورية الثابتة دون غيرها ، ولكن الكنائس لا تصنع صنعاً ، بل هي تنمو نماء والنمو لا يكون بدون نقصان وعيوب . ولكن إذا أزعجت العيوب فريقاً من الناس ، وثبطت هممهم ، فهل نسى أمثال هؤلاء أنه حيث لا يوجد العيب

والنقص لا توجد الحياة ، وأنا أعنى بالحياة النمو من الادنا إلى الأفضل

أنا صحافي اليوم يا صاح ، فاذكر هذا ولا تدعه يندّ عن ذهنك . واعلم أن هذا الكتاب لم يسطره كاهن دفاعاً عن دعوته أو تأييداً لطائفته ، بل انما كتبه رجل عامي ايضاحاً لحالته ولرأيه الخاص في ديانته . وأنني وأنا بحالتي الحاضرة قلما يهم أحداً من الناس إذا كنت مسيحياً تقياً أم لا . بل أنا قادر أن أعيش ولو خيل إلى الناس اني بوذي أو يهودي أو كافر زنديق . ولذلك فأنا مسيحي لأنني أحب أن أكون مسيحياً حباً مجرداً عن أية غاية أو مصلحة ، ولانني أعتقد بأن المسيحية أفضل طريق تؤدي بي إلى السعادة والغبطة في حياتي .

إن ولادتي في محيط مسيحي

لها بعض التأثير على مسيحيتي

« انني أحترم الماضي لأن منه نشأ الحاضر ،
واحترم الحاضر لأنه يحتوي على المستقبل »

ان للعائلة المسيحية التي وُلدت فيها ، وللأمة المسيحية التي أنا واحد منها ، وللمدنيّة المسيحية التي رضعت لبانها ، وللعصر المسيحي الذي أعيش فيه تأثيراً بيناً في مسيحيتي . أعترف بهذا بملءِ الصراحة ولا أستحي باعترافي.

غير ان هذا لا يعني بتة أني أقبل بأية عقيدة لمجرد أن أبي قبلها ، أو انني أؤمن بأي مذهب كان لأنني ورثته عن تقاليد جدودي . ولكنه يظهر بكمال الايضاح انني قد وجدت في عائلتي وفي محيطي عاملا قوياً شجّع ما في قلبي من الاستعداد للسير على الطريق المسيحية . وقد كان عليّ ان أجاهد أضعاف ما جاهدتُ للبلوغ إلى مسيحيتي لو انني ولدتُ بين برابرة أفريقيا أو غيرها من البلاد الهمجية . ولكنني سعيد لأنني ولدتُ في عصر النور وورثتُ مدنية عظيمة عن اسلافي ، اعترف بما قدمته لي شاكراً ممتناً .

فقد وصلت إلى المسيحية بعد جهاد كبير في العالم ، وتقبلتها بعد إختبارات نحو ألفي سنة . ومع أن هذا التاريخ سلسلة من الأغلاط فان الأغلاط في الغالب لمن أوفر مظاهر الاختبار تهذيباً وتعليماً .

بيد انني أرى أن أسلافي كانوا يخنقون طهارة تعاليم يسوع في أثناء الألفين سنة الأخيرة بخلطها مع مظاهر الوثنية الغاشمة ، فكانوا يضحون طهارة تعاليم المسيح على مذابح أنانيتهم وأهوائهم ورغبات جهالتهم . ولكن يلوح لي أيضاً أنهم عرفوا على ممر الزمان أنهم قد ضلوا عن السراط المستقيم الذي رسمه

لهم المعلم الحكيم فاستحوا من ضلالهم وحزنوا على تمرغهم في حمأته . فان كل الجرائم التي ارتكبتها الكنائس ، والاستبداد الذي تسرب إلى قلوب قادتها ، والاضطهادات التي لحقت بالأبرياء من أجلها ، والتعديات التي أصابت نبالها كبد الانسانية بسببها ، انما نتجت جميعها عن نقصان في أفهام الزعماء الذين تبعوا يسوع من غير أن يفهموا روح يسوع ، ولكن هذا النقصان قد زال برجوع الذين اصيبوا به إلى المبادىء المسيحية الأولية .

انني أحترم الماضي ، ولكنني لا أغمض عيني عن عيوبه . احترم الماضي لأن منه نشأ الحاضر ، ولأننا إذا درسنا الماضي واختباراته ، وعرفنا ما جرى فيه من التقدم والتقهقر نستطيع ان نجني مستقبلاً أفضل وأجل من مستقبلنا .

وأؤمن بالنشوء التدريجي والارتقاء المتواصل ، لأن كل راغب في الدرس والمعرفة يجب أن يؤمن بهما . فكل ذي علاقة بالحياة نام غير مصنوع . والمسيحية نفسها انما نشأت عن اليهودية التي كانت أفضل الطرق الأدبية التي بلغ اليها العالم قبل مجيء المسيح . ويسوع نفسه انما جاء ، كما قال : « عند ملء الزمان » . ولذلك فهو ثمرة الكمال في شجرة الزمان . وقد كان على المسيحية أن تنمو بعده لكي تجتاز عواصف الشبيبة وتكبح الجامح فيها فتتأصل في القلوب البشرية إلى الأبد .

أجل ، إن المسيحية لا تثبت أو تسقط لمجرد انها نظام نظري فائق الطبيعة ، وغير منظور ، بل لأنها نظام عملي منظور وقد خبره ألوف الألوف من أبناء المعمور وعرفوا فوائده في كل فرع من فروع الحياة .

والعالم مع شروره الحاضرة هو أفضل بما لا يقاس مما كان فيما مضى من الزمان . فان الشعور ضد القادة ، والنفور من الظلم والمعيشة البهيمية ، والحرب والخصام ينموان عاماً فعاماً في الصدور . وأهم ما يسبب هذا النمو انما هوتأثير ذلك الناصري المسكين ومثاله وتعاليمه .

لا أثر للرجاء بالسماء

أو الخوف من الجحيم في مسيحيتي

"ان للمجازاة والمكافأة بعض التأثير
على سلوك الانسان ولكنهما لا تبنيان
حجراً واحداً في بنيان أخلاقه"

لست من الناظرين إلى نظام الثواب والعقاب كما يفهمه وينظر إليه أكثر الناس . لأنني لا أعتقد بأن حكومة الله أو شرائع الطبيعة ترغبان في مثل هذا النظام . ولا أنكر اننا بطبائعنا نتأثر بما نتوق اليه من الأشياء المستحبة وما نخافه من الأشياء المستكرهة ، ولكن مثل هذه التأثيرات تتسلط في الغالب على صغار الأولاد وتزول كلما تقدمنا نحو البلوغ . ففي سن البلوغ تتمّ السيادة للضمير والارادة التي ترفض ما لا ينطبق على الوجدان في سبيل ما هو أكثر منه انطباقاً واقناعاً . وكلما تقدم الانسان في الأيام تتذلل أمامه المصاعب وتزول من ذهنه المخاوف التي كانت تخطر له في سن الصبا ، فيحتقر الخوف ويحترم الشجاعة والجرأة حيثما وجدهما . وربما كانت هذه الشجاعة وهذه الجرأة من الحاجات اللازمة لكيانه كرجل بالغ لزوم الرغبة والخوف له كولد صغير .

أما أنا فلستُ مسيحياً لمجرد اعتقادي بأن المسيحية تساعدني على البلوغ الى السماء ، لأن معرفتي لما سيحدث بعد الموت ضيقة محدودة ولا تستطيع أن تكون قوة فعالة تميل بحياتي كيفما أرادت . كلا ، ولا للخوف من الجحيم أقل تأثير على مسيحيتي ، لأنني أعتقد بأن الرأي القائل بالعذاب الجهنمي والنار الأبدية غريب عن طبيعة الاله الذي أؤمن به .

على انني لا أنكر البتة أن أتباع خطوات يسوع يؤدي بي إلى الغبطة السعادة وأن الابتعاد عنه يؤدي إلى الشقاء والتعاسة . ولكن هذا لا يتعدى

الظروف التي تحيط بشكل الحياة . فقد رتبت الحكمة الالهية الكائنة في الطبيعة أن جميع العائشين عيشة معتدلة على مقتضى الشرائع الطبيعية يكونون في الغالب سعداء ، وان الذين ينقضون هذه الشرائع ترافقهم الآلام والمصائب . أما الاهتداء إلى معرفة هذه الشرائع فمن خصائص تهذيب الغرائز الطبيعية وهو يساعدنا على تكييف ذواتنا للحياة على وفق شرائع الوجود وان لم نفهمها في أكثر الأحيان . ولكن ان أبني اختياري لنوع الحياة التي أحياها على كل شكل معين من البركة أناله في الآخرة ، أو نوع هائل من التهذيب يحل بي في الجحيم ، فذلك بعيدٌ جداً عن أن يكون حقيقة في ذهني أو ملائما لرجولتي .

انني أكون سعيداً ههنا ، في هذه الحياة ، اذا تبعت مبادىء يسوع ، وأكون تعيساً ههنا ، في هذه الحياة ، اذا رفضت هذه المبادىء أو شككت في صحتها . ولما كان هذا الوجود مزيناً بالنظام ، وكانت الشريعة التي فيه واحدة كما على الأرض كذلك في الكواكب والنجوم كما في هذه السنة كذلك بعد مليون سنة ، فان الافتراض الذي يتبادر الى ذهني هو هذا : إذا كنت سأظل حياً بعد الموت فانني سأظل سعيداً بايماني بيسوع واقتفاء خطواته ، وبالعكس سأكون تعيساً شقياً ان ضللت عن السير وراءه . هذه عقيدتي بكاملها وليس للسماء أو للجحيم دخلٌ فيها البتة .

ان ايماني بالمسيح

غير مبني على شهاداته الرسمية

"ان يسوع هو اسمى مثال للعظمة الحقيقية في تاريخ الجنس البشري . ولا احتاج في مسيحيتي إلى شهادة أو برهان على هذه الحقيقة . لأنه لا يهمني من أي جهة من الاحراج جاء إلى العالم"

انني أؤمن بيسوع واتخذه معلماً لي، وبملء اختياري اسمي ذاتي تلميذاً له ، ولكن القوة التي تدفعني إلى ذلك انما هي مستمدة من أقواله وأفعاله المدونة على صفحات الإنجيل.

فأنا لا أؤمن بيسوع ، مثلاً ، لأنه ابن الله فحسب ، لأن فريقاً من الناس يقول انه كان الهاً حقيقياً ، وغيرهم من يقول انه لم يكن سوى رجل عظيم ، غير ان لي رأياً في هذا الموضوع مثل غيري من الناس ، ولكن ليس لهذا الرأي أقل تأثير على عقيدتي بزعامة يسوع ، فأنا أعتقد بأنه معلمي الوحيد ولا فرق عندي أكان إلها هبط من السماء وقضى بضع سنوات على الأرض ، أم كان اماما من كبار الحكماء وقد عاش عمره كما يعيش جميع الأحياء ، ففي الحالتين أرى ان ما قاله وما عمله كاف لتعليمي وسعادتي .

ان ايماني بيسوع غير مبني على انه حُبِلَ به وولد بدون معرفة رجل ، فان هذه العقيدة قد طالما حمى وطيس الجدال بين الناس بسببها ، فمنهم من آمن بها ومنهم من أنكرها ، غير انها لا تؤثر البتة في مسيحيتي .

ان مسيحيتي لا أثر لوحي الكتاب فيها بتة ، فسواء كان الكتاب موحى به من الله أم لم يكن ، وسواء كانت ألفاظه ومعانيه منزلة كلها أو كانت المعاني

منزلة دون الألفاظ والعبارات ، فان معلمي يسوع هو هو في عقيدتي مهما أظهرت لي من المقدمات والنتائج لتأييد الوحي أو لنفيه .

ان سلطة يسوع كائنة في تعاليمه المكملة لحاجات الناس وليس في عجائبه ، فان العجائب يمكن أن تقدم بعض البراهين لكثيرين من الناس عن عظمة يسوع كزعيم ، غير انها لا تؤثر بي من هذا القبيل ، لان الحقيقة القائلة ان رجلا يستطيع أن يحولَ الماء إلى خمر ، ويشفي الأيدي اليابسة ويقيم الأموات يمكن أن تدهشني وتقنعني بانه كان ذا قوة فائقة ليس لي قوة مثلها ، ولكنها لا تظهر لي الصفات التي تؤهله لان يكون مرشداً روحياً لي .

أكثر الناس لا يصدقون بأحد من الزعماء ما لم يعرفوا القوة التي وراءه ، أما أنا فكل ما أود أن أعرفه من الزعيم القوة الكائنة في شخصيته ، فإذا جاءني أحد بحقيقة ما ، فانه سواء عندي كان ذلك الرجل ملكاً أو اسكافا ، وانه لأسهل على أن أعرف اذا كان قوله حقاً أم لا بتطبيقه وتجربته في حياتي وليس بالبحث والفحص إذا كان يحق له أن يقول مثله قولا .

انني أجد في تعاليم يسوع وحيا عميقا ساميا يكشف لي أسرار الحياة البشرية ومكنونات القلوب الانسانية ، واهتدي بها إلى مفاتيح المعرفة العظيمة التي تربط الناس بعضهم ببعض مما لا أجده في أية تعاليم أخرى من تعاليم المعلمين والمصلحين وانك لعاجز عن ان تجرده من الصفة التي تجعله رباً ومعلماً لي ببرهانك النظري انه لم يصنع عجيبة قط من العجائب المنسوبة اليه او انه لم يولد من امرأة عذراء ، بل انك لا تقدر ان تجرده من هذه الصفة حتى تقدم لي سيداً أفضل منه ، فاذا قدمت لي معلماً اغزر حكمة وأوفر عطفاً وأكثر تأثيراً وجاذبية للقلوب من معلمي فحينئذ أترك يسوع ، ولكنني لن أتركه قبل ذلك الحين .

على انني أستطيع أن أقول اليوم نفس ما قاله أحد تلاميذه الأولين : « يا معلم ، إلى من نذهب وكلام الحياة الأبدية هو عندك ؟ » .

أما البرهان على حقيقة وجود يسوع وحياته فليس ضرورياً في

مسيحيتي ، فان فكتور هيجو أو يوسيفوس أو شكسبير يمكن أن يكتبوا لي تاريخه . ويسوع لا يثبت أو يسقط في عقيدتي بناء على شهادة المؤرخين الذين دونوا ترجمة حياته فان هؤلاء كانوا أتباعاً ليسوع ولم يكن يسوع لهم أتباعاً .

ولا يهمني من أي جهة من الاحراج والجبال جاء إلى العالم . لأن بلاده وجدوده وأصل ذريته قلما تؤثر في مسيحيتي وكل المجادلات والمحادثات في حوادث تاريخ حياته هي حشو فارغ في نظري . فهو بالرغم من جميع هذه المباحثات الكائن الأسمى الذي عرفته البشرية حتى الساعة ، والمثال الأعلى للحكمة واللاهوت والمحبة في تاريخ هذا الجنس البشري . ولا احتاج في مسيحيتي إلى شهادة أو برهان على هذه الحقيقة الواضحة في ذهني .

فان الديانة التي أدين بها ليست ديانة سلطة أو قوة تحتاج إلى دعامة وتثبيت . وربما أكون أكثر صراحة إذا قلت أن سلطة يسوع كلها على قلبي مستمدة من حقانية تعليمه وليس من المصدر الذي جاء منه هذا التعليم .

فهو يخبرني أفضل من كل معلمي العالم ، كيف يجب أن أعيش على هذه الأرض ، وما هي الطريق الفضلى التي أستطيع أن أمشي عليها في عواصف هذه الحياة المضطربة ، وكيف يجدر بي أن أعامل عائلتي ، وأصدقائي وأعدائي وأقربائي . ولذلك فهو أنقى ينبوع أستقى منه مياه تهذيبي ، لأنه كما قال جوبرت : « ان التهذيب يقوم في كل شيء يساعدنا على البلوغ إلى القناعة في حاجات أجسادنا وأفكارنا »

ان يسوع هو مأمور الاجراء الروحي الذي أنا في حاجة ماسة إليه لقضاء حاجاتي الروحية ، ولا أسأله أكثر مما أسأل أي مأمور اجراء آخر من القائمين بقضاء حوائجي الجسدية « هل تقدر أن تقوم بعملك ؟ » .

وانني أرجو من القراء ان يتذكروا دائماً في قراءة هذا الكتاب انني انما أكتب عن نفسي فقط بملء الصراحة ، ولست بما أكتب أنتقد أحداً من النّاس لأنه يعتقد غير ما أعتقد . فإن في العالم كثيراً من الأفكار التي لا تستطيع أن تقبل

والراحة ما بفكري وأزود بيد أنها ليست أفكاري .

أجل ، ولا يتحكم بي يسوع ويأمرني بمقدار ما يخاطبني ويعلمني . ولا يقودني كما يقود الانسان رجلا أعمى بمقدار ما يفتح عيني ويطلقني لأسير وحدي . وكالمعلم الصالح لا يثقل كاهلي بالفرائض والرسوم بمقدار ما يوقظ في أعماقي الرغبة في اقتباس الحكمة والفهم وليست الأقوال التي قالها حقيقية لمجرد انه هو قالها ، بل انما قالها لأنه عرف انها حقيقية . وانني لا أصدق كل ما قاله لانه كان ذا صلاحية لان يقول مثله قولاً ، بل انما أؤمن به عن قناعة وتسليم في أعماق قلبي بأن كل كلمة منه حقيقة خالدة ، وأما المجادلات والمشاحنات في الأصول الشرعية والتفاسير القانونية والصلاحية للسيادة والرئاسة والنيابة فانها قلما تهمني ؛

أنا مسيحي

لأن يسوع قد أظهر لي بكمال ما يوجب
القناعة والرضى ، حقيقة الشخصية الالهية

"إن خادم الجميع هو أعظم من ملك الملوك"

اننا كيف نظرنا إلى طبيعة يسوع ، سواء اعتبرناه الهاً أم معلماً عظيماً أم زعيماً متطرفاً ضالاً ، فاننا لا نستطيع ان نشك في ان خلاصة رسالته قد انحصرت في أن يعلن لنا طبيعة اللّه . ففي سائر أعماله وجميع أقواله نراه يضرب على وتيرة واحدة خلاصتها قوله ، « من رآني فقد رأى الآب » وانه لسواء عندي مغلوطا كان ام محقاً فانني أعتقد بأنه ما من معلم آخر في العالم استطاع ان يصور لنا اللّه عز جلاله بصورة أفضل وأكمل من صورة يسوع . فلو أتيح لي أن أتخيل صورة للّه لما كان في وسعي أن أرى صورة تستحق اعتباري وتستدعي عبادتي واحترامي مثل صورة يسوع المسيح .

وقد ميز يسوع صورة الاله التي قدمها للعالم بصفتين خاصتين . فاظهر اللّه أولا كصديق ، ثم أظهره كخادم للوجود وليس كملكه الجبار .

وهاتان الصفتان قد كان لهما ، أكثر من أية حكمة أو تعليم كان في العالم ، الفضل الأكبر في اصلاح العادات والتقاليد وتهذيب النظم وترقية الأخلاق في سائر أنحاء الأرض .

أولا ، أظهر اللّه كصديق عطوف . فعزز بذلك العقيدة الجليلة التي ظهرت أولا في بلاد اليهودية ثم كادت تضمحل تحت تأثيرات الأمواج الوثنية التي غطت بتيارها جمال الايمان اليهودي عندما جاء يسوع إلى العالم . وقد كان ظهور هذه العقيدة للمرة الأولى في الأشعار المنسوبة لداود . فان كان داود قد كتب المزمور

الثاني والعشرين أم لا فانه ولا شك قد كتبه أحد اليهود الذي كان من غير
قل معارضة في مقتبل الشباب . وانني أتمثل أمامي ، الراعي الصغير داود ،
يرعى قطعان ابيه ، ويراقب الخرفان المتجمعة حواليه عند حلول المساء : وقد
طالما فكر ، كما يفكر كل منا ، بالألغاز العظيمة والقضايا المحيطة بالوجود وما
فيه من الكائنات الحية وغير الحية ، وتاه في صحاري الحيرة يسائل نفسه كيف
يكون الشخص الذي يقطن في السماوات ويحرك بكلمته جميع الكائنات . ولا شك
ان ذلك الراعي الشاب كان شاعراً وللشعراء طريقة مختصة بهم يوضحون بها
حقيقة غير المنظور وغير المعبر عنه بأمور تنظرها وتشعر بها ، « فيطلقون على
اللاشيء الاثيري اسما ويقيمون له مسكناً » أجل ، انني أتمثل ذلك الراعي الشاعر
وأكاد أراه الآن بعيني وان لم يكن حاضراً ، ينظر إلى الخرفان المجتمعة حواليه
طلباً للحماية والوقاية فتشرق في قلبه أشعة علوية تُشعرهُ ان في هذا الكون وفي
هذا الحقل الجميل الذي أنت فيه توجد صورة واضحة للخالق العظيمة الذي تنشد
صورته . فيترنم في الحال بتلك الأنشودة الخالدة ، التي هي أشد أشعار العالم
وقعاً في القلوب وتأثيراً على النفوس ، الأنشودة التي عزت من القلوب وأزالت
من مخاوف بني الانسان أكثر مما فعلت جميع أشعار الأرض ، بل انها بالحقيقة
قد أنارت مشاعل الحياة في قلب مغاور الموت :

« الرب راعيّ فلا يعوزني شيء
في مراع خصيبة يقبلني ، ومياهَ الراحة يوردني
يرد نفسي ويهديني إلى سبل البر من أجل اسمه
اني ولو سلكت في وادي ظلال الموت ، فلا أخاف سوءاً .
لأنك معي .
عصاك وعكازك هما يعزيانني » .

هنا يجد العالم ميزة اليهودية البارزة . ولأجل هذه الأنشودة قيلت الآية ،
«لأن الخلاص هو من اليهود» فان هذه الفكرة لمن أفضل ما عرفه العالم في
الفداء : اللّه صديق عطوف . انك لا تستطيع ان تجد عقيدة مثل هذه في كتب

هوميروس واكيلا ، ولا في كتب أي عاقل عالم أو حكيم من حكماء اليونان ، كلا ولا في تعاليم كنفوشيوس وبوذا وحمورابي . ولذلك فانها فريدة قلائد اليهودية .

وقد كانت هذه الفكرة الألف والياء في جميع تعاليم يسوع في الخالق العظيم .

فقد علمنا أن نصلي قائلين « أبانا » . وهذه الكلمة قد بعثت حرارة المحبة في جميع أنحاء العالم . وظلت هذه الفكرة سائرة في طريقها المحفوفة بالأخطار وثبتت حتى الآن بالرغم من جميع المقاومات والتحريفات ، في وسط جميع العقائد العقيمة والنظم السقيمة ، والمنطق الناعم والسفسطة الفارغة . ولا تزال حتى الساعة نقية قوية متجملة بجمال الشباب .

وانني مدين ليسوع ولداود بما عندي من القوة التي استطيع ان أقاوم بها جميع المتغطرسين من ذوى السيادة والعجرفة في التاريخ وأصرخ بهم قائلاً ، « ليس اللّه ملكي الجبار بل هو صديقي الحميم » .

أما الصفة الثانية التي وصف لنا بها يسوع العزة الالهية ، فهي ان اللّه ليس بسلطان الوجود المتجبر بل هو خادمه الوضيع .

وكما سبقت فاوضحت في كتابي « اللّه والديمقراطية » أكرر الآن ، ان العالم كان يعتقد فيما مضى ان السيد المطلق للكون هو ملك جبار مثل ملوك الأرض وأسيادها . وقد نتج ذلك كله لأن الناس لم يكونوا يفهمون معنى العظمة الحقيقية . فكانوا يقولون ان اللّه يجب أن يكون أعظم شخص في الوجود . ولما كان الملك المثال الأعلى للعظمة في ذلك الزمان ، لذلك وجب أن يكون اللّه ملكاً مثل سائر الملوك . ولأجل هذا عم الاعتقاد بين المتقدمين بان اللّه ملك بجميع مظاهر الملك . ولذلك كانوا يتوهمون انه بالغ الإنانية ، معجب ، متصلف ، غيور ، ظالم ، رهيب . لا يستطيع أحد أن يدنو من عرشه . ولكن يسوع لم يكن على شيء من صفات هذا الاله .

فهو لم يجلس على عرش ، ولم يسع إلى كرامة أو شرف لذاته ، وكان يخدم

الناس سحابة حياته لأجل منفعتهم عوضاً عن أن يحكم عليهم بالعمل لأجل منفعته الخاصة . وقد فعل ذلك لأنه كان يعتقد بأن عمل الخدمة هو أفضل كثيراً من عمل السيادة . وعلى ذلك قوله : « من أراد أن يكون فيكم عظيما فليكن للكل خادماً » .

وقد حدث لي منذ مدة حادث قاد هذه العقيدة مرغمة إلى منزلي ثم إلى فكري . فقد افقت من نومي في احدى الليالي مفتكراً ان هنالك قارعاً يقرع باب غرفتي . وكانت الساعة الثانية صباحاً وهي ساعة الظلمة الساكنة . وبعد بضع ثوان ثبت عندي أن ما سمعته لم يكن قارعاً غريباً يطرق باب غرفتي بل انما كان قارع قلبي يقرع في العروق الضوارب في عنقي على وسادتي . وفي تلك اللحظة سمعت قاطرة القطار تنفخ وتصفر وهي تسير على الخطوط الحديدية قرب منزلي . فقلت على الفور للقاطرة ولقلبي : « سيرا ولا تبطئا فانتما حرّان في سيركما ولا سلطة لي عليكما . انني لا أدري من يسير بهذه القاطرة ، كما انني لا أدري ممن يجعل قلبي خافقاً نابضاً . فانني ولاشك لا سلطة لي على ادارة حركته أو على تكييف نبضاته . ومع انني استطيع أن أوقفه عن الحركة بسكين حاد أو بقليل من السم ، ولكنني ان أوقفته لا أستطيع أن أحركه ثانية . »

فقلت إذ ذاك في نفسي ، ان الرب هو الذي يتحرك في قلبي . وظللت أراه سحابة تلك الليلة عاملا نشيطاً يحرك المضخة المركزية في قلبي التي ترسل دم الحياة إلى سائر أنحاء جسدي ، وهو يشتغل بصبر وثبات غافلاً كنت أم مستيقظاً . فجاءت إلى ذهني في تلك اللحظة الآية القديمة ، « إن حافظ اسرائيل لا ينام ولا يَوْسن »

فخطر لي إذ ذاك انه سبحانه وتعالى ، هو الذي يدير رحى رئتي ، وينقي مجاري دمي ، منتصباً كأنه كيماوي ماهر في مصنع معدتي ، محولا الغذاء بطرائق الكيماء العضوية الغامضة إلى مادة تمتزج باللحم والدم ، وقائداً كل ذرة من دمي في طريقها المتعرجة في الشرايين والأوعية الشعرية ، وهو لا يفعل ذلك لي دون غيري من الناس بل لكل مخلوق بشري على وجه الغبراء ، ولسائر المخلوقات

السماء وحيتان البحار ، ويراقب النمو والاضمحلال وألوف الطوارىء الخارجية التي تطرأ على حياة العالم النباتي ، وفوق كل ذلك فهو يقود السيارات في سيرها ويدبر حركة المجرات اللامعة في مسالكها الغريبة .

وخيل الى في تلك الساعة انه قد اتيح لي أن أتمتع بنظرة جديدة من اللّه ، وانني كموسى كدت أرى ما أخفى عنا من إلهنا ، وان هذه العظمة الغير متناهية بكمالها التي لا يستطيع انسان ان يدركها ، وهذا هو الجلال اللامع الذي لا يحيط به وصف ، الذي لا ينظره امرؤ ويعيش . بل وثقت بانني قد لقيت الخادم العظيم لجميع الأنام وهو مكب على عمله .

أجل ، ان مثل هذه العظمة الحقيقية تفوق ببارق انوارها جلال رب الجنود وسلطان الوجود الذي يمثله أبناء المسارح جالسا على عرش من الجواهر تحيط به السارافيم والشاروبيم ، كما تفوق اشعة الشمس اللامعة بأنوارها فوق قنن الجبال أنوار الشموع الضئيلة في المسارح المزدحمة بالجموع .

هذا هو التعليم الذي أعطاناه يسوع ، ان اللّه ليس بالسلطان القاسي بل هو أب رؤوف وان جميع الناس هم أبناء متساوون أمامه ، وهذا التعليم هو أساس الديموقراطية الحرة التي دكت الصروح القائمة على أسس الاستبداد والاستبعاد بعضها وراء بعض .

وانني لست بالمسيحي لأجل ما صنعه يسوع معي فحسب ، بل أنا مسيحي لما يصنعه مع العالم الذي أعيش فيه والأمة التي أنا فرد منها .

على أن القوة المتأتية من معلم أجمع العالم على اكرامه واحناء الرأس لأخلاقه ومبادئه كيسوع - انما هي في الحقيقة بعيدة الغور ولا يدركها الا الثاقبوا النظر من الصادقي الايمان لان أمراء الكنائس المستبدين العميان في تعصبهم وكبريائهم لا يشعرون الا وقد هبطت قصور تشامخهم ومحبتهم للتفريق والتحزب كل لطائفته عندما يتذكر التابعون لهم ما كان عليه رئيس الكنيسة الأعظم من التواضع والمسكنة والملوك والسلاطين وغيرهم من ذوى السيادة وأرباب السلطة لم تقمع شهواتهم وطموحهم للسيادة والصدارة قوة في العالم كما فعلت بهم قوة

يسوع الحقير المسكين الذي لم يستطع أحد أن ينزع صورته من أذهان العالم بل ان البلوطوقراطي في هذه الأيام التي نعيش فيها يشعر بأنه يجب عليه أن يبرر ذاته بأن يفعل شيئاً تكون فيه مصلحة عامة وقوة مُفحمة لاعتراضات الرأي العام ، لأنه لا يقدر أن يهرب من أمام الخيال الذي يتهدده ، خيال ذلك الفقير المسكين الذي جاء إلى العالم ودعى ابن اللّه وقضى عمره يصنع خيراً ويحسن إلى جميع المحتاجين . ولذلك نرى روكفلر يضطر إلى انشاء الكليات لمقاومة الأمراض ولتعميم وسائل التهذيب . وكارنجي يُرغم على بناء المكاتب العمومية و البذل في السبل السلامية وهنري فورد يشعر باضطرار إلى تبرئة ذاته فيستخدم الالوف في مصانعه . والنقطة الرئيسية هنا ليست ان هؤلاء الثلاثة هم رجال أفاضل ونماذج صالحة لغيرهم من الناس ، بل النقطة الهامة ان هؤلاء الثلاثة وأمثالهم من الفاعلين فعلهم في العالم انما هم مضطرون الى ان يقيسوا ذواتهم وأفكارهم بمقياس حياة يسوع . لأنه ليس في العالم من طريقة للتخلص من مقاييس هذا الانسان . فنحن نستطيع ان نطبق حياتنا عليها أو نرفضها . ولكننا لا نستطيع أن ننكر وجودها ، ولا أن نتناسى أمرها .

أنا مسيحي

لأن المسيحية تلائم غرائزي

«ليس في المسيحية ما يناقض الانسانية»

إن البرهان الأسمى على أية حقيقة كانت في الوجود انما هو كائن في الغرائز . ومن أقوال أمَرْسُون ، انه عندما تكون لدى اللّه قضية يريد أن يبحث فيها مع الجنس البشري فانه يغرس براهينه ويأتي بادلته عن طريق الغرائز الفطرية .

كلما فكرت برجاحة فكري وغزارة ذكائي وفطنتي ، أرى ذاتي أوفر شكا بفكري وأكثر تردداً في احترام فطنتي لان الاختبار قد علمني ان المنطق كثيراً ما تغلبه الشهوة وتغشاه أمواج الرغبة ، وان البرهان على ما نريد أن نؤمن به كثيراً ما يكون سلّماً غاشة للاقناع . لذلك فان حجج المتشرعين وبراهين المنطقيين لا تؤثر بي البتة في القضايا الحيوية الهامة التي جل اعتمادي فيها على غرائزي . لان المشاحنات والمباحثات يربحها في الغالب الفريق البارع في التعبير عن أفكاره بالألفاظ البراقة والماهر في ميادين المنطق واستخدام سيوف السفسطة الفارغة .

فأنا أحب إمرأتي ، مثلاً ، وأحب أولادي وأصدقائي وبلادي ، ليس لانني قد طرحت قضية محبتهم أو عدمها على بساط البحث في فكري لكي أرى ما يتأتى لي من المحبة أو عدمها ، بل انما أحبهم لاني أسير وراء رغبة خفية في نفس قد عرفت بالاختبار انها أكثر من المنطق قوة ، وانها مثله يمكن ان يعتمد عليها في أية ساعة بأشهى الأثمار وخير النتائج .

غير إنني إذا تكلمت عن الغرائز فأنا أتكلم عن جميع أنواعها العاملة في

أعماقي . ففي كياني غريزة العطش ، والجوع والدفاع عن الذات ، والحرب ، والطمع ، والحب الجنسي والرغبة في حفظ النوع ، والعدالة ، والانتقام ، ومحبة الجمال ، والخوف ، والشجاعة ، والتقوى وأمثالها . ومن مجموع هذه الغرائز تتكون انسانيتي .

وانني لا أعتقد بأن بعضاً من هذه الغرائز شرير ويجب عليّ أن أستأصله من كياني . بل أثق بأنها جميعها صالحة ، لأن اللّه قد وضعها فيّ ، « و ما قدسه اللّه لا تنجسه أنت » .

وكل ما احتاج اليه أن أرتب هذه الغرائز كلاً في موضعها واضبطها وأقرر لكل منها عملها حفظاً لصحتي وسعياً الى الاعتدال في طبيعتي . لانني أحتاج إلى أن أكون انساناً بكل ما في الانسانية من القوة .

واذا خرجت واحدة من هذه الغرائز ، اما عن اهمال أمر العناية بتدريبها ، أو عن اعطائها أكثر مما يحق لها من العناية ، عن اعتدالها وعملت على الخراب والدمار فان ذلك لا يعني انها غريزة شريرة ، بل انما يظهر انها خرجت عما رُسِمَ لها من العمل . لأن غرائزي هي بطبائعها كالخيول الجامحة . وأنا لا أعتقد بأنه يجب عليّ أن أقتل أمثال هذه الخيول لمجرد انها جامحة ، بل يجدر بي أن أطبعها واروضها حتى انتفع منها لتحملني وتحمل أثقالي .

وقد وجدت بعد الدرس والاختبار ان المسيحية أفضل نظام لترويض هذه الغرائز وتدريبها في المسالك الصالحة . لان الانسان أشبه بالآلة البخارية التي تجرّ القطار والغرائز التي فيه هي البخار ، لأن كل ما فيه من القوة مستمدٌ من غرائزه . أما الارادة والذكاء فليس فيهما شيء من القوة الجسدية ، ولكنهما مُديران منظمان . ولذلك فانني اعتقد بأن غرائزي هي البخار ، وجسدي هو حديد الآلة البخارية ، وعقلي هو الخادم الذي يشعل النار ويسوع المسيح هو المهندس البالغ الدراية في تسيير هذا القطار حيثما شاء .

غير ان بعضاً من هذه الغرائز هي حيوانية محضة وقد ورثتها على ممرّ ألوف السنين من الحياة الحيوانية التي ترجع إلى عهد الانسان الأول المنحط

والى الهمجية والبهيمية الاولى ولهذه الغرائز مركز خاص في جسمي ، وهو مركز طبيعي نافع لابدّ منه لكياني . ولكن اذا لم تتسلط ارادتي على هذه الغرائز وتحكم عليها في جميع حركاتها وسكناتها لكي تتجه أبداً في السراط المستقيم فانها تقودني إلى الموت والهلاك .

فالمحبة الزوجية مثلاً ، التي هي واحدة في الانسان والحيوان ، انما تحفظ من ان تنحط وتتسفل إلى درجة تؤذي وتضر في المجتمع الانساني باخضاعها للغرائز المتهذبة على مرور الايام كالاعتدال ، والامانة والتضحية ونكران الذات في سبيل خير الآخرين وسعادتهم .

بيد انني اذا قلت ان المسيحية خير مُرَوِّض وأفضل مُدرب للغرائز البشرية فأنا لا أعني بالمسيحية مجموع الموضوعات التي أمرَ بها نفرٌ من ذوى الأنانية والتعصبات الطائفية التي لا غاية دونها سوى السيادة والعجرفة ، بل أنا أرجع دائماً إلى المبادىء المسيحية الأساسية التي يسلّم العقل الصحيح بأنها قد أعلنت وأظهرت في حياة يسوع وفي تعاليمه .

وإذا شاء أحد أن يُصرّ على أن المسيحية والكنيسة واحد ، وان تعاليم يسوع هي نفس التعاليم التي وضعتها بعض الكنائس المسيحية في أزمنة مختلفة ، فانني أصارحه القول أن أي بحث يجرى بيني وبينه انما هو عقيم وبغير فائدة . لأننا اذا لم نرجع إلى نصوص الانجيل البسيطة ونستخرج منها خلاصة مقاصد يسوع ومبادئه ، ونميز بينها وبين جميع الزوائد الغير ضرورية فانه ليس من فائدة ترجى من أبحاثنا ولا من جميع أعمالنا وأقوالنا في هذا الموضوع .

على انني لا أقصد بهذا أن أجرّد الكنيسة من فضلها لأن الكنيسة محقة في جميع عقائدها الأولية . والتأثير الصالح الذي تحدثه جميع الكنائس المسيحية هو أفضل عامل في الهيئة الاجتماعية على ترقية الاخلاق وزرع بذور الفضيلة في أفكار الرجال والنساء على السواء .

ولكن اذا أمعنا النظر في تعاليم يسوع نرى أنه قد حصر القوة الكبرى في

ثقته بغريزة واحدة ، هي غريزة المحبة . والمحبة ليست ثمرة من ثمار الفكر أو نتيجة من نتائج المنطق بل هي غريزة طبيعية لا تقوم الحياة بدونها . وقد قال يسوع : انها ، أي المحبة ، « كمال الشريعة » ، وهي الآية الذهبية لتصرف البشر بعضهم مع بعض .

وانني لا أجد في حياة يسوع ما ينافي المبادىء الانسانية ، ولا أعرف أن في المسيحية تعليماً يأمرني بأية طريقة كانت على تقييد عواطفي وتخنيثي أو ينزع من الحياة البشرية شيئاً من حرارتها وكهربائيتها وجمالها وعزمها . ولكن هنالك عدداً كثيراً من الطوائف وأصحاب الأوهام في المسيحية الذين يقترفون أمثال هذه الجرائم باسم المسيحية . ولا شك عندي أن القارىء الاديب يدرك هذه النتيجة لذاته .

أما أنا فانني أعتقد بأنه ليس في اتباع يسوع ما ينزع ولو جزءاً قليلاً من انسانيتي . وأما ما يفرضه البعض من وجوب الابتعاد عن جميع رغبات هذه الحياة ، ونكران الذات ، والاعراض عن جميع طيبات هذه الأرض ، وقهر الذات بأنواع التعذيبات المختلفة ، وانه يجب أن نقضي الحياة بالتأملات الروحية - فانه قلما يهمني .

فان كلمة « طهارة » أكثر ما يستعملها الناس في غير محلها ، بل كثيراً ما يستعملونها بصورة تدعو إلى الهزء والسخرية . لان الانسان يكون طاهراً بالحقيقة اذا تسلطت مبادئه السامية على ما في جسده من القوات والرغبات تسلطاً قانونياً . أما اذا لم تكن له رغبات جامحة ليكبحها ويتسلط عليها فانني لا أستطيع أن أدعوه طاهراً . وقد قال ريتشارد جرانت هَويْت ، أن العفة كلمة كثيراً ما يسيء الناس استعمالها ، فانها لا تعني العذراوية دون غيرها ، فان أمهاتنا عفيفات كاخواتنا ، بل ربما كانت الأم المتزوجة أكثر عفة من ابنتها غير المتزوجة .

ومن شرّ اللعنات التي علقت بأفكارنا من العالم القديم أن الصلاح فضيلة سلبية . ولذلك وجب على المسيحي أن يحتفظ بملء الصرامة على القيام بمضمون

الوصايا التي لا أول لها يُعرف ولا آخر يوصف وفي أول كل منها « لا تفعل ... » .

ولكن المسيحية الحقيقية هي عكس ذلك ، هي تنشيط جميع القوى العقلية، والعمل على جعل الحياة أوفر اثماراً وأكثر خصباً . والمسيحيون يجب أن يكونوا، « ملح الأرض » و « اذا فسد الملح فبماذا تملح الأرض ؟ » وأما الدافع الذي يدفع بعض الناس إلى تسمية المسيحيين بالمستخنثين الجبناء ، ويجرئهم على الاعتقاد بأن الطريقة الوحيدة للوصول إلى وجود مزدحم ممتلىء من الغبطة والسعادة انما هي طريق الرذيلة والتطرف في كل شيء - فانما هو خَبَلٌ في عقولهم . لان الكتاب المقدس يصيب من الوجهة العلمية عندما يصف الخاطيء بالمجنون . وقد قال يسوع انه جاء لكي نكون فرحين به ولكي يكون فرحنا كاملاً» ولذلك فانني مسيحي لان اقتفاء خطوات المسيح هو أفضل نظام رأيته حتى الساعة لجعل حياتي غنية كاملة بالفرح الكامل .

أنا مسيحي

لأن مبادىء المسيحية تزيد الحياة عزماً ونشاطاً

"الايمان بالحياة عقيدة أولية"

شارل واغنار

قال شارل واغنار المشهور ، « الايمان بالحياة عقيدة أولية » . وانني أؤمن بهذه العقيدة الأولية من أعماق قلبي . لأن أول ما أؤمن به في هذه الأرض هو الحياة . وهذا الايمان بالحياة هو أصل لجميع أنواع إيماني . فهو أعمق من النهي ومن جميع أوليات العقل وما يبلغ اليه الادراك من النتائج والحقائق . فالايمان بالحياة سابق للايمان بالحقيقة أو الايمان بالصلاح بل هو سابق للايمان بالله . لاننا إذا أمعنا النظر في الموضوع نرى أن الحقيقة والصلاح والله نفسه يتوقف الايمان بهم على علاقتهم بالحياة ، بحياتي كما بحياة كل انسان على وجه الأرض .

هذا هو حجر الزاوية لكل شيء في الحياة . لأن كل عقيدة تسقط أو تثبت بالنسبة إلى تأثيرها في الحياة . وليس هذا الإيمان ضرباً من ضروب الأنانية ، لأنه حالة بسيطة عليها تتوقف سلامة العقل وطمأنينتهُ . فلا أهمية للتاريخ في نظري ولا لما مضى من الأزمنة والحوادث ، ولا لما سيأتي في مستقبل الايام ، ولا لسائر أنحاء المعمور المتفرقة حوالي في جميع الأرض ، إلا بالنسبة لعلاقتها بي .

فان نظرت إلى الوجود ، مع صرف النظر عن كل ما فيه سواي ، فانني أرى أن الوجود بدأ حين ولادتي ، وأن نهاية العالم ستحل حين موتي . لان القيصر أو شارلمان لم يكونا شيئاً في نظري حتي أتيت إلى العالم ، وكل ما سيحدث في العالم بعد مئة أو ألف سنة من موتي قلما يهمني إلا من الجهة النظرية .

لاجل هذا فان جميع المسيحية التي عندي والتي أبذل حياتي في سبيلها وأودّ أن أدرس عنها في كل فرصة ، إنما هي ما يُثمر بي بطريقة من الطرق . وهنالك كثير من المواضيع الدينية التي يملأ البحث فيها مجلدات ضخمة ويستغرق حياة المئات من الأساقفة والكهنة ولكنه في عقيدتي قلما يهمني أكثر من البحث عن حدود كامتشاتكا أو في هل الدجاجة أصل للبيضة أم البيضة أصل الدجاجة .

انني أعتبر المسيحية لأنها ترفع طبيعة الحياة وتزيدها عمقاً وصلاحاً . ولذلك فقد غلط القائل أن مباديء يسوع تقيد الحياة وتذلها . لأن البعض من مبادئه التي يخيل الى الناس أنها تقيّد الحياة إنما يكون الواهمون ذلك قد أساؤا فهمها ولم يدركوا الغاية منها . فعندما يعلمنا يسوع بتضحية الذات مثلاً ، أو بحمل الصليب ، فانما هو يقصد بذلك أن يجعلنا أكثر قوة وأشد عزيمة . وقد رأيت هذه النتيجة واضحة في حياتي . فقد بذلت جهدي وكل ما في قوتي لكبح الجامح والاناني الوحشي من عواطفي وذلك باخضاعها لناموس التضحية في سبيل منفعة الآخرين فكانت النتيجة أنْ ازدادت سعادتي وتوفرت لديّ وسائل القناعة والطمأنينة .

على أن المسيحية لا تريد أن تخلصنا من الجهاد في سبيل الحياة ، لأن ما في الحياة من العزيمة والطموح لا يتجدد بدون الجهاد ، والمسيحية ليست وسيلة للتخلص من المسؤولية والواجب ، بل هي تأمرنا بحمل المسئولية الواجبة . ولا هي بالوعد الذي يؤكد لنا أنه سنحظي بمن يعتني بنا ، ولكنها بالأحرى تساعد كل واحد منا أن يعتني بذاته .

وقد قال يسوع مرة : « تعالوا إليّ يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال . احملوا نيري وتعلموا مني . » فالغاية من النير ليست مساعدة الثور على التخلص من حمله بل هي اختراع يستطيع بواسطته على القيام بواجباته . وأنا لا أريد أن أتخلص مما يفرض علي في الوجود من الواجب والمسؤولية مهما كان نوعهما لأن الحياة لا معنى لها بدونهما . غير انني في أشد الحاجة إلى معرفة ما يساعدني على إجتياز العقبات التي تقوم في طريق حياتي مكللا باكاليل الفخر

والانتصار .

أما الفروض والتحديات التي يجدها كل انسان في المسيحية فهي أشبه بالمناجل التي تُقضبُ بها الأغصان اليابسة في أشجارنا لكي تنمو الشجرة أوفر قوة وأكثر اثماراً .

فالمسيحية في نظري ليست عقبة في طريق الحياة . وأما الرأي القائل ، باننا يجب أن نتألم ونشقى في هذه الحياة ونقهر ذواتنا بسائر أنواع التعذيبات ، وان مخلصنا سينظر إلى إماتتنا ويعوض علينا في العالم الآتي بالخيرات والبركات فرأي بعيد عن فكرتي لأنه أقرب إلى الوثنية منه إلى المسيحية .

وغاية ما أطمح إليه في مسيحيتي أن أجد ما ينهض بوجودي وينقي ينابيع حياتي ويسمو بعواطفي وأفكاري يوما فيوما على هذه الأرض . وأنا مسيحي لأن المسيحية وحدها تستطيع أن تقدم لي هذه الخدمة . على انني لا أقول ان المسيحية لا تنقل المؤمنين إلى السماء بعد موتهم ، بل كل ما أقوله انه اذا لم تكن المسيحية صفة أخرى غير هذه الصفة فانها قلما تؤثر بحياتي إذ ذاك .

ان الكنيسة القائمة في قلب الجبانة (المقبرة) تحيط بها القبور من كل جهة هي رمز لكنائس الأجيال المتوسطة المظلمة ، أما كنيستي التي أطمح اليها فيجدر بها أن تكون في مركز الأعمال من المدينة ، في قلب جدول المصالح الانسانية . لأن الغاية الأولى من الكنيسة انما هي ان تزيد مياه الجداول نقاء وعذوبة وصفاء .

غير أن أكثر التأثيرات غموضاً في المسيحية كقوة اجتماعية انما هي تأثيراتها في تكييف حياة الأمم والشعوب فقد أخبرني أحد المسافرين القادمين حديثاً من الشرق انه في أثناء إقامته في بلاد الصين لم يسمع عن حركة قامت في البلاد لأجل ترقية أسباب الرفاهية لعامة الشعب إلا وكان منشأها بين المرسلين المسيحيين .

أجل أن يسوع المسيح هو القائد ، الغير المنظور الهادىء الذي قلما يشعر

به أحد ، لحركة العمال ، أو على الأقل لذلك القسم من حركة العمال الذي هو ذو فائدة دائمة للانسانية . لأن منه قد صدرت العقيدة القائلة ، بأن كل نفس انسانية لها مقامها الضروري في الوجود . ذلك لأن تعاليمه قد طهرت العالم واستأصلت من عقولهم جرثومة العبودية ، وقضت على الاستبداد لعبيدهم ، واضطرت ذوى السيادة من الحكام والسلاطين ان يحسنوا أحوال السجون ، وطردت من هيكل الحياة غربان القساوة والهمجية التي قد طالما عاشت وسمنت على لحوم البؤساء من المساكين والفقراء .

وإننا إذا نظرنا إلى الحياة الإنسانية على ما هي اليوم من الكرامة والإعتبار ، إذا نظرنا إلى الأيدي العطوفة تمتد إلى العميان ، والمقعدين ، والعرج ، وإذا نظرنا إلى الهمجية التي سادت على بني الإنسان فيما مضى من الأزمان تزول رويداً رويداً ندرك ولا شك ان القوة الفعالة التي احدثت كل هذا التقدم في العالم انما تفيض من قلب هذا الرجل المسكين يسوع .

فهو الذي جعل للحياة وجهاً جميلاً يبعث في قلب الناظر إليه رجاء سعادة وأمل ، وحل بنسمة من روحه القدسية في قلب كل انسان ، فصار الجميع ينظرون بفارغ الصبر إلى الزمن السعيد الذي يصبح فيه العالم فردوساً علوياً تسود فيه المحبة ، وأرضاً مقدسة أجدر من هذه الأرض المنجسة لسكنى أبناء الانسان ، وفي تلك السنين البعيدة السعيدة ، تزهر الزهور معطرة الفضاء بعبيرها ، ولا يبكي الأولاد سوى دموع قليلة عند موت آبائهم .

كما لو

لستُ مسيحياً لأنني أعرف أن تاريخ المسيح حقيقي
بل أنا مسيحي لأن هذا التاريخ يأتي بأثمار نافعة لحياتي
عندما أتصرف ناظراً اليه « كما لَوْ » كان حقيقياً

"الحقيقة بنت العمل"

وليم جايمس

أقول بملء الصراحة انني لا أستطيع أن أدعي انني قد بحثت ونقبتُ عن حقيقة حياة يسوع المسيح فكانت نتيجة أبحاثي القناعة بصحة المكتوبات عنه والايمان به من صميم قلبي . ولا شك أن القراء الكرام اذا عمدوا إلى الصراحة المجردة فهم مثلي يعترفون بأنه يندر أن يكون بينهم من درس الكتب القديمة ، وقرأ الشهادات الرسمية عن يسوع ثم جاء إيمانه بعد ذلك نتيجة لدروسه وبلوغه إلى الحقيقة . ولكن المسيحية قوة عظيمة في العالم ، والمسيح قائم في قلب الانسانية نوراً مُشعشعاً بالايمان والرجاء والمحبة . أما كيف جاء المسيح إلى العالم ، أو كيف نشأت المسيحية على التدقيق . فانه ليس في الالف واحد يعرف ذلك . لاننا اذا قلنا اننا واثقون بأن المسيح قد وُجد في العالم حقاً ، فانني نعني ان لنا ايماناً عظيماً بما جاءت به الكتب والتقاليد ودونه المؤرخون والشهود وغيرهم ممن وصلت الينا هذه المعرفة بواسطتهم . وان تأملنا بعين مجردة في الحقيقة الواحدة لرأينا أن هذا المثل ينطبق على كل واحد منا .

وربما آلمَ قولي هذا الكثيرين من الناس ، ولكني كمسيحي قلما يهمني ، حدثت حياة المسيح كما دوِّنت في الكتب أم لا . فللناس حريتهم أن يصرحوا بأنهم لا يستطيعون أن يخلصوا من خطاياهم ما لم يكن هنالك مخلص حقيقي

يخلصهم من غير أن يزعجوا نفوسهم بالجهاد وراء خلاصهم ، وانهم اذا لم يثقوا بأن يسوع شخص حقيقي وأن قصتهُ ليست خرافة من خرافات الأقدمين ، فانهم يشعرون انهم واهمون عبثاً وخادعون لذواتهم .

غير انني وأمثال هؤلاء لدى الحقيقة سواء نعمل العمل بعينه . فكل واحد منا يتصرف « كما لو » كانت القصة حقيقية . فنحن واضعون أمامنا تاريخ يسوع قياساً لنا ، وبهذا القياس يقيس كل منا حياته وأعماله .

ولذلك فاننا لا نعيش في عالم أحلام ، ولا نحن ساعون إلى بناء صرح شاهق على لا شيء البتة ، بل بالعكس من ذلك فنحن نعمل عن فكر وصواب وشعور على نفس الطريقة التي نسير عليها في تصرفاتنا في جميع شؤون الحياة وأنواع الفكر الإنساني .

فالمسيحية إذن قوة عظيمة ، قوة تلطف الأخلاق ، وترتب الأفكار وتكبح جماح العواطف . وما كان الانسان في زمن من الأزمان ليستطيع على إدراك جوهر قوة قط من قوات الوجود .

والمسيحية شريعة مثل سائر شرائع الطبيعة المقدسة . وكل ما نستطيع أن نعمله إزاء أية شريعة من شرائع الطبيعة إنما هو التسليم بمضمونها والخضوع لها « كما لو » كانت حقيقة منزلة ، والفحص الدقيق عن تأثيرها وعملها في حياتنا .

فنحن لا نعرف ما هي الكهربائية ، وكل ما نعلم عنها اننا نستخدمها في حياتنا ونلاحظ عملها وتأثيرها . فنعرف كيف نفتح لها الطريق للظهور وكيف نغلق الأبواب دونها ونعرف كيف نسيّرها على الاسلاك ونبعثها في الفضاء لكي نستخرج منها النور ونولّد منها القوة . وقد ظهر حتى الآن كثيرٌ من الأراء في حقيقتها ، والناس بظنونهم وتصرفاتهم « كما لو » كانت هذه الآراء حقيقية قد تمّ لهم أن ينيروا بيوتهم بنورها ، ويسخروا بها الهواء لحمل رسائلهم ، ونقل مخاطباتهم وأحاديثهم . وها قد مضى علينا زمن ونحن نتصرّف بهذه القوة في جميع فروعها ومظاهرها حتى صرنا نستطيع أن نصرّح بملءِ الثقة بأنها تنفع

اذا استعملت كذا وكذا . ولكن لم يعرف أحدٌ منا من ذي قبل جميع ما نعرفه الآن عن هذه القوة الخفية ، غير اننا بلغنا إلى ما نعرفه اليوم عنها منذ شرعنا في عملنا « كما لو » كانت حقيقية ، ملاحظين النتائج المتعددة الناجمة عنها ومقرّرين بهذه الطريقة دون غيرها الحقيقة التي بلغنا اليها في شأن الكهرباء .

وليس في العالمَ من يعرف ماهية الجاذبية . غير أن أحد حكماء القرن السابع عشر قد قرر بعد البحث الدقيق أن أجزاء المادة يجذبُ بعضها بعضاً ، وهكذا تعلم الناس على مرور الزمان وتعدد الاختبارات أن يستخدموا هذه القوة ويقيسوها بالموازين .

وفي كتب العلم الشيء الكثير عن شرائع القرابة الكيماوية وعن مزيج الاوكسيجين والهيدروجين وغيرهما ، وعن وجود الجوهر الفرد والالكترون ، وعن أنواع أصغر أجزاء المادة التي يكاد لا يوجد مجهرٌ (ميكروسكوب) يستطيع أن يهتدي إليها ، وعن حركاتها ومواطنها . وجلُّ الأذكياء من العلماء ، ان لم نقل كلهم ، يصدقون ويؤمنون بأن جميع هذه القرارات حقائق راهنة لا تنقض . ولكن الطريقة الوحيدة التي أدّت بهؤلاء العلماء إلى الاقتناع أن هذه المواد كائنة في الوجود على النحو المرقوم إنما هي افتراضهم وتسليمهم بأنها حقائق راهنة ومن ثمّ مراقبة مظاهرها وما تأتي به من الثمرات في الحياة .

فإذا قلت والحالة هذه انني أتصرف « كما لو » كانت الرواية عن يسوع حقيقية وإن إيماني يستقرُ في النتائج الحاصلة من هذا التصرُّف فانما أدقق وأبحث كأعظم الكيماويين وأكابر المتخصصين من علماء الكهرباء . لانني لا أبني إيماني على أساس من الوهم بل أنا أبنيه على الصخرة الوحيدة التي عليها يثبت هيكل الايمان راسخاً لا تؤثر فيه العواصف والارياح ، على صخرة الاختبار والتعرّف إلى حقيقة الاشجار من حقيقة الأثمار .

على أن كل عقيدة تبني على مجرد المعرفة السابقة يمكن أن تثبت صحتها أو يظهر بطلانها . لأن دعائم منطقنا واهية فلا نستطيع أن نعتمد عليها في أية قضية من القضايا الهامة في الحياة . ولو أن كل ما يُثبت صحة الدعوة المسيحية

منحصر في المستندات التاريخية التي ورثناها عن الآباء وبينات المنطق التي جاءنا بها علماء الكلام لكان إيماننا بناء متزعزعاً متقلقلاً . ولكنه لا يستند إلى شيء من ذلك . لأنه يستند على أساس من الصوان الصلد المدعو « كما لو » . وليس هنالك من طريقة للمعارض يفسد علينا بها رأينا هذا إلا أن يؤتينا بمثل هذه الْ « كما لو » التي نستند نحن عليها ويظهر لنا انها تأتي بأثمار أفضل وأشهى من أثمارنا .

وقد أصاب وليم جايمس كبد الصواب في تعريفه للحقيقة بقوله ، « الحقيقة بنت العملْ » . وأوضح ذلك بأوفر صراحة جون ديوي في كتابه « تجدّد الفلسفة » ، وهو من خيرة الكتب الفلسفية التي ظهرت في الخمسين سنة الأخيرة وخلاصة إيضاحه أن جميع الفلاسفة الذين عاشوا قبل باكون قد وقعوا في غلطة واحدة هي افتراضهم أن الحقيقة شيء ذو هيئة ملموسة محدودة ، كقطعة من حجر أو خشب أو غير ذلك ، ولذلك كانوا يعتقدون بأنه كان على جميع العقول البشرية أن تفتش عن هذه الحقيقة الملموسة ، وكم قضى من مئات الفلاسفة والحكماء وهم يبحثون وينقبون علهم يهتدون اليها فتبرهن حقيقة حجج للفلاسفة وتحلّ جميع مشاكلهم وقضاياهم . ولكن ما نسميه بالحقيقة انما هو نتيجة من نتائج اختبار الانسان لما في الوجود والتوفيق بين اجزائه المتباعدة .

أما قضية القضايا في حياتي فهي انني أريد أن أصلح شخصيتي واستخرج أثمارها . وأشعر بأنه يجب عليّ أن أجد النوع الأفضل من الحياة واهتدى اذا أمكنني إلى القوة التي تهذب الحياة وتجعلها صحيحة قوية . وقد جاءت إليّ المسيحية كمقياس عظيم للحضارة قد خبرَتْهُ أجيال عظيمة قبلي مدة تقرب من الألفين سنة ، وهي تُقرّب اليّ اليوم فخورة بانتصاراتها على الناقدين والمعترضين ، غنية بدروسها المستفادة من سقطاتها وأغلاطها المدونة في تواريخها . فنهضت من غفلتي اجربّها في حياتي بعد ان كانت لي أغلاط الماضي مرشداً ونذيراً فقلبت النتائج الحسنة المدونة في كتب كياني رأساً على عقب ، وبعد التجارب العديدة خبرت بذاتي منافعها وتذوقت حلاوة أثمارها . وانني

بعملي هذا أشبه ذلك الذي يرغب في أن ينير بيته بالكهرباء ، فيهيء أولا المعدات اللازمة على نحو ما رأى غيره من معارفه يعملون في بيوتهم ، وبعد الفراغ من جميع الاستعدادات الضرورية يفتح مفتاح النور فتبدد أنوار الكهرباء الظلمة السائدة في بيته .

غير أنك إذا قلت لي ان المسيحية تؤثر في حياتك لأنك تؤمن بأن يسوع قد عاش وهو حيٌ الآن في العالم وان هذا الايمان يبعث فيك قوة على الحياة ، وصبراً في احتمال مصيبة الموت ، فانني اجيبك على الفور أن لي من عقيدتي نفس النتائج التي لك من عقيدتك وان خالفتك في رأيك . غير أن الفرق الوحيد بيني وبينك ان ايمانك يدل دلالة خفية على أنه اذا أظهر لك أحدٌ فساد مقدماتك فانك تتنازل في الحال عن التمسك بصحة النتيجة التي تؤمن بها ، لأنك تقول ان مسيحيتك مبنية على الحقائق التاريخية التي تسلمتها ممن سبقك من المؤرخين والمؤمنين ولكن الحقيقة العظيمة التي ابني عليها مسيحيتي هي ، بالعكس من ذلك ، تنحصر في أن حياة يسوع واحدة في العالم منذ لبس فيه جسده حتى اليوم ، وانه ما من علم أو فلسفة أو انتقاد للتواريخ التي دونت هذه الحياة أو الشهود الذين شهدوا بصحتها يستطيع أن يزحزح هذه الحقيقة من مركزها الثابت في فكري ، وإن هذه الحقيقة تسلحني بافتراض عجيب ، وكل ايماني كائن في انني جربت هذا الافتراض في حياتي فجاءني بخير النتائج وأشهى الاثمار . ولذلك لا أجد وجهاً للجدال والخلاف بيني وبينك لأن الفرق الرئيسي بين رأيك ورأيي أنك أنت تضطرب وتتألم إذا رأيت أحداً من غير المؤمنين يسعى إلى تقويض أركان إيمانك ، ولكن أساس إيماني لا يستطيع أحدٌ لا من المؤمنين ولا من الكافرين أن يحرك حجراً من أساسه ، وربما خيل إليك أن هنالك من يقدر أن يبرهن أن حياة المسيح كلها أو جلها خرافة ملفقة لا أصل لها ، ولكن ما من أحد خارج عن بيت لحم يسوع يستطع أن يبرهن أن حياة المسيح قصة كاذبة ، أو أنه ليس لصاحبها من نفوذ في العالم ، مسدلا الحجاب على التأثير العجيب الذي أحدثته حياة هذا الرجل في العالم ولاتزال تحدثه في كل يوم مسهلة وسائل

السعادة والعمل الصالح لأبناء الانسان ، وواضعة أفضل النظم والترتيبات للتعليم والتهذيب ، ومولّدة القوة الرئيسية في جميع التطورات والانقلابات الاجتماعية ، وقائمة كمنارة متألقة بالنور على شواطىء بحر الموت والظلمة حيث لا تستطيع حقيقة أو فرض ما أن يظهرا لعيوننا غير ضباب الشك والريبة ، أو أن يجعلا آذاننا تسمع غيرْ هدير الأمواج يحطم بعضها بعضاً في الظلمة الأبدية .

أنا مسيحي

لأن دعوة المسيح موجهة إلى الانسانية عامة

وليس إلى جنس واحد أو أمة واحدة

"إن يسوع هو المعلم الوحيد الذي تناهى في طول . قامته حتى استطاع أن ينظر إلى ما فوق الجدران المقسمة البشرية إلى أقسام متعددة" .

إن يسوع لم يعرف معنى الوطنية التي يتعبد لها الناس اليوم . ومع أن العالم ستمرُّ به ألوفٌ من السنين بعدُ قبل أن يتخلص من خرافة القومية فان عقل يسوع كان نقياً من أوهامها بعيداً عن الوقوع في فخاخها واشراكها .

ان لكل من الأمم مركزها الخاص في تطورات الحياة الاجتماعية فالوطنية أو القومية ضرب من الضروب المصلحة لنظام الاقطاع القديم . وفكرة الامة المنفردة أشبه بالبيت المؤلف من أربعة جدران ولكن لا سقف لهُ . لان الانسانية لن تنظم أمورها بما يؤول الى سعادتها الكاملة حتى يصير العالم كله مملكة واحدة لا هم لها سوى توفير أسباب الراحة لجميع أبناء الانسان .

أما الحروب المتواصلة التي تقوم في العالم بين الآونة والأخرى فهي نتيجة لعبوديتنا المرة لخرافة القومية والوطنية القتّالة ، ولن تزول هذه الحروب من الأرض حتى نؤلف من مجموعة الأمم التي فيها أمةً واحدة . لأن العالم المتألف من أمم مستقلة بعضها عن بعض إنما هو وكرٌ لزنابير الحروب اللداعة وأما العالم الذي تتحد فيه جميع الأمم في عصبة واحدة وتحصرُ قوته في هيئة واحدة منتخبة من الجميع لهذه الغاية فهو وجود سماوي سعيد تزول منه جميع الحروب وتسود

فيه المحبة والسلام .

وليس في جميع ما يدور في الأندية السياسية والاجتماعية من الأبحاث والمناقشات في جمعية الأمم أكثر إقناعاً بحقيقتها من التأثير الهادىء الذي لم يفُهْ به أحدٌ بعد ، الكائن في أعماق روح ومبادىء يسوع المسيح . وانني لواثق بأن هذا التأثير سيكون له فعله في حينه .

فان يسوع هو المعلم الوحيد الذي تناهى في طول قامته حتى استطاع أن ينظر إلى ما فوق الجدران التي قسمت الجنس البشري إلى أقسام متعددة . فقد أدرك أنه ما من نظام أدبي يستطيع أن يثبت في العالم ما لم يكن شاملاً لجميع أفراد الجنس البشري . ولذلك لم يقيد ديانته بقيد من القيود قط ، فهي انجلوسكسونية كما هي يابانية ، وفرنسية أو ألمانية كما هي أفريقية أو عربية . وبعبارة بسيطة فهي ديانة انسانية جامعة .

وانني كلما تقدمت في الأيام وأكثرتُ من الأسفار وتعرفت إلى سائر أمم الأرض ، وأمعنت النظر في ما يبذلونه من الجهود وما تقوم بينهم من المنازعات والخصومات ، وخبرتُ حياتهم وأفكارهم ، ازددت ثقة بأن شر هرطقة بين جميع الهرطقات انما هي هرطقة القائلين بتقسيم الأرض إلى ولايات ومقاطعات مستقلة بعضها عن بعض .

لان كل أمة وطائفة أو جمعية من الناس تعتقد بأنها هي الأمة أو الطائفة أو الجمعية المختارة للسيادة على جميع الناس وان كل من في العالم من الامم انما خلقوا ليكونوا لها عبيداً أرقاء يأتمرون بأوامرها ويخضعون لذات سلطانها - انما تقضي بيدها على السلام والمحبة وتزرع بغطرستها بذور الشقاق والحرب في العالم . والنتيجة التي لابدّ منها لمثل هذه الغطرسة الفكرية ظاهرة أمام المعتبرين من المفكرين في الثورة الفرنسية وفي جنون الأمة الألمانية الذى أدى إلى الحرب العالمية ، وفي سقوط القيصر الروسي وظهور البلشفية التي طغت أمواجها الحمراء فقضت على الأمة الروسية ، وفي أمثال ذلك من الحوادث المزعجة لراحة العالم .

بيد أن المسيحية حيثما انتشرت قد اندسّت فيها شياطين التحزب والتفريق فجعلتها ويالاسف هزءً وسخرية فالمسيحية التي انتشرت في أوروبا وعمّت جميع أنحائها لم تبق ثمت من فرق قط بين طقوسها وطقوس البوذية في آسيا . والمسيحية التي تدين بها الكنيسة الأسقفية في انجلترا وما فيها من الادعاء بالتقدم والصدارة والروح الرومانية المفرّقة قلما تلذ إلا الذين ترعرعوا في مبادئها الخصوصية النامة عن أنانية وصلف وغرور . والحياة الدينية في الكنائس البروتستانتية في الولايات المتحدة الاميركية ممتلئة من الغرابة والسخرية في فروضها وطقوسها . والبصائر اليوم متجهة كلها شطر الشرق الأقصى لترى ماذا سيكون من أمر المسيحية اذا سادت فيه ولعلها تقتبس منه شيئاً من التجدّد في حياتها يحتفظ بالبقية الباقية منها بعد ما ألمّ بها من طلائع الاختناق في فضاء الغرب السام . وجل ما أودّ أن أقوله في هذا الموضوع ان المسيحية لا تستطيع أن تحافظ على عبقريتها ويكون لها التأثير الفعال في قيادة الانسانية إلى فردوس السعادة والطمأنينة ما لم تكن عامة جامعة ، واحدة بمبادئها الاساسية للعبد وللابيض على السواء ، لهذه الأمة أو لتلك المدينة كما هي لغيرهما ، وأي نوع كان من الانفراد بطائفة أو الاختصاص بجنس دون غيره انما يقيد المسيحية ويفسد الغاية الطاهرة منها . ولذلك فالمسيحية لا تستطيع أن تظل صحيحة كما وضعها يسوع ما لم تكن واحدة جامعة لسائر أبناء الانسان في جميع أنحاء هذا الكيان .

أنا مسيحي

لأن تعاليم يسوع صالحة لجميع الأمم

« ان يسوع هو المعلم الأعظم في صناعة تقدم العالم وراحته . وهو وحده من بين جميع المعلمين قد رأى الشرائع العظيمة التي يجدر بالناس أن يحفظوها في المجتمع الانساني . »

أنا مسيحي لأن تعاليم يسوع هي تعاليم المعلم الوحيد في العالم الذي يقدم بالنظام الذي رسمَهُ للحياة سبيلاً عاماً يستطيع كل من يسير عليه أن يبلغ إلى النجاح كائناً من كان . فهو لا يعلمني كيف انتفع على حساب غيري من الناس ، بل يوضح لي كيف استفيد في حياتي بصورة تتساوى فيها المنفعة بيني وبين جميع البشر على السواء ، فيكون لي ما أرغب فيه ويكونوا جميعهم راضين فرحين .

وقد أوضح الفيلسوف كانْتْ ما ينطبق على عقيدة يسوع بما ملخصه ، اننا يجب أن نتصرف في حياتنا كما يخيل الينا أن جميع الناس لو كانوا في مركزنا يتصرفون مثلنا . يعني ان الامتحان الأدبي الذي يظهر برّنا في أى شأن من شؤون الحياة انما يتم بالتصور ان جميع الناس يعملون نفس ما نعمله نحن .

وما لا شك فيه انه لو اقتفى كل انسان مثل يسوع في حياته وتبع تعاليمه لزالت جميع متاعب الانسانية ولم يبق من أثر لاوجاعها ومصائبها . بل لو اتبع تعاليم يسوع السامية نفر قليل من أية أمة أو جمعية كانت لكان ذلك النفر خميرة تخمر عجين الأمة كلها .

ولو اتخذت ممالك العالم تعاليم يسوع ومبادئه نبراسا يضيء ظلمتها

وقائدا يقودها إلى مراعي الأمن والطمأنينة لما رأينا حرباً تقوم في الأرض لشقاء أبناء الأرض ، ولارتفعت أثقال الديون والضرائب عن كواهل الأفراد والجماعات ولعمّت السعادة والرفاهية سائر أبناء الانسان . أجل ، ليس في العالم من ينكر هذه الحقيقة الناصعة . ولكن ما من أمة من الأمم اليوم قد جعلت تعاليم يسوع اساسا لبنيانها . لانها بجماعها مبنية على الغرور والانخداع بالقوة العمياء . غير أن السبب الوحيد الذي لأجله لم تتخذ أمة من الأمم مباديء يسوع قاعدة لاعمالها هم أن جميع الأمم الأخرى لم تفعل ذلك . ولم تسعدْ أمة ما بقدر من الحكمة والفطنة لتتقدم بجرأة على هذا العمل الحيوي . وقلّ في العالم من ينظر في أن المبادىء المضادة للمسيحية التي تبني عليها صروح جميع الأمم والشعوب قد ظهرت بأسرها مشومة ولم تنتج سوى الخراب والدمار في جميع أدوار التاريخ ، فاننا ما برحنا نؤمن بالشرير ونلحق به لاننا أطفال في فكرتنا نرتجف خوفاً من الشرير وصنائعه فنتبعه مُرغمين . ولكن متى بلغ العالم رشده ونضجت فكرته الى حدٍ تدرك معه الحكمة البالغة في المبادىء المسيحية فحينئذ سينظر بعين حزينة إلى جيلنا الحاضر وتأخذ الدهشة بمجامع قلبه إذ يرى طول العهد الذي مضى على الأمم والشعوب وهم يتمرغون في حمأة الهمجية .

وهل هنالك من يشك أو تعتريه أقل ريبة في أنه لو اتُخِذَتْ مبادىء يسوع نظاماً في بيوت الصناعة الحديثة لما كان العالم يسمع بما نسمع به من الاعتصابات والاضراب عن العمل الذي نشاهده بين جماعات العمال في عصرنا الحاضر . وانه لمن غريب الأمور أن نلاحظ التشويش والاضطراب سائدين في أعمالنا لاننا قد رفضنا الانقياد للنظام المسيحي فيها ، في حين أن خضوعنا لهذا النظام هو الطريق لحياتنا وسلامتنا ، ولو نظر أحد أبناء المرّيخ إلى أرضنا هذه لساءَل نفسه مستغرباً ، لماذا لا يجرّب أبناء هذا العالم النظام الذي قدمه لهم يسوع لمدة خمس سنوات على الأقل ويحكمون عليه من نتائجه . فان صلحت بهم حالهم ، وهذه حقيقة ما سيكون ، تبعوه ، والا عادوا إلى ما كانوا عليه .

أجل ، ولو اتخذت العائلة برنامج يسوع دستوراً لها ، لزالت في الحال

انقساماتها واضمحلّت خصوماتها ، وانزوت فاجعاتها في زاوية النسيان ، ولطويَتْ خيام الاهتمامات العالمية التي تكدر صفو راحتها ، كما تطوي خيام البدو في الصحراء ، وانسلّت خلسةً من هيكل العائلة .

ولو اقتفى كل انسان خطوات المعلم الصالح لتعالت أناشيد السعادة من أفواه الجميع ، ولاندثرت أشواك العقوبات بل ، ولاندكّتْ أساسات السجون ولم يبق من أثر حتى ولا لتوبيخ الضمير .

إن يسوع هو الامام الأكبر في صناعة تقرم العالم وراحته وهو وحده بين جميع المعلمين قد رأى الشرائع العظيمة التي يجدر بأبناء آدم أن يحتفظوا بها في المجتمع الانساني . ولكن حكمته البالغة سواءً عندها عمل الناس بها أم رفضوها ، لأن كل من يعمل بها انما تعود المنفعة منها له فتصلح بها حاله وحال المحيط الذي يعيش فيه .

وها قد مرّ على العالم نحو من ألفي سنة بعد أن أشرقت فيه أنوار المبادىء المسيحية وهو يجاهد ويدرس ما ورثه عن العالم القديم من النُظم والشرائع رجاء أن يكون له منها التقدم والراحة في علاقة أفراده بعضهم ببعض ، وقد رأى أن جميع المبادىء التي جربها قد ظهرت عقيمة باطلة . وان ما من تعليم يبلغ به الى ضالته المنشودة سوى تعليم المعلم الصالح .

فقد جربت الانسانية نظام السيد والعبد ، ولكن العبودية لم تنتج سوى الدماء المهراقة ظلماً . وقد جربت نظام الحاكم والمحكوم ، ولكن حكام الأرض قد تدحرجت تيجانهم وثلّتْ عروشهم بعضهم وراء بعض . وجربت نظام رب المال والعامل بالأجرة ، ولكنها فشلت وذهبت أتعابها أدراج الرياح ، لان هذا النظام تتوقف سلامته على إيجاد موازنة بين قوتين هائلتين من قوات محبة الذات ، الموازنة التي هي أمنع من عقاب الجو . ثم جربت النظريات الاشتراكية المتضاربة ، فدعتها بالاشتراكية ، والبلشفية ، والكومسيونية وأمثالها مما لم يأت بحلٍّ مرض للقضايا الانسانية الا في بعض أجزاء المادة التافهة .

ولم تكن في نظام من هذه النظم قوة مهما كانت حقيرة للاصلاح الا وكانت

مستمدة من نظام يسوع . وحيثما عمد الناس إلى تجربة نظام يسوع بأمانة واخلاص فقد حصدوا منه أثماراً صالحة وما أبسط هذا النظام : ان البشر لا يمكن ان تصلح حالهم وتستقيم أمورهم ما لم ينظروا بعضهم إلى بعض كإخوة اشقاء لاب واحد وهو اللّه .

وهل في العالم معلمٌ أجدر بأن يكون معلماً لنا من هذا المعلم البالغ الحكمة والمعرفة .

أنا مسيحي

لأن المسيحية هي القوة الوحيدة في الأرض اليوم
التى تَعِدُنا بوحدة العالم في مملكة واحدة

"انني أوضح بملء الإخلاص
انني لا أرى من رجاء للانسانية
الا بانتشار مبادىء يسوع بين جميع الناس"

ان وحدة العالم في مملكة واحدة ضرورية جداً لحفظه من الزوال والاضمحلال فان النظام الحاضر نظام الوطنية الفردية ، إن لم يتحول الى نظام دولي عام يشمل الأمم بأسرها سيولد ولا شك حرباً ضروساً أشدّ هولا ورعباً من الحرب الكبرى بما لا حد له .

وأفضل ما أستطيع أن أقدمه من الأدلة على صدق قولي كتاب بعث به شارل وود إلى جريدة «نيويورك وارلد» المشهورة .

فقد قامت في نيويورك مباحثة عامة في عمل المرسلين المسيحيين في الشرق على أثر تمثيل فصول مجونية على مسارح نيويورك تحت عنوان « راين » بقصد الهزء والسخرية من المرسلين . فتناولت أقلام الكتاب من دينيِّين وغير دينيِّين البحث في الموضوع من جميع أبوابه . وفي تلك الأثناء ظهرت الرسالة التالية التي ننقلها للقراء كشاهد في موضوعنا الحاضر ، قال الكاتب :

« ان الدفاع عن المرسلين هو أشبه بالدفاع عن الاشتراكيين أو الاميركيين أو النساء . فكلما قلت كلمة فيهم ينبري لك معارض بحجة انه يعرف واحداً منهم لا ينطبق عليه كلامك . ولذلك فانني لا أقصد أن أقدم دفاعاً عن المرسلين بهذا المقال . ولكنني أعرف نحو مئة مرسل معرفة حقيقية : وأكثر هؤلاء أميركيون بروتستانت وكلهم يعملون في بلاد الصين .

« أنا لست مسيحياً ، بل أنا بعيد عن الكنيسة بمقدار ما يستطيع الانسان أن يبتعد عنها ، ولكنني أستطيع أن أقول ان هؤلاء المئة مرسل الذين عرفتُهم هم في عقيدتي أفضل جماعة من البشر العاملين على نفع الانسانية وترقية شؤونها - الذين عرفتهم في جميع أدوار حياتي .

« بيد انهم ليسوا كلهم متساوين في العمل . فان فريقاً منهم يعتقدون بأن واجب رسالتهم في هذه الحياة يقضي عليهم بأن يعلموا الصينيين طريقة جديدة يستطيعون بواسطتها أن يحصلوا على مغفرة خطاياهم .

« وفريق آخر آثروا على نفوسهم أن يعلموا أبناء الصين ما هو في عقيدتهم المثال الأعلى للآداب . غير أن الأغلبية الساحقة من هؤلاء المرسلين قلما يعيرون التفاتاً للاهوت النظري أو لفروع الفلسفة الادبية ، ولكنهم يعتقدون بأنهم يقيمون في الصين لانه هنالك قد توفرت لهم الفرصة ليعيشوا حياة مملوءة بالخدمة والتضحية في سبيل منفعة الآخرين ، وهم ، الرجال منهم والنساء ، لا يشربون مسكراً ولا يدخنون ولا يعرفون المقاهي ولا المقاصف ، ولكنهم لا يحسبون لانفسهم أقل فضيلة في أمثال هذه الأمانات التي يقومون بها .

« فهم يحبون الصينيين : وأعظم ملذة يتلذذون بها ، بل هي أفضل في عقيدتهم من جميع ملايين العالم ، انما تتم لهم عندما يستطيعون أن يحضروا ولداً يتيماً إلى مدارسهم ليعلموه ، أو عندما يتاح لهم أن يساعدوا عائلة صينية فقيرة على كسوة أولادها واطعامهم لكي يسيروا في الساحات ويلعبوا مع رفقائهم ويرقصوا إذا شاؤا فرحين .

« أما السياح الذين يقصدون الصين والغرباء الذين لا عمل لهم فيها ، وهم ينظرون إلى الوقت كعدو لدود يودون قتله كيفما تقلبت الظروف ، فانهم قلما يدركون حقيقة أعمال هؤلاء المرسلين ، وكثيراً ما ينظرون اليهم نظرة هزؤ واحتقار بل قد طالما حدثني الكثيرون منهم بأنهم لم يقدروا أن يحادثوا واحداً منهم . وليس هذا بالغريب على من له أقل إلمام بما يلذ للسياح أن يتحدثوا به .

« على انني لا أستغرب أن أرى سهام النقد موجهة إلى المرسلين من ذوي

السيادة على مصالح العالم كما هي بحالتها الحاضرة فان المرسل مضطر بواجب الخضوع للمبادىء التي يُبَشّر بها ان يكون أول الثائرين . فهو لا يؤمن بالوطنية الضيقة أو القومية المحدودة لأنه واحد من المؤمنين بملكوت السماء على الأرض . كلا ، ولا يستطيع المرسل المسيحي أن يتقيد بنظمنا وشرائعنا ، لأنه يؤمن بأن عالم المال سيندثر مع ربه مَمُّون ولا يستطيع أن ينادي بأعلى صوته بالثورة على شرائعنا احتراماً لايمان آبائنا .

« وبعبارة أخرى ، إن المرسل الحق هو مشاغب أجنبي وليس غريباً أن يُضطهد ويحكم عليه كما يحكم على كل أجنبي مشاغب في هذه البلاد - ويحمل عليه المتهوسون للوطنية والتعصبات الدينية والغايات الذاتية لكي يكموا أفواهنا عن اقتفاء مثاله في انتقاد النظامات التي رسمها لنا جدودنا الاطهار .

« ولي كلمة أخرى أود أن أقولها في هذا الموضوع ولو أطلت الشرح على القراء . ان العالم اليوم في أقصى حالات الاضطراب . لأن الحرب التي ثارت نيرانها في العالم رجاء أن تضع حداً معقولاً لا ينتهي عنده كل شيء في العالم أضرت أضعاف ما نفعت . فقد زاد شر التعصب في الناس كلٌ لوطنه ، وتعاظم التزاحم على الاسواق التجارية في العالم . وكل أمة تبذل اليوم جهدها لكي تضع العراقيل في طريق تجارة غيرها من الأمم بالرسوم الجمركية الباهظة والاتفاقات الخصوصية الخ . وبكلمة وجيزة ، ان الحرب لا تزال مشتعلة نارها حتى الآن . ولذلك فاننا لم نلجأ إلى برنامج جديد أصلح لنا من البرنامج الذي عندنا لتوحيد رغبات العالم في كتلة واحدة فاننا عاجلاً أو آجلاً سيفني بعضنا بعضاً .

« أما البرنامج العملي الوحيد الذي أعرفه فهو ذلك البرنامج الذي يُعمل به في بلاد الصين . لأن الصين هي أقل جميع الأمم الكبيرة في الأرض اهتماماً بالتعصب لوطنيتها أو قوميتها . وربما كانت هذه البلاد في مقدمة أمم الأرض رقياً حقيقياً فليس فيها من أثر لغول الصناعة الحديثة ولا للمدنية الحديثة . وفي مثل هذا المحيط يبشر المرسلون الاميركيون ببشارة الاتحاد لأجل الخدمة عوضاً من الاتحاد لاجل المنافع التجارية . وهم لا يبشرون بهذه الحقيقة فحسبُ ، بل

يمارسونها بأعمالهم . وما أجمل النتائج التي تأتي بها .

« لأجل ذلك ، فان هؤلاء المرسلين هم أقرب إلى الشعب الصيني من جميع الغرباء القاطنين في بلاد الصين ، وهم لم يحصلوا على هذا المركز بتبشيرهم فقط ، بل انما حصلوا عليه بمثالهم وسيرتهم . أجل ، قد حصلوا عليه بخدماتهم - بوضعهم تعاليم يسوع الاجتماعية في موضوع العمل بقطع النظر عن الطريقة التي يفضل هذا أن يتخذها له واسطة لمغفرة خطاياه دون ذاك . وهم يبشرون بهذه البشارة جاعلينها دستوراً للوحدة العالمية المنشودة :

« أنا لست مسيحياً من الوجهة اللاهوتية أو التقليدية والطائفية . ولكنني لواثق بأن العالم يجب أن يتحد بأسره على هذا المبدأ ، وانني أعتقد بأن المرسلين الاميركيين في الصين يحملون بأيديهم مفاتيح الفداء الوحيد للعالم . وحبذا لو تفهم أميركا هذه الحقيقة فتعضد هؤلاء المرسلين ليكون لها الفضل في إزالة جميع الحروب . »

انني عضو في المجتمع الانساني ، وأحد أبناء هذا العالم ، وفرد من سكان الولايات المتحدة الأميركية . ولذلك يهمني مستقبل الثلاثة معاً . وأوضح بكل ما في قلبي من الاخلاص انه ليس للانسانية رجاء إلا في انتشار مبادىء يسوع المسيح .

ان وُدرو ويلسون ، ووارن هاردينغ ، قد كان كل منهما رئيسا للولايات المتحدة ، وهما شاهدان عظيمان قد صرّحا على رؤوس الاشهاد بما ملخصه ، ان أعظم قوة عاملة على تهذيب الامم ونجاحها ، وسعادة الجنس البشري وراحته انما هي كائنة في انتشار الايمان والعمل بمبادىء يسوع المسيح .

بيد ان هذا الموضوع الذي نحن في صدده ليس من المواضيع التي تفصل بنقل أقوال الثقات فحسب ، بل ان البصيرة العامة في جميع الناس تدلنا على ان كل قوة عظيمة هي ضارّة اذا لم يصحبها ما يتسلط عليها ويكبح جماحها من قوى الفكر المدركة المميزة غثها من سمينها وجميلها من دميمها .

وان قوة الانسانية تتضاعف في كل يوم بطريقة عجيبة لاننا قد قوينا

ساعدي الانسان الى درجة هائلة بخطواتنا الواسعة في السُبل العلمية ، وبما أضفناه إلى عالم الإختراع ونضيفه في كل يوم من مئات الإختراعات .

ولذلك يجدر بنا أن نقوي في الوقت ذاته القوة العقلية التي تتسلط على هذين الساعدين وتديرهما في السبل القويمة وإلا فاننا نكون قد جنينا على أنفسنا بخلقنا جباراً يعمل على خرابنا وهلاكنا .

وقد قال الدكتور كولْدْوُال في كتابه الحديث ، « العلم يجدد بناءَ العالم » ما يأتي :

« ان المعرفة العلمية ، والمناهج والاختصاصات العلمية الحديثة قد بلغت إلى درجة صارت الجهالة معها خطراً على صاحبها بل خراباً وموتاً في أكثر الأحيان . فالطيارات التي ربحت الحرب قد اختطفت حياة الكثيرين من الذين كانوا يواظبون على العمل فيها . والغاز السام وغيره من الاختراعات الحربية لنا من مجرد ذكر اسمها ما يرعبنا ويكفينا مؤونة الايضاح عما بلغ اليه الانسان من الاكتشافات الجهنمية المهلكة . لأنه لو قدر لأحد المتخصصين في الكيمياء التحليلية أن يكتشف كيف يمكن أن تحلل قوات كهربائية فوق أرض مساحتها عشرون ميلا مربعاً بصورة تتفجر معها جميع الالكترونات المحتوية على البروتوبلاسم الانسانية ، فانه ليس من مصلحة أمة من الأمم أن تأذن باستعمال مثل هذا الاختراع الشيطاني . ولذلك أقول أن الجاهل لاسرار العلم في هذا العصر من الأمم لن تقوم له قائمة في مستقبل الايام . بيد أن المعرفة الحقيقية تحمل صاحبها مسؤوليات كبرى . وفي مقدمة هذه المسؤوليات أهمية - وهي المسؤولية التي يكون العلم الحديث خطراً على الانسانية بدونها - ان المبادىء الأدبية والسيادة الفكرية يجب أن تنمو جنباً إلى جنب وأن تكون قائدة للمعرفة العلمية »

وخلاصة ما تقدم أن الرقي الانساني هو سباق بين التهذيب والمصائب . والجنس البشري سائر ولاشك إلى الاضمحلال اذا لم تتسلط فيه القوى الأدبية على القوى المادية والعقلية .

وليس هذا بخيال أو وهم لانني كما أنا واثق بأن ستشرق الشمس في صباح الغد كذلك أقول أن حرباً أخرى أشد هولاً من الحرب الماضية قادمة على الانسانية بخيلها ورجلها وستفوق بأهوالها وفظائعها جميع ما تقدمها من الحروب .

لاننا جميعا نصدق أن الشمس ستشرق في الغد لأنها منذ أبصرنا نورها وهي تشرق في كل صباح من غير تغيير قط . وكل من له أقل المام بالتاريخ يعرف أن النظام السائد في الحكومات الحاضرة قد كان ينتج الحرب بعد الحرب في أوقات مختلفة كلما سنحت له الفرصة ، وانما أعني بذلك ان الحرب كانت تقوم كلما توفر لدى الأمم من المال والرجال قدر كاف لاشعال نيرانها .

ولا أعرف في العالم قوة أدبية تستطيع أن ترغم الأمم على تأليف عصبة واحدة لاستئصال الحروب مثل القوة المسيحية .

غير أن التاريخ لم يشهد من كنائس يسوع المسيح اعراضاً عن القيام بالواجب ، وضعفا ممتلئاً من روح الجريمة الكبرى كما شاهد في خيبتهن وعدم اتفاق كلمتهن على عضد جمعية الأمم بكل ما أوتوه من شجاعة وقوة لمنع الحروب بالطريقة الوحيدة الممكنة في العالم اليوم ، وليس في الوجود من قوة تستطيع على إيجاد الشعور العام وتدريبه في الصدور بطريقة تضطر الامم أن تعدل عن نظامها الحاضر الذي يدور على محور الاستعداد للحرب ، والتنظيم في المملكة لأجل الحرب ، وإثارة نيران الحرب – غير روح يسوع المسيح وانتشار الايمان بالحق الذي جاء به الى العالم في جميع الأقطار والأمصار .

ان الحياة معلمٌ لا تعرف الرأفة سبيلاً إلى قلبه . وكل ما أراه في العالم اليوم يدلني على أن الحياة قد أرغمها سلوكنا فعزمت مضطرة أن تمحو عن وجه الأرض القسم الأكبر مما نسميه مدنية لكي تعلم العالم الدرس الذي لم يقدر أن يتعلموه بغير هذه الطريقة : وهو ان النهاية التي لابد منها للاعتماد على القوة الغشومة انما هي في الدمار والفوضى .

لأنه في الحرب القادمة لن تتحارب الجيوش على الحدود كما كانت العادة فيما مضى من الحروب ، بل ستكون الحرب ساحة عراك هائلة بين الطيارات

والغازات السامة ، ولن تكتفي بأن ينتصر فريق على فريق فيحتل أرضه ويمتلك أملاكه بل ستؤول إلى إستئصال الملايين من أبناء الانسان وخصوصاً القاطنين في المدن الكبيرة .

ان بشارة يسوع تبدو للناظر اليها رقيقة لذيذة ، ولكن حلاوتها الحقيقية كائنة في انها تحجب شراسة الأنياب والمخالب . بيد أن المعجبين والخبثاء والصلفين من بني الانسان وإن ضحكوا من الوصايا المسيحية الآمرة بالمحبة والاخوة والتعاضد والمساعدة للمحتاجين ، فانهم عاجلاً أو آجلاً سيجدون أن احتقار هذه الوصايا انما يؤدي إلى جحيم في هذه الحياة ، ولا فرق عقبه جحيم في الحياة الثانية أم لا فهو كاف لهم بذاته .

لأجل ذلك أنا مسيحي ، لانني واثق في أعماق قلبي بأن أمام العالم احدى طريقين : فإما إطاعة حكمة يسوع أو طرح جميع ثمرات المدنية الحاضرة في قعر الهاوية .

أنا مسيحي

لاني أعتقد بأن يسوع هو أنضج فكراً
من جميع معلمي الانسانية

"ان يسوع في عقيدتي هو المفكر الوحيد
العظيم الذي كمل نضج فكره."

ان يسوع في عقيدتي هو المفكر الوحيد الذي كمل نضج فكره . وهو وحده من بين جميع معلمي الانسانية قد خلع عنه كل ما في عدم الكمال من النقص والضلال .

وقد خطا جميع المفكرين العظام خطوات واسعة حتى لن يحلم انسانٌ باللحاق به . ولذلك فاننا لا نستطيع أن ننظر إليه كدعامة من دعائم الماضي فقط بل يجدر بنا أن ننظر اليه كمنارة يفيض النور من جوانبها على شواطيء المستقبل فيبدد كل ما يسود فيه من الظلمة المدلهمة . كلا ، ولا نحن نبدأ مسيرنا من حيثما هو لاننا اليه سائرون . أما تشبيهه « بأساس الكنيسة » فليس بالتشبيه البالغ الجمال ، لأن الكنيسة أقرب أن تكون شجرة متجددة من أن تكون بناية ثابتة لا تتغير . فهي تنمو كالشجرة وتنزع عنها أغصانها اليابسة وتخرج لنفسها براعم جديدة . وانني أحب الصورة المرتسمة في الآية ، « أنا الكرمة ، وأنتم الأغصان » أكثر من الآية ، « على هذه الصخرة ابني كنيستي » .

ان عقل الولد يغلّفه الغرور ويحيط به الانخداع . فهو يعتقد بأن الأرض مسطحة بانياً اعتقاده على أفضل الأدلة ، وهو الدليل الذي كثيراً ما نعتمد اليه ، – دليل الشعور العام الذي يظهر لنا الارض مسطحة .

فيقول في ذاته ، « وهل يمكن أن تكون غير ذلك ؟ انظر اليها ! – كل انسان

يقدر أن يرى انها مسطحة . فأنا أستطيع أن أركض على سطحها ، من غير أن أصعد إلى جبل أو أتدهور إلى منحدر . والسيارات تسير عليها مثلي . فلو كانت مدوّرة لتدهورت ولتدهورت السيارات عن سطحها في الحال . »

وان هذا لدليلٌ ممتاز وبرهان واضح . ولكن فيه نقصاً واحداً : وهو انه كاذب ، وليس بين البالغين من يصدقه . فاننا جميعنا نعرف ان الارض مستديرة مثل الكرة .

ولكن ليس بيننا من اهتدى الى هذه الحقيقة بذاته . فان شخصاً ثالثاً قد أخبرك وأخبرني . وهذا الثالث هو التربية لان التربية تقوم باصلاح أغلاط الشعور العام .

فالولد والبربري يعتقدان بأن الشمس تدور حول الارض وهما يبنيان هذه العقيدة على أساس الشعور العام . فكل انسان ينظر الشمس تشرق في الصباح ، ثم لا تلبث أن تكمل دورتها في السماء وعند المساء تغيب متوارية عنا . وهذا يؤيد الحقيقة الظاهرة التي يتمسك بها الولد والبربري والخطأ كل الخطأ انما هو كائن في الشعور الذي يدفع بهما الى هذا الاعتقاد . غير اننا عندما نذهب إلى المدرسة نتعلم ان الشمس لا تدور حول الأرض ولكنها ثابتة لا تتحرك في حين ان الأرض هي التي تدور حولها .

وانما قدمت هذه الأمثال البسيطة لانها خير أمثلة على الانخداع والوهم اللذين يستوليان على أذهان الناس فيسيّرانهم حيثما أرادا . ومن هذه الأوهام الروحية تأتي جميع مصائبنا .

ففي العائلة اضطراب ، وبين الاصدقاء والجيران شقاق وخصام ، والحروب سائدة في جميع الأمم ، وكل ذلك لاننا لا نبصر نور الحقيقة . أجل ، اننا عُميان نتلمس طريقنا في الظلمة الحالكة . ولذلك يلطم بعضنا بعضاً ، ويجرح بعضنا بعضاً ، بل ويقتل بعضنا بعضاً .

وانني أستطيع أن أقول اننا لو كنا نبصر جيداً في جميع أعمالنا لكان القسم الأكبر من أوجاعنا يتلاشى ولا يبقى له أثر على الأرض .

فان الإنسانية لا تتألم من ان طبيعتها شريرة أو شيطانية مثلما تتألم من فجاجة فكرها وصغارة عقلها . لانها لا تزال طفلة في مهدها ، وهي تتصرف تصرّف حماقة وغباوة لأنها لا تعرف أكثر من ذلك .

لأن الخليع والسكير والفاسد ، والفاجر المستسلم لشهواته لا ينحصر شرهم في خباثتهُم وتهتكهم كما في انهم أوعية جامدة قد أقفلت أفواهها فلم يبق من ثمة أملٌ بتنظيفها فهم يعتقدون بأن الملذات التي تمتعهم بها شهواتهم برهة من الزمن هي كل ما يقدرون على الحصول عليه في حياتهم . فهم كالأولاد الذين يفرطون في الشراهة والنهم في أكل الحلويات فتكون النتيجة الضعف والمرض . وكل ما يحتاجون اليه هو المعرفة .

والذين يخيل إليهم انهم تعساء ، وانهم مصابون بمرض عضال ، وهم أبداً متذمرون متمرمرون لا ترضيهم حالة من حالات الحياة ، فهم في صف الواهمين المنخدعين . وهم أشبه بالأولاد الفاسدين الذين ليس لهم شعورٌ كاف يدربون به ذواتهم للخروج من أوحال الظلمة والشقاء الذاتي . فالطريق سهلة ولكنهم لا يستطيعون أن يبصروها .

ومثل هذا يجري مع أكثر الناس بوجهة نسبية . فالامم في حرب دائمة.. وهم أبداً يئنون تحت أثقال الضرائب وخسائر الحروب الفادحة . وكل ما يكابدونه من الآلام انما هو نتيجة طفولة عقولهم الغير الناضجة . فإنهم لا يستطيعون أن يبصروا الحكمة البالغة الكائنة في التعاضد والتآلف .

أما الروح الوطنية فعوضاً عن أن تكون رغبةً نبيلة تختلج بها صدور الأمم للعمل كلٌ لأجل مساعدة بلاده وطمأنينة القاطنين فيها ولأجل تهيئة بلاده لخدمة العالم خدمة نصوحة صالحة ، فهي متجسدة في أكثر العقول بشكل كريه ممقوت لا يوحي سوى محبة الخصام والبغض والرغبة في السيادة على الغير واحتلال بلادهم . ولذلك فان العالم يدبُ على الأرض كانما هو طفل صغير بدأ للمرة الأولى يتعلم كيف يمشي على الأرض .

وليس في جميع تعاليم الحكماء والفلاسفة الذين نبغوا في العالم ما ينزع

هذه الغشاوة عن عيوننا لكي ننظر الحقيقة من وراء ضباب الأوهام المتسلطة على أذهاننا سوى تعليم يسوع الذي يستطيع وحده أن ينعشنا ويحي الميّت من آمالنا ، لنعيش عمرنا بطمأنينة وقناعة .

وها نحن موضحون فيما يأتي من الفصول بعض العناصر الرئيسية من تعاليم يسوع ومثاله التي تظهر كمال فكره ونضج ذهنه وكيف انه لمْ يكتف باستيعاب الاوهام المتحكمة في الانسانية وادراك كنهها بل ادراك الحقائق الأزلية التي تتلمس الانسانية اليوم طريقها اليها لترمُقها ولو بطرف عينها .

انني باقتفائي لخطوات يسوع

انما انقذ نفسي من الأوهام العظيمة

التي ذهبت ببصر الانسانية وبصيرتها .

الوهم

في ان الطبيعة البشرية شريرة

" ليست مصيبة الانسانية في انها شريرة
بل المصيبة كل المصيبة انها غير بالغة
ان العالم الذي أحبه الله لم يكن مسيحياً
بل كان مؤلفاً من مخلوقات بشرية
ساذجة . وقد أحبهم الله وظن ان
لهم من الفهم كفاية ليفهموا أقواله
وهكذا أفعل أنا . "

ان الرأي الغالب في العالم ان البشر أشرار بطبيعتهم . والعقيدة السائدة انهم بحكم الطبع يميلون الى الشر كما ان شرارة النار تتصاعد بطبيعتها إلى العلاء .

وقد نشأ هذا الوهم عن الرأي القائل ان الحياة تتوقف على الجهاد المستمر، ولا تنمو بكثرة الا اذا كانت دائماً على أهبة السعي لمقاومة كل ما يقف في سبيلها من العقبات . هذه هي شريعة الحياة باسرها ، فهي شريعة الحيوان ، كما هي شريعة الطير والسمك والنبات والانسان . لان الحياة ذاتها قوة ، وهذه القوة انما خلقت لكي تستخدم المادة لا حياة فيها وتتسلط عليها وتنظم منها ما تنتفع به . ولذلك فان الطفل وكل من لم تبلغ قواه العقلية درجة أرقى من قوى الطفل العقلية يعتقد بأن جميع ما تقاومه الحياة من المقاومات لمسيرها انما هي شر ممقوت . لانه اذا لم يقم كائن حي بوظيفته الحيوية ويتمم قسطه من الجهاد في سبيل

الحياة ، فانه يغلب على أمره من المادة ومن غيره من الأحياء فيقضي ويزول .

وقد نظمت هذه العقيدة تنظيماً ثابتاً في علم اللاهوت . فداود الملك نفسه صرخ قائلاً ، انه بالخطايا قد ولد وبالآثام قد حبلت به امه . وقد قال يهودي آخر من كبار مفكري اليهودية ، ان قلب الانسان خداع قبل كل شيء وشرير الى درجة لا يمكن ان يتخلص منها . ذلك لان اليهودي كان غنياً بالعطايا الروحية وكان يعرف شدة الحرب التي كان على الروح أن تكابد مصائبها وأوجاعها في جميع أطوار نموها . لأجل هذا كان اليهود ذوى آراء ثاقبة في الخطيئة .

وعندما شرع علماء الكنيسة في درس الكتاب المقدس وتدبّر ما فيه من الحكم والآيات وجدوا بين آياته الكثير من الشواهد التي تؤيد رأيهم بأن الانسان شريرٌ بطبيعته ولا يمكن أن تصلح حاله ما لم تلامسه قوة غير منظورة فيما وراء الطبيعة .

على انني أعتقد بأن هذا الرأي لا يتفق مع العقيدة المنطبقة على العقل الصحيح في الوجود .

فأنا أعتقد بأن النقص كائن في جميع الناس على السواء . لان فيهم غرائز ورغبات تحتاج الى من يحسن تنظيمها ويكبح الجامح منها ويستثمر الصالح النافع .

فالخطيئة هي البلبلة أو الاختلال في النظام . بل هي ضعف يستولى على القوى الأدبية المسيطرة على تنظيم الرغبات البشرية وحسن ادارتها .

وانا وإن كنا نرغب جميعنا في الشرّ فان لكل منّا ضميراً حساساً ينبئه بأن ما يفعله شرٌ هو ، ولذلك يجدر به أن يكون أفضل مما هو .

وتكاد العقيدة القائلة بأن الصلاح صعبٌ جداً تكون عامة في جميع العالم، حتى غلب القول ان الرجل الفاضل غريب عن الطبيعة البشرية ولا يتفق سلوكه مع طبيعة الانسان ، في حين ان الجميع يعتقدون بأن الرذيلة فتانة تلائم الطبيعة ويفتح لها الانسان قلبه وحياته .

حتى قام لها نفرٌ أقل من القليل من الذين يؤمنون بها . وانني من أصدق المؤمنين بها من غير قيد ولا شرط ، بل أنا أثق بأن يسوع قد آمن بها أيضاً لانه استغاث بها على تنفيذ تعاليمه . وقد كان عارفاً ان الناس يحبون أن يعملوا الصلاح ولكنهم يحتاجون إلى من يظهر لهم الطريق المؤدية إلى ذلك .

ان جميع العقائد التي في العالم اليوم تُعلّم قبل كل شيء ان الفضيلة ممقوتة مرذولة وان الرذيلة خداعة جذابة . وأول ما نبدأ في زرع هذه البذرة الفاسدة في أذهان أولادنا ، فنقول لكامل مثلاً ، وعمره سبع سنوات ، « اذا كنت ولداً صالحاً ولم تفعل شيئاً رديئاً فانني أعطيك قطعة من الحلوى » .

فالافتراض هنا ان الصلاح ليس من طبيعة الولد وان الطريقة الوحيدة لاستمالته اليه أن يُغريه ببعض المواد الخارجية التي يستلذها . ثم نقول له : «وان كنت رديئاً في سلوكك فانني سأصفعك صفعاً . » فالافتراض هنا أن الولد يميل بطبيعته إلى فعل السوء ، وانه يحب الشر ولا طريقة لردعه عن هذه المحبة سوى العقاب والأذية . ولذلك فاننا نسيء جداً بزرع هذه العقيدة الكاذبة في أذهان أولادنا ، فنغرسها فيهم من الجهة الواحدة ثم نسحقها في أعماقهم من الجهة الأخرى .

أما عقيدتي التي أنا شديد الثقة بها فهي ان كل انسان يرغب في أن يكون مستقيماً في أعماله . ويمكن أن تكون هذه الرغبة ضعيفة في هذا قوية في ذاك ، ولكنها كائنة في كل انسان . وانما عمل الدين الوحيد أن يحتفظ بهذه الرغبة ويحسن استثمارها في حياة الناس . وانني أرى ان شر خطيئة يفعلها الانسان ولن ينال عليها غفرانا انما هي في أن يخبر الولد انه شريرٌ ويكرر ذلك حتى يخيل إلى فكره الصغير انه شرير بالحقيقة ولا مناص له من الشر . ولكننا لو أخبرناه انه ولد صالح وانه يريد أن يكون مستقيماً في جميع أعماله فانه يمكن أن يكون ولداً صالحاً فاضلاً فوق ما نتصور في أذهاننا . غير اننا إذا أخبرناه دائماً انه ولد شرير فانه يجرب أن يعيش على وفق عقيدتنا به .

وان أعظم قوة في الفلسفة الأدبية والتهذيب الكامل انما هي في تقدير

الاخلاق الكريمة حق قدرها ، وأعظم قوة تعمل على هدم الاخلاق الفاضلة في الانسان انما هي التنزيل من قدر فضائله وبخسه حقوقه .

فالشعب الذي وجه اليه يسوع عظته على الجبل لم يكن مسيحياً . والعالم الذي قال أنه أحبه لم يكن عالماً مسيحياً . بل كان يتألف من العامة الساذجة الفقيرة . وقد أحبهم لأنه اعتقد بأن لهم من الفهم ما يستطيعون أن يفهموا به كل ما قاله لهم . فقرب لهم رسالته وعرض عليهم أفكاره فأصغوا اليه فرحين مغتبطين. ومن تلك الساعة ما برحوا يصغون اليه ويحبون كل كلمة تخرج من فيه .

ولذلك قال انه عندما يرفع سيجذب جميع الناس اليه ، ولكنه ما كان ليستطيع ان يجذب الناس اليه لو لم يكن فيهم ارض صالحة لاقتبال بذار تعاليمه .

وقد دعاه أعداءه صديق الخطأة . ومن الشكايات التي وجهها ضده الفريسيون ، وهي نفس الشكايات التي كان العالم وما برح يوجهها ضد الذين جرأوا ويجرأون على الايمان بصلاح الطبيعة البشرية ، - انه كان يجالس العشارين والخطأة ويؤاكلهم .

انني أؤمن بأن كل امرأة ترغب في أن تكون شريفة وكل رجل يرغب في ان يكون فاضلا عفيفاً ، بل أنا واثق من اعماق قلبي بأن كل الاضطرابات التي تعكر صفو علاقات البشر بعضهم مع بعض انما هي نتيجة لعدم ايمانهم بما أؤمن به من صلاح الطبيعة البشرية .

لذلك نرى أمامنا الامم تحارب الواحدة منها جارتها ونرى في الوقت ذاته ان الأمة التي تبدأ الخصام باعلان الحرب على جارتها الآمنة تنشر الدعوة في جميع البلدان ان شعوب الأمة الأخرى التي تحاربها اجلاف وجبناء غادرون . ونرى العمل يحارب رأس المال وكل منهما يجرب قوته في تمثيل الثاني بأنه مجموعة محتالين خبثاء وطماعين اردياء .

نرى الأولاد يتغربون عن والديهم والرجال والنساء ينفصلون بعضهم عن بعض والكنائس تنقسم وحدتها الى طوائف متعددة يشاق بعضها بعضاً ، والجيران تتحول محبتهم الى ضغينة وبغضاء ،وكل ذلك لان الفريق الواحد يعتقد

بأن الفريق الثاني شرير بطبيعته ، ولا خلاص للعالم من هذه الفوضى سوى الايمان الصحيح الايمان بالله فحسبُ ، بل نحن في حاجة الى الايمان بالانسانية أيضاً .

وقد سأل الرسول يوحنا الحبيب اننا اذا كنا لا نحب اخوتنا أبناء الانسانية الذين نظرناهم وننظرهم أمامنا فكيف نستطيع أن نحب الله الذي لم نره ولا نستطيع أن نراه .

وانني أحب هذا الافتراض الجميل من أعماق قلبي ، الافتراض الخالد الذي في هذا السؤال ، الذي يدلنا على ان الانسان يجب أن يكون بطبيعته صالحاً محباً مثل الله .

وليس هذا الافتراض محض تفاؤل لا حقيقة دونه . بل هو أفضل رأي علمي ممتلىء من الفطنة والحصافة . فهو موافق لحقيقة النشوء والارتقاء في الطبيعة وملائم في الوقت ذاته للصورة العمومية التي رسمها يسوع للحياة . ولكنه يخالف بعض الأقوال التي جاء بها المعلمون والمتشرعون في بلاد اليهودية القديمة . ولكنني أعتقد بأن يسوع أعظم من جميعهم .

الوهم في ضرورة العقاب

"ان الثواب والعقاب هما حيلتا العالم
الخداعتان اللتان ما برحتا تغويانا حتى اليوم"

إن الرأي القائل بأن المنفعة الذاتية هي الينبوع الذي تتفجر منه مياه تصرفنا وسلوكنا في الحياة ، وأن جميع الناس هم بطبيعتهم عبيد أرقاء للشر - ولا يمكن حفظهم منه الا عن طريق الحواجز الصناعية - هو رأي يخترق أفكار العالم ويسود عليها في جميع فروعها .

فان الثواب والعقاب هما حيلتا العالم الخداعتان اللتان ما برحتا تغويانا حتى اليوم . وهذا الوهم هو أساس جميع ما لدينا من قوانين العقوبات ، المبنية على السخافة البسيكولوجية القائلة بأن الطريقة الوحيدة لمنع الناس عن فعل السوء انما هي في أذيتهم وتعذيبهم . وعلى هذه السفسطة يرتكز نظام الشرطة ونظام المحاكم والسجون .

أما محاكمنا الجزائية فقد دُعيت بيوت العدالة ظلماً وعدواناً ، وكان الاجدر بها أن تدعى بيوت الانتقام والظلم فاذا لجأ منا رجل الى الشدة والتعدي في عمل من الأعمال . فاننا لا نعرف ما نقابل به عمله سوى تعذيبه والانتقام منه . ومع اننا قد عدلنا عن الهمجية في تعذيبه والتنكيل به بشتى الآلات المتنوعة : كتعليقه بأباهم يديه حتى يموت ، أو جلده حتى يفقد شعوره ، أو جره على الأرض وتقطيعه ارباً اربا - فاننا لا نزال نعذبه بسجنه في قبو مظلم ، أو باختطاف روحه من أعماقه .

فالعاطفة التي تدفع الانسان الى مثل هذا العمل الفظيع لا يمكن البتة ان تكون عاطفة عدالة للتأديب ، بل هي عاطفة ظلم للانتقام . وهي نفس العاطفة التي تدفع السائق العديم الرحمة إلى وخز حصانه في بطنه اذا وقف في مشيه ، وتثير

غضب الولد الى استحضار الفأس وتكسير البيانو عندما يلطم به رأسه .

وما العدالة عند التحقيق الا تأييد النافع المستقيم من الرغبات والحالات واستئصال الضار المؤذي منها . ولكننا ما برحنا متمسكين بهرطقة العقوبات فأن أفكارنا المضطربة لن تقدر أن تنظر ، لا في وقائع الدعاوي ولا في حوادث التاريخ ، أن نظامنا الحاضر لا يقلل الجرائم بل انما يزيدها اضعافاً .

ولو كانت لنا بصائر ثاقبة لكنا نرى هذه الحقيقة الناصعة التي تتضح لكل من يعمل على درسها صحيحاً . لان سجون العالم المتمدن لا تصلح أحداً من الناس وقد أتيح لي أن أخبر أحوال السجون في الولايات المتحدة وما يجرى فيها من الأعمال في مدة ثلاث سنوات قضيتها في إدارة السجون في ولاية ايلينوى . فقد فحصت نحو ثلاثة آلاف دعوى لثلاثة آلاف سجين ، وقد طالما تحدثت مع رؤساء السجون والعاملين فيها غير انني لم أسمع قط ان عقوبة السجن قد نزعت الرغبة في الاجرام من صدر سجين واحد قط . بل بالعكس كنت أرى أمامي في كل يوم بينات متعددة على أن السجون تربى الناس على محبة الجريمة والرغبة في المضرة والأذية حتى دعاها أحد الثقات في الموضوع ، « بواتق الجرائم » .

أجل ، ان سجون الولايات المتحدة ، عوضاً عن أن تستأصل الجرائم ، تخرج في كل سنة مائة وعشرة آلاف تلميذ قد استكملوا دروسهم في جامعة الجرائم .

فاذا اقترف الانسان جريمة الفحشاء مثلا ، فهو يظهر بذلك انه رجل مريض، كما لو كان مُصاباً بذات الرئة أو غيرها من الأمراض . فهو والحالة هذه ضعيف القوة الأدبية والفكرية ولا تجديه عقوبته أقل فائدة ، بل بالعكس من ذلك تزيد في ضعفه واعتلاله . وأفضل طريقة لتقويم اعوجابه أن يرسل الى مستشفى يعنى بازالة مرضه وليس الى سجن يقضى على بقية الفضيلة والأدب في رأسه . وأنا أقصد بالمستشفى المكان الذي يمكن أن يشفي منه مثل هذا العليل الروحي وتتحسن حاله ، أو يرسل على الأقل الى حيثما يوضع حدٌ لمرضه فلا تزداد به العلة ، وليس إلى حيث يعذب ويقذف به في هوة أعمق من الهوة التي رمى اليها ذاته فهو ليس في حاجة الى أن يسجن كحيوان يحرسه سجان قاس ، لان مصيبته

الكبرى انه حيوان أكثر منه انسان . ولذلك فهو في حاجة الى طبيب رؤوف يعتني به كمخلوق بشري فيزيل ما يشد به الى دناءة الحيوان .

وانا لن نبني معاملتنا لذوى الجرائم من اخوتنا في الانسانية على أسس العاطفة الشفيقة الراغبة في الخير ما لم ننظر إلى المجرم نظرنا إلى المريض المستقيم الذي هو ادعى الى محبتنا منه إلى نقمتنا .

وقد أدرك يسوع السفسطة الكائنة في محبة الانتقام العقيمة . ولذلك فهو عندما تكلم عن تقديم الحد الأيسر لم يقصد قط أن العالم يجب أن يدفع الى قبضة الشرير المعتدى ، بل انما اظهر أن الأشرار يجب أن يعاملوا بفطنة كمخلوقات أضعف ممن يقع عليهم شرهم ، لا أن يقاوموا كاقران وأمثال .

وان من الأوهام العمومية الوهم المتسلط علينا ، انه يجب ان يحرسنا الشرطة والجنود والحكام وغيرهم من رجال الشريعة . فالرجل العادي من الناس الذي لا ينظر إلى أبعد من حدود خياله يعتقد بأن امرأته واولاده في مأمن من الخطر اذا ساروا في الشوارع ، وانه ينام في بيته آمنا ولا يخاف ان تغتاله يدٌ اثيمة في فراشه لان رجال الشرطة يحرسون المدينة بالنبابيت والبنادق .

غير ان القليل من أعمال الفكرة يظهر لنا السفسطة الكائنة وراء هذا الرأي. فاذا فرضنا ان كل شخص في المدينة التي نعيش فيها يميل بطبيعته الى الأذية والجريمة ، وان كل واحد منهم شرير يرغب في الاغتصاب ولكنه يتوقع فرصة مناسبة ليقدم على حرق بيت جاره ، أو قطع يده أو رجله ، أو هتك عرضه أو قتله لضغينة بينهما . اذا فرضنا كل ذلك ، وان كل رجل يريد ان يفعل ما ذكرنا فانني الحق أقول لك ان جميع رجال الشرطة في العالم وكل ما فيه من جنود والحكام ورجال الشريعة لا يستطيعون ان يحولوا دون حريق مدينتك وانتشار الفوضى في سائر انحائها في اسبوع واحد .

لان رجال الشرطة الحقيقيين في أية مدينة كانت إنما هم القوات الأدبية الكائنة في أفكار أبناء تلك المدينة لضبط الجامح من غرائزهم ورغباتهم . فانت وأنا في مأمن من الخطر لأن الأكثرية الساحقة من الناس يبغضون الرذيلة

ويرغبون في الفضيلة والسيرة الشريفة من أعماق قلوبهم . وكل ما يفعله رجال الشرطة انما ينحصر في تقييد الأقلية المعوجة والحؤول دون انتشار فسادها .

أما الثقة التي نضعها في فائدة السجون ، ولوحات التشهير ، والمأمورين في تنفيذ أحكام الجلد والعقوبات ، والكرسي الكهربائية ، وغيرها من آلات العقوبات واهمين بانها تمنع الجرائم وتحول دون التعديات فانما هي جزء من ثقتنا بان نار الجحيم تمنع الخطيئة . وكلتا الثقتين عقيمة لا فائدة منها .

فان العالم ما برح منذ ألوف السنين يعتقد بان البشر لا يمكن أن يحفظوا في مناهج الفضيلة والبر ما لم يخوفوا ويرعبوا بروايات مختلفة عن نار الجحيم الآكلة ! وقد قال الشاعر برنز :

« إن الخوف من الجحيم سيف مسلط فوق رؤوس الاشقياء لقيادتهم إلى حظيرة النظام . »

غير ان العالم قد انزل بذلك مركز اللّه سبحانه وتعالى الى مركز سجان حقير . ووضع في الأذهان انه تعالت قدرته قد أذن بوجود الشيطان وسلطه على النفوس البريئة يضطهدها ويعذبها ويجربها . وما انفكت الانسانية حتى اليوم تعمل بهذا الوهم وتتقيد بنصوصه كأنه دستورها الوحيد وشريعتها المثلى .

ولكن نفسية الجنس البشري قد تطورت على ممر الأجيال حتى تخلصت بعض الخلاص من تحت هذا النير الثقيل . فان قليلين من ذوى البصيرة الثاقبة في هذا العصر يصدقون بمثل هذه الأوهام .

كان علماء الكلام في العالم القديم يعلمون ان اللّه جبار طاغية جل غايته في الوجود أن يطيعه جميع المخلوقات والكائنات صاغرين معفرين جباههم بتراب الأرض . وقد ظلت هذه الغاية شغله الشاغل حتى قضى أخيراً بالنار المؤبدة على جميع النفوس التي كانت ترفض الانقياء لهذه الرغبة القاسية .

وقد قضى يسوع على هذه العقيدة بتعليمه السامي ان اللّه أبٌ رؤوف محبٌ وليس بالسلطان الجبار القاسي الذي يجب على الناس أن يخافوه ويخشوا

في سلم الارتقاء .فهو تعالى بستاني عظيم ونحن نباتات في بستانه يتعهدنا بخير العناية لكي يكون نمونا متتابعاً في الوجود .

أما الخوف فله مكانه فينا كغريزة فطرية . وأما الغرض منه فهو كما أجاد في وصفه باسيل كينغ حيث قال ، أن الخوف هو إيقاظ القوة الغافلة في الحياة . وقد غرست فينا غريزة الخوف لتثير همتنا للكد والجد لأن الحياة لا تتجدد من غير طريق السعيَ والاجتهاد . ولكن الخوف الذي حولته أوهام الناس عن غايته الأصلية ، التي هي استنهاض الهمم إلى الجهاد في سبيل الحياة وجعلته وسيلة للشلل والخبل وفخاً لاصطياد السذج من الناس ، انما هو عين الضلال والزيغان عن جادة الحق المستقيمة .

وبعبارة أوضح ، انني أعتقد بأن العقاب عندما نلجأ إليه كوسيلة للتهذيب والاصلاح انما هو وهم وانخداع ، لكن الخوف والشعور بالخطر اذا نظر اليهما الانسان نظرة صحيحة ربما كانا في مقدمة ما يؤول إلى تقدمه وفلاحه .

ولا أستطيع أن أسلم البتة بأن غاية اللّه الأساسية من الوجود أن يحصل على الطاعة العمياء من مخلوقاته ، لأن غايته المثلى انما هي الرغبة في ان يساعد جميع مخلوقاته على التقدم والنمو المتواصلين .

الوهم

في أنّ التنازع ضروريٌ للرُقي

"ان الانسانية قد حصلت على عظمتها

بالتعاضد لا بالتنازع ."

ان تنازع البقاء والجهاد في سبيل الحياة والسعي في تذليل ما يقوم أمامنا من العقبات انما هي صفات واجبة ضرورية للحياة . هي ضرورية لتوليد الهمة التي لا تقوم قائمة للحياة بدونها .

ولكن الرأي القائل بأن التنازع ضروري بين الناس لأجل الحصول على الثروة والمحافظة على سلامة الحكومة ، انما هو مغالطة وسفسطة فارغة . لأن الحقيقة المجردة أن الجهاد في تذليل قوات الطبيعة ، القوات الهادمة والمخرّبة ، ضروري لاستخدام هذه القوات في ما يعود الى منفعة الانسان . وفي هذا الجهاد العظيم يجدر بالناس أن يتكاتفوا معاً ويعملوا بقلب واحد بعضهم مع بعض ، وليس بعضهم ضد بعض .

ففي انتاج المواد الغذائية وصنع الثياب وبناء المساكن وغيرها من الحاجات المادية في الحياة ، يستطيع الناس أن يحصلوا بالتعاضد على أضعاف ما يحصلون عليه منفردين يحاربون بعضهم بعضاً . وبهذا يقدرون أن ينتجوا ما يكفي لجميع الناس . وربما كان التنازع لازماً في الأفكار والمباديء ولكن العلماء يظهرون لنا ان هذا التنازع يمكن أن يتمّ بدون روح البغضاء . وعوضاً عن أن يكون للهدم يجب أن يكون للبناء .

بيد أننا قد ورثنا السفسطة القائلة بوجوب التنازع عن الأجيال الماضية . فأصبحت اليوم ممتزجة بكل دقيقة من دقائق أفكارنا . ولذلك يكاد يستحيل علينا

أن نفكر بامكانية الحصول على أي نوع من الراحة أو النجاح في حياتنا من غير أن نحارب بعضنا بعضاً .

فاذا رغبنا في تقييد العدالة في دعوى من الدعاوي فاننا لا نذهب الى قاض نزيه لا غرض له مع أحد الفريقين ونلتمس منه أن يفحص دعوانا بحكمته ونزاهته ليعطي الحق صاحبه . بل كل فريق منا يستأجر محامياً ويلقنه ما شاء من الأكاذيب وحينئذ ينزل المحاميان إلى ساحة الخصام فيتناقدان كأنهما ديكان في حومة الميدان . أما القاضي فلا يكون أكثر من حَكَم فيصل ، والجمهور الذي يحضر المحاكمة انما يأتون للتلذذ بمشاهدة المبارزة والنظر إلى المتخاصمين لكي يعرفوا على من ستدور الدوائر . والفوز يكون في الغالب للمحامي البليغ الغني بالألفاظ المزخرفة والعبارات المنمّقة .

وان تركنا الشريعة المدنية وجورها وجئنا الى الشرائع الدينية ومباحثاتها في قضاياها الخاصة لرأينا أن أول ما يستفز الهمم في كنيسة المثوديست مثلا في قرية من القرى انما هو مقاومة الكنيسة المعمدانية . وكل من يُعمل فكرته في الأسباب التي تدعو هذه الكنيسة إلى مقاومة تلك يرى انها أسباب بسيطة تافهة قلما تدعو إلى الخصام بين صغار أولاد الأزقة والشوارع .

وليست هذه بليتنا فحسبُ ، بل نحن لا نقدر أن نؤلف حكومتنا بأن ننتخب لوظائفها أفضل الرجال الذين يستحقون هذه المراكز عن أهلية وجدارة ، بل نحن نقسم البلاد الى حزبين وننفخ في كل منهما روح الحرب والبغضاء ليهدم الواحد في اليوم ما بناه الآخر في الأمس . ثم نهيء المعدات لمعركة ديوك جديدة نقوم بها في كل أربع سنوات لانتخاب رئيسنا الأعلى ورجال دولته .

أجل ، ان أمام الأمم عقبات جمة في سبيل التعاضد في أعمالهم . فهم يستسهلون العداء والمقاومة بعضهم لبعض . لأن الروح التي تنفخها كل أمة في أبنائها انما هي روح عجب وغطرسة وبغضاء . فالأمريكي يعتقد بأنه أفضل رجل في العالم ولذلك يمقُت الياباني والمكسيكي وينظر إليهما نظرته الى ألد أعدائه . وكل ذلك نتيجة فاسدة للنظام السائد في العالم المبني على أساس البغض

الممقوت لأنه يقنعك بسهولة لكي تبغض جارك وتحتقره ولا يقنعك لكي تحبه وتكرمه .

ولذلك ترى الحكام وذوى السيادة في جميع أنحاء المعمور يفرحون ويرقصون طرباً عندما تنخرط بلادهم في حرب من الحروب . فلا تشتعل نيران الحرب حتى تتحد الأمة كلها كتلة واحدة . لان أبناء العالم بعقولهم الصبيانية يحبون الحرب والخصام ، ولذلك لا يأتي السلام وتهمد نيران الحرب حتى يعودون ثانية إلى إثارة حرب جديدة أكثر ضرراً وأوفر خطراً من الحرب التي تقدمتها .

وفي هذا ما فيه من صادق الدليل على نقص فاضح في مدارك الأمم ونفسيتها وعلى أن الحالة التي بلغنا اليها في مدنيتنا الحاضرة لم ترتبق كثيراً عن الحالة الهمجية الأولى .

ورب معترض يقول ، ان التنازع على البقاء شريعة طبيعية ، وان الطبيعة انما تنتج أفضل أثمارها عن طريق الجهاد لبقاء الأنسب . ولمثل هذا المعترض نقول ، ان هذه الشريعة جميلة تنطبق على الكرنب (الملفوف) ، وعلى الكلاب والأفاعي والأسود . ولكنها قد امّحت ولم يبق لها من أثر منذ ظهر الانسان على مسرح التمدن وبدأ في تكوين أخلاقه .

أجل ، ان الانسانية قد بلغت إلى عظمتها الحاضرة بالتعاضد والتآلف وليس بالتنازع والخصام .

بيد اننا قد تعلمنا هذه الأمثولة ناقصة ولم نتعلمها كاملة بعد . وقد جربناها بطريقة ضيقة محدودة ، ولكننا ما برحنا عاجزين عن وضعها في حيز العمل بطريقة عمومية شاملة . فنحن نؤلف الأندية لاتحاد العمال لاننا وجدنا ان العمال يحصلون على نتيجة أوفر بتآلفهم وتعاضدهم مما بإنفرادهم وتزاحمهم . ورأينا أن نعقد الشركات في العالم التجاري لاننا وجدنا ان رأس المال المتحد يأتي بأثمار أوفر وأكثر من أثمار رأس المال المتفرق . ولذلك فان أكثر الثروات الحديثة قد حصل عليها أصحابها بحذقهم ومعرفتهم كيف يستثمرون أرض التعاضد الصالحة . فرُوكْفَلر وكارنجي ووُلْوُرْث وغيرهم من أمراء التجارة الحديثة

قد حصلوا على ثرواتهم ليس لانهم كانوا يحاربون واحدهم الآخر ، بل لانهم عرفوا كيف يقنعون غيرهم من الناس أن يشاركوهم في أعمالهم ، لأن النجاح العظيم هو في الغالب ثمرة من ثمار الاتحاد .

وان الحكمة البالغة الكائنة في هذه الحقيقة قد دفعت يسوع الى التعليم بوجوب الاخوّة في العالم ، لان الناس لا تستقيم حالهم وتسعد أحوالهم حتى يقفوا كلهم معاً جنباً إلى جنب ، وهذه هي النتيجة العملية الصالحة من وصية يسوع الآمرة بوجوب المحبة بين جميع الناس . ولا تأمرنا هذه الوصية بوجوب المحبة السقيمة الممتلئة من الشهوات الدنيئة ، بل هي توجب علينا أن نتجنب شريعة الذئاب ونتمسك بالشريعة اللائقة بنا كمخلوقات بشرية .

أما آراء الاشتراكيين وما يبذلونه من الجهود ويهرقونه من الدماء في سبيل تأييد مبادئهم وتحقيق رغباتهم الآيلة لتعزيز الانسانية فهي ثمرة صغيرة من ثمرات هذه العقيدة الآمرة بالتعاضد والمحبة .

ولكن قلّ أن يتحد الناس اليوم إلا في جامعات صغيرة في مثل كنيسة أو جمعية أو نادٍ أو شركة أو غير ذلك . ولذلك سيأتي يوم تنقشع فيه الغيوم المتلبدة أمام عيوننا فنبصر بعضنا بعضاً ونتحد كلنا معاً عاملين لما فيه خيرنا ومصلحتنا جميعاً . هذه بالحقيقة هي المحجة التي يسير اليها التطور الاجتماعي ، وانني لتعروني الدهشة كيف انه منذ الفي سنة قد استطاع هذا الفلاح الجليلي ان يدرك كنه هذه الشريعة العالمية ويفهم عظم نفعها لأبناء الانسان ويتلفظ بها أمامهم قبل ان حلمت بها الانسانية بقرون عديدة .

الوهم

في أن السعادة ميسور نوالها

"ليست السعادة ان تنال شيئاً
بل أن تكون شيئاً"

ان الرأي الغالب على أذهان الناس ان السعادة تتم في الحصول على شيء ما . ولكن السعادة الحقيقية ليست أن تنال شيئاً بل أن تكون شيئاً . وبعبارة أخرى ، ان السعادة ليست شيئاً بذاتها ، بل هي علاقة كائنة بين شيئين .

وقد عرّف كارلَيْل السعادة بقوله ، انها تشبه الكسر العادي فصورته هي القيمة التي لك ومخرجه هو القيمة التي تظن انها ستكون لك .

فالرجل الواهم يسعى الى تكثير قيمة كسره بضرب الصوْرة في ذاتها . والرجل الحكيم ينال ما يروم بقسمة المخرج على ذاته .

وقد حصر يسوع عقيدته الاساسية في تجديد أخلاق الناس وتغيير طبائعهم . ومن أقواله : « يجب أن تولدوا ثانية » ، وهو يعني بذلك اننا ننال سعادتنا الحقيقية اذا غيرنا طبائعنا وجددنا نفوسنا ، وكل سعادة غير هذه ننالها عن طريق تغيير مقتنياتنا أو تبديل المحيط الذي نعيش فيه انما هي سعادة وهمية كاذبة . وهذه العقيدة هي الأساس الذي بنى عليه يسوع وصيته التي حذرنا بها من وضع كنوزنا في الأرض الفاسدة . على أن أكثر الناس قلما يعبأون بغير حشد الثروة والسعي وراء الشهرة الكاذبة والحصول على المركز الأول في المحيط الذي يعيشون فيه . ولكن الرغبة الخفية الكائنة في كل انسان انما هي في ان يعمل أفضل ما تبلغ اليه حياته في هذا العالم ، أن يعيش عمره فرحاً ناعم البال ، حراً مكتفياً من كل خيرات الأرض . وأول ما يفرض عليه من الواجبات في سبيل تحقيق

هذه الرغبة السعيدة أن يطبق حياته على محيطه ليستطيع أن يعيش فيه

ويجب عليه ألا يؤجل عملا من أعمال حياته أو فرحاً من أفراحها . ولذلك يأمرنا يسوع ألا نضع كنوزنا في الأرض وألا نغرق في محبة المال والاعتماد عليه في جميع أمورنا . لأن المصيبة الكبرى في ذلك أنما هي تأجيل التمتع برغبات الحياة الحق . فيجدر بنا أن نكون سعداء كيفما تصرفنا في هذه الحياة ، لا أن نغمّ ذواتنا ونضني أجسادنا بالتعب والهم والشقاء رجاء أن نتمتع بالسعادة بعد مدة من الزمان . وأن أعظم الأغلاط التي يقع فيها أكثر الناس في فهم الغاية من رسالة يسوع انما هي العقيدة السائدة بينهم ان يسوع قد جاء الى العالم لكي يقرر أن الطريق المؤدية إلى الفضيلة الكاملة وعرة المسالك كثيرة الأشواك ، وان البلوغ الى القداسة الحقيقية يحتاج إلى قوة فائقة للطبيعة البشرية ، وان طريق الكمال الحقيقي غريبة عن طبائعنا بل هي مضادة لها على خط مستقيم .

ولكن يسوع قد أوضح بفمه الطاهر الغاية من رسالته وبشارته بقوله ، « لكي يكون فرحنا كاملاً فينا » . فقد جاء لكي يعلمنا كيف نكون سعداء ، وكيف يجدر بنا أن نجتاز شوطنا في جهاد حياتنا مستثمرين أفضل ما فيها من الأثمار . ولذلك فان الذين في قلوبهم نسمة من روحه اليوم ، الذين يقتفون آثاره بالعمل بتعاليمه ، انما أولئك الذين يبلغون الى الحياة الكاملة الغنية وكل من يتاح له التعرف الى الذين تتوقف سعادتهم على ثرواتهم أو مركزهم أو شهرتهم يعرف مقدار تقلقل أحوالهم واضطراب حياتهم . ولذلك فانني اعتقد بأن حكمة يسوع أوضح في هذه العقيدة وفي معرفته الحقيقية للطبيعة البشرية وحاجاتها منها في غيرهما من العقائد .

الوهم

في أن الخير فضيلة سلبية

" ليست المسيحية قوة مميتة بل هي قوة محيية ".

ان العالم ما برح منذ نشأته راسفاً تحت قيود الوهم في أن الخير فضيلة سلبية . غير اننا نرى في مثل المحاكمة الأخيرة ، ان الذين نالوا الثواب والمكافأة انما هم الذين فعلوا صلاحاً في حياتهم ، والذين حل بهم العقاب انما هم الذين لم يفعلوا شيئاً من الخير قط .

وهذا المبدأ تتمشى روحه في تعاليم يسوع من ألفها إلى يائها . فقد علم ان الفضيلة هي القوة والاحسان . وكانت المحبة حجر الزاوية في أساس صرح الآداب الذي شاده للانسانية - والمحبة قوة ايجابية لا سلبية .

على انك اذا سألت رجلا من الناس رأيه في من هو الرجل الفاضل في عقيدته ، لأجابك على الفور ، ان الرجل الفاضل هو الذي لا يفعل كذا ولا يفعل كذا الخ . هو الرجل الذي لا يكذب ، ولا يحلف ، ولا يخدع أحداً ، ولا يزني الخ .

واذكر اني سألت صديقاً لي مرة رأيه في من هو أفضل رجل عرفه في حياته ، فأجابني في الحال قائلاً ، « هو أبي »

فقلت ، « لماذا ؟ »

فأجاب قائلاً ، « لأن لسانه لم يعرف الكلام البذيء ،لم يخالف شريعة السبت المقدسة ، ولم يشرب مسكراً ، ولم يعرف طعم الدخان في حياته ، ولم تكن له علاقة دنيئة مع امرأة قط ، بل أنا واثق بأنه لم يخدع أحداً ، ولم يكذب على أحد في حياته »

فقلت له ، « ان هذا لوصف جميل جداً لما لم يفعله والدك وأنا لا أريد أن انتقص من كرامته . ولكن هل لك أن تخبرني شيئاً عما فعله في حياته ؟ »

أجل ، ان الكنائس ممتلئة من الزواجر والنواهي عن هذا وذاك من الأعمال وأفضل وصية يترنم رجال الدين بتكرارها انما هي ، « لا تفعل ... » ولاشك ان هذا النوع من التعليم خال من القوة ، وكثيراً ما يكون عديم الثمرة ، لأنه ما من انسان يستطيع ان يبني هيكلا من الأخلاق بالوصايا السلبية العقيمة .

ولكن يسوع قد هدم صرح الآداب القديم من أسس موسى فصاعداً ، وأعلن أن الشريعة كلها متضمنه في الآية « تحبُ الرب إلهك من كل قلبك ، وقريبك كنفسك » .

فاظهر بذلك انّ الفضيلة الحق انما هي قوة فعالة ، وخميرة نقية تخمر العجين كله .

أما ما يوجهه خصوم المسيحية من الاعتراضات على انها معمل لكل مستأنث خنث من الرجال ومدرسة للضعف والذلة والخنوع ، ومصدر للفضائل السلبية ، فأنما هي بالحقيقة اعتراضات على بعض فروع الكنيسة ولا تستطيع أن تتناول مؤسسها . لأن هذه الفروع كانت منذ نشأتها لا تترنم الا بكلمة ، « لا تفعل ... ،» ولكن يسوع قد قضى حياته وهو يقول ، « افعل ... »

والحقيقة المجردة توضح لكل ذي عينين ان دون الفضيلة مغامرات عظيمة. لأن على الراغب في الفضيلة ان يكون شجاعاً مقداماً صبوراً على المصائب متجلداً في احتمال النوائب .

وأما الراغب في الشر والرذيلة فلا يطلب منه واجب ما . ففي وسع كل انسان أن يكون شريراً . لأن كل ما يحتاج اليه الانسان لكي يسير الى الشيطان أن يجلس متكاسلاً ولا يعمل عملاً . وليس الشيطان في الحقيقة سوى الدناءة والفساد . لأن النبات إذا توقف عن النمو فانما يكون ذلك بداءة لموته واضمحلاله .

على أن أغرب الخطايا الوثنية التي اقترفها رجال الدين هي العقيدة التي أوجدوها ، وخلاصتها ان التقوى تقوم في الانفراد عن الناس والابتعاد عن العالم .

لأن التقوى الحقيقية كما أظهرها لنا يسوع بتعاليمه ومثاله انما تنحصر في الجهاد في سبيل الخير في هذا العالم ، وتعلمنا ان الانسان يكون صالحاً اذا حمل صليبه كل يوم ، ومشى بين الناس الاشرار من غير ان يعروه شبه خوف ، واحب الذين يحبونه والذين يبغضونه على السواء ، وأحسن إلى اخوته وأعدائه والذين يسيئون اليه من غير أن تتزعزع قوته أو تتلطخ فضيلته بأنانية أو كبرياء .

وما أتعس العالم بهذه العقيدة الهادمة التي ورثها وعلق قلبه بحبها ، العقيدة القائلة ان الرجل الفاضل يجب أن يكون ضعيفاً مستخنثاً جباناً . حتى لقد صارت كلمة مسيحي مرادفة لكلمة طاعة وخضوع ومسكنة . فقد صرخ المستبدون من رجال الكنيسة منذ أقدم الأزمنة بالناس قائلين ، « تعالوا الينا صاغرين ، واخضعوا لأوامرنا مرغمين » . ولكن هذا الخضوع الأعمى هو بالحقيقة نفس جوهر الخطيئة . لأنك اذا كنت لا تفعل الا ما يفعله جيرانك فانك انما تكون قائداً لذاتك إلى الشر .

لأن الانسان لا يستطيع أن يحمل في ذاته روح يسوع ما لم يثبت أساسات شخصيته ، ويخلص في الاصغاء إلى صوت ضميره ، ويتبع كل ما يعتقده حقاً وصواباً ، ويمشي في جميع أموره على الطريق الضيقة لأن الطريق الواسعة تؤدي إلى الهلاك .

فالمسيح قد أمر بالتجدد والتحويل ، ولكن الوثنية التي سرقت اسمه قد أمرت ولا تزال تأمر بالطاعة العمياء والخضوع بجهل وغباوة .

الوهم في منفعة القوة

"الذين يأخذون بالسيف بالسيف يؤخذون"

ان الايمان بالقوة المادية شريعة من شرائع العالم الأولية وقد أظهر يسوع خطأ هذه العقيدة وأوضح لنا أن القوة الحقيقية كائنة في الروح ومستقرة في المبادىء والأفكار الروحية .

وقد بنى العالم ايمانه على الاولية القائلة ، « ان اللّه في جانب الكتيبة القوية » فاحتفظ بايمانه هذا على ممر الأجيال وتمسك به بمنتهى التشبث والتعصب . ولكن التاريخ قد برهن المرة بعد المرة ان هذا الايمان كاذب شرير . فاننا نرى في جميع أدوار التاريخ التي وصلت الينا أخبارها ان الممالك القديمة كانت مشتغلة أبداً بالاستعداد للحرب بعضها ضد بعض ظنا منها ان في ذلك خلاصها وراحتها . ولكنها قد زالت وانقرضت بأسرها ولم يبق منها واحدة قط . فقد اعتمدت كل من مصر وبابل وأشور واليونان ورومية وسائر ممالك العالم القديم على جيوشها لأجل سعادتها وطمأنينتها . ولكن كل واحدة منهن تحطمت قواتها في دورها .

ولايزال هذا النظام سائداً حتى اليوم . ولنا منه مثال في سقوط الامبراطوريتين العظيمتين الروسية والالمانية .

ومع كل ذلك فاننا نرى الامم الحديثة لاتزال واضعة ثقتها في جنودها وقواتها المادية . وفي البلاد المسيحية نفسها لا نرى أمة واحدة على الأقل تسلم قيادة أمورها لحكمة يسوع . بل جميعهم يعتمدون على كلمة مكيافيلي .

بيد أن خمسة آلاف سنة من حوادث التاريخ المدونة أمامنا تبرهن أن « الذين يأخذون بالسيف بالسيف يؤخذون ».

أما الأمة الوحيدة التي عاشت مع جميع القرون ، أقدم أمة في العالم اليوم ، الأمة التي حافظت على مدنية واحدة في جميع العصور ، فهي الأمة الصينية . لأن الصين لم يكن لها جيش احتياطي قط في جميع أدوار التاريخ حتى اضطرتها الأمم الأخرى إلى ذلك منذ ستين أو سبعين سنة .

والغريب في كل هذا ان الذين ينظرون هذه الحقيقة ويصرحون بها يسمون خياليين وينظر اليهم باحتقار كمأخوذين بمحبة السلام يبنون قصورهم في الهواء ، معالجين العبث في جميع أقوالهم وأفعالهم . وأما الذين يثابرون على الوقوع في الخطأ ذاته الذي وقع فيه الألوف والملايين من قبلهم ، الخطأ الذي اظهرت الأجيال نتائجه الوخيمة فانما ينظر اليهم كرجال عمل حكماء .

وذلك يعني ان جميع المقعدين والمرضى في العالم يعتبرون ذوى عواطف سامية يسابقون الغزلان في سيرها ، وجميع المواطنين الأصحاء والنافعين يُرفضون وينبذون كرجال ضعفاء مستأنثين . على اننا نرى مثل هذه العقيدة الملتوية بين ذوى العقول السقيمة المرتخية مفاصلها في شأن فلسفة النشوء والارتقاء القاضية بتنازع البقاء وبقاء الأنسب ، فهم يدعون ان بقاء الأنسب يعني بقاء الأشد قوة وشراسة . ولكن الحقيقة المجردة ترفض كل عقيدة كاذبة كهذه .

وبهذه المناسبة أورد هذه القصة كمثل في الموضوع :

زرت من بضع سنوات مدينة لوس انجيلوس بكاليفورنيا وقضيت فيها فصل الشتاء وقد كنت شديد التعلق بملاحظة ما كان يجريه العلماء فيها من الحفر في طبقات الحُمَر . وقد وجدوا فيها عظام حيوانات كثيرة عاشت قبل العهد التاريخي فان هذه الحيوانات غرقت في الحُمَّر وهي آتية لتشرب من برك الماء التي فيه وحفظت الأرض عظامها على ممر ألوف السنين .

وقد جمع العلماء من العظام المتفرقة هيكلاً عظيماً لحيوان أطلقوا عليه اسم تيرانوسُورس Tyrannosaurus وقرروا بعد الدرس الدقيق انه كان وحشاً هائلاً لأن طوله بلغ أربعين قدماً وعلوه ثمانية عشر قدماً . وانه كان يلتف بجلد لا تنفذ فيه قوة ، وانه كان شرساً كاسراً ضارياً . وكان يفترس كل حيوان يمرُّ به ،

ويلتهم كل مخلوق حي يستطيع أن يقبض عليه .

ولكن الوجود قد تخلص من هذا الوحش الهائل . فاذا كان بقاء الأنسب يعني بقاء الأشد همجية وشراسة فكان يجب أن يكون العالم اليوم ممتلئاً بنسل هذا الحيوان الغريب . ولكن هذا الحيوان قد انقرض من الوجود مع كل قوته وشراسته ولم يعرف العالم شيئاً عنه حتى أقامه العلم من فراشه الأبدي في طبقات الأرض . ولكن الخرفان والثيران والأرانب والسناجب لا تزال حية تتمتع معنا بنور الشمس . وهكذا قد أيدت المعرفة بشهادتها الحقيقية القائلة ، « ان الودعاء سيرثون الأرض . »

ومن نصف قرن كانت القرى والمزارع في الجهات الغربية من الولايات المتحدة مأهولة بنوع من الناس كانوا يسمونهم الرجال الأشرار . وكان الواحد منهم شيطاناً جريئاً بجسم انسان ، محتالاً مكاراً لا يهاب الموت ، وفاجراً خليعاً لا يهمه سوى أن يملأ بطنه من المسكرات ويعمل على القتل والسلب والنهب . وكان جميع الناس يخافونه ويرتعدون من رؤيته . لأنه كان أوفر المخلوقات الحية شراسة في تلك الجهات . فلو كان بقاء الأنسب يعني بقاء الأشد شراسة وقوة لكانت القرى والمدن التي في غرب الولايات المتحدة ممتلئة بهذا النوع من الرجال الأشرار ، بل لما كان يقطن فيها غيرهم ، ولكن الزائر في هذه المدن الغربية اليوم يجد أن فيها أرقى وألطف شعوب الأرض . فهم يلبسون الأقمصة الحريرية النظيفة، ويديرون بيوت التجارة الكبيرة ، ولهم الكنائس الشاهقة العظيمة . وأما جنس الرجل الشرير فقد انقرض ولم يبق منه سوى نفر قليل يجدهم السائح حوالي مدينة لوس انجيلوس حيث تؤخذ رسومهم لتمثل بهم الحياة الاميركية الاوروبية في الصور المتحركة .

ولذلك فان الحقيقة الناصعة التي لا ينكرها عاقل تقضي بأن الاعتماد على القوة الجسدية يؤدي الى الخراب والاضمحلال . بسواء في ذلك الفرد ، والأمة والعالم بأسره .

وقد قام في العالم منذ ألفي سنة معلم عظيم أبصر هذه الحقيقة وتجاسر

على التصريح بها ، واليوم بعد أن هزأ بها حكماء العالم قروناً عديدة قد اهتدينا الى أن ما صرح به ذلك الناصري انما كان الحقيقة بعينها :

الوهم

في أن العقل أساس الآداب

« إن يسوع قد بنى الآداب على أساس
الغرائز، وعلى أقوى الغرائز – المحبة »

ومن الأوهام السائدة في العالم الوهم في أن العقل والمصلحة المادية هما أساس للآداب الانسانية . فان أكثر أبناء الانسان يعتقدون بأنهم يستطيعون أن يقنعوا ذواتهم بقوة عقولهم على أن يصيروا فضلاء . أو أن في استطاعتهم أن يصيروا فضلاء طمعاً في الحصول على منفعة لانفسهم .

ولكن هذه عقيدة سقيمة . لانها منذ ظهرت لم تأت بثمرة قط وكل فضيلة ينالها الانسان على هذا المنوال ملفقة مصنعة .

وقد بنى يسوع صرح الآداب على أسس الغرائز ، وجعل حجر الزاوية في بنيان الفضيلة أمتن غريزة في الانسان – غريزة المحبة .

فاظهر بهذا عمق حكمته وغزارتها ، لان كل ما في الانسان من قوة ونشاط انما هو مستمد من غرائزه ، وكل ما يستطيع العقل عمله ينحصر في تنظيم هذه الغرائز واستثمار منافعها .

أما المحبة فهي آخر ثمرة من ثمار التطورات الاجتماعية لان الحياة كانت على ممر الألوف بل الملايين من السنين تتأهب على الأرض لقبول عاطفة المحبة . فكان الجنس أولا مقدمة للمحبة . ففي بداءة الزمان انتقل التوليد في الحياة الحيوانية من أدنى مظاهره الى العاطفة الجنسية . وهذه العاطفة قد ميزت جميع الطبقات من الأحياء بعضها عن بعض .

ومع اننا لا نستطيع أن نسمي هذا الميل الجنسي محبة كما نفهم المحبة

اليوم ، فانه أساس للمحبة ، بل أصل للتربة الصالحة التي نبتت فيها هذه الزنبقة العطرة .

وقد تطورت هذه العاطفة في الانسان على ممر الأزمان إلى ما هو أسمى من الشهوة البسيطة ، وتحولت إلى عاطفة التضحية والعبادة . وما لبثت أن أثمرت للعالم أجمل ثمرة من ثمرات القوة فيه ، وهي ثمرة القوة المعروفة بالمحبة .

وكلنا ندرك كنه هذه القوة عندما نقول ، « الله محبة هو » . وقد وضع يسوع هذه القوة أساساً لجميع الفضائل والآداب عندما قضى على العقوبات والمكافأة التي قررها موسى وعوض عنها بالمبدأ الواحد ، مبدأ المحبة .

وقد كانت خلاصة عظته للعالم في هذا الموضوع ما معناه ، « يا أبناء الانسان ، انكم تهتمون وتضطربون في أشياء كثيرة وانما الحاجة إلى واحد ، فاذا أحببتم محبة كاملة فانكم لا تحتاجون إلى الاهتمام بشيء آخر البتة .»

غير أن العالم لم يدرك بعد معنى هذه الوصية الجريئة التي تقلب الوجود ظهراً لبطن . لأننا حتى الساعة لا نثق بالمحبة ، وحتى الساعة نعتقد بأن خطرها وضررها أعظم من منفعتها وخيرها .

بيد أن المحبة هي القوة الوحيدة العاملة على خير نفوسنا وسعادتها . وهي البخار الوحيد الملائم لحركة القاطرة البشرية .

أجل ، ان المحبة أساس العائلة الوحيد ، فلا مراعاة المصالح والمنافع ، ولا الخوف من العقاب أو الطمع في الثواب ، ولا الأنانية والرهبة والاعتبار ، كلا ولا غير ذلك من قوات العالم يستطيع أن يكون له جزء مما للمحبة البسيطة الساذجة من التأثير في تكوين سعادة العائلة . لأنه متى أخلص الزوج والزوجة في حبهما أحدهما للآخر ، ومتى أحب الآباء أولادهم والأولاد وآبائهم ، فان المشاكل التي لا تحلها قوة في العالم ، التي تزعج سعادة العائلة تسقط مفككة الأوصال أمام قوة المحبة .

وربما يستغرب القارىء إذا قلنا إن المحبة هي الدعامة الوحيدة التي تستطيع الصناعة والتجارة أن تعتمدا عليها . فان جميع الجهود التي يبذلها

المتخصصون في الاقتصاد السياسي ليوازنوا بين الربح والخسارة ولكي يجعلوا محبة الربح الباعث الوحيد للعمل ، انما تكون نهايتها التشويش والاضطراب . لان القاعدة الغالبة في العمل أن النجاح حليف دائم للذين يحبون عملهم ويحبون العاملين معهم ، ويحبون العالم من رجال الأعمال ، جاعلين غرضهم الأساسي خدمة العالم وتسهيل وسائل الراحة لجميع الناس . وقلما تظهر هذه المحبة كغيرها ولكنها كائنة عاملة كغيرها من أنواع المحبة .

وان المصيبة الكبرى بين العمل ورأس المال انهما لا يحبان واحدهما الآخر . فمتى قلّت ثقة الناس بعضهم ببعض وابغضوا بعضهم بعضاً فان النتيجة ولاشك شقاق وانقسام وخراب . ولن تبطل الخصومات والاعتصابات والاضراب عن العمل في العالم حتى تشرق أنوار المحبة في دور الصناعة فيحب العمال جميع أرباب الأموال ويحب أرباب الأموال جميع عمالهم على السواء .

وليس هذا درساً من دروس مدارس الأحد البسيطة ، كلا ، ولا هو فكر خيالي لا حقيقة دونه : بل هو دستور الحياة في جميع فروعها . لأن بواسطته نستطيع أن ننال راحتنا ، ونحظي بالتقدم المنشود ، ونحصل على الثروة الضرورية لنا ، ونبلغ إلى محجة الرقي والقناعة .

والمحبة هي الاساس الوحيد لادارة الممالك والحكومات . فهي القوة الوحيدة التي تستطيع أن تحول دون الحروب وتستأصل جرثومة الشر والخراب الناتجين عن الحرب .

وفيما نحن نُسطر هذه السطور نرى الاضطراب سائداً في المانيا وفرنسا والفريقان يكابدان آلاماً مريرة وخسائر فادحة . ولهذا الخلاف بين هاتين الأمتين أسباب عديدة ، ولكن أهم هذه الأسباب ان كل واحدة منهما تبغض جارتها فقد نشرت كل منهما تذييع (بروبغندا) البغض المريع ضد جارتها في أثناء الحرب وما برحت آثار هذا البغض فعالة في القلوب حتى اليوم . لأن البغض حيثما يحلُّ معه جحيم الشقاق والشر . ولذلك فان فرنسا وألمانيا في أشد الحاجة إلى زعماء حقيقيين يستطيعون أن يعلموا سكان البلاد كيف يحترمون ويحبون بعضهم

بعضاً . ولكن الأفكار في الأمتين لا تزال صبيانية ولذلك فان أمثال هؤلاء الزعماء بعيدون عنهما ولذلك فهما تحصدان ما تزرعان .

والمحبة لا تعرف الشراهة . فاننا لا نستطيع أن ننال من المحبة أكثر من حاجتنا كما اننا لا نستطيع أن ننال من الصحة أكثر مما نحن في حاجة إليه . وعندما نسمع الناس يقولون ان فلاناً يحب كثيراً جداً فانما هم لا يفهمون ما يقولون . لأن في وسع الانسان أن يفرط في شهواته ، وأن يبالغ في طيشه وغروره وغيرته وحسده وكبريائه . ولكنه لا يستطيع أن ينال من المحبة أكثر من قسطه .

وكثيراً ما نسمع ونقرأ عن خطايا المحبة . ولكن هذه الخطايا التي أوجدتها أوهام الناس لا حقيقة لها البتة . فانه ما من رجل قط أغوى امرأة لأنه أحبها كثيراً كما يقول الناس . ولكن ما قاده إلى اغوائها انما هو ان محبته لها لم تكن كاملة . لأن من يحب امرأة لا يقودها إلى السوء .

أجل ، ان جميع الجرائم التي نشاهدها منتشرة في العالم انما هي نتيجة النقصان والاعتلال في جسم المحبة .

على ان القليلين من الناس يستطيعون أن يبلغوا إلى قنة هذا الكمال في المحبة . وقد كان يسوع أول هؤلاء القليلين وقد قال مرة في المرأة الخاطية ، « أن خطاياها الكثيرة قد غفرت لها ، لأنها أحبت كثيراً . والذي يُغفر له قليل يحب قليلاً . »

وقد أوضح ان الطريقة الوحيدة للتسلط على الأعداء إنما هي كائنة في محبتنا لهم ، لانه كما ان البغض يثير في الانسان الرغبة في المقاومة ، هكذا المحبة تقتل فيه كل رغبة في الشر .

وفي المحبة قوة فعالة تستطيع أن تعضد جميع الغرائز الأخرى وتقودها في اعمالها ، وحيثما حلت المحبة الحقيقية ، فهناك تتوحد جميع رغبات الجسد والفكر وتسير كلها في موكب واحد .

والمحبة هي الطريق الوحيدة المؤدية إلى العظمة . بل هي السلم الواحدة التي بواسطتها تستطيع الطبيعة البشرية ان تسمو متعالية إلى الالوهية . على

ان تصريح يسوع بأن جميع الآداب مبنية على أساس المحبة إنما هو موافق لفكرة النشوء والارتقاء . موافق لنصوص الفلسفة النفسية . موافق للشعور الانساني ولاختبار جميع أبناء الأحياء .

وإنني لا أستطيع أن أجد في أي معلم من معلمي الانسانية معرفة بعيدة القعر مثل هذه المعرفة .

وما أجمل الآيات الخالدة التي نطق بها فيلسوف المسيحية في وصف المحبة قائلا :

« لو كنت أنطق بألسنة الناس والملائكة . ولم تكن في المحبة . فإنما أنا نحاسٌ يطنّ أو صنجٌ يرنّ . ولو كانت لي النبوة ، وكنت أعلم جميع الاسرار والعلم كله ، ولو كان لي الايمان كله ، حتى أنقل الجبال ولم تكن في المحبة فلستُ بشيء . ولو بذلتُ جميع أموالي لإطعام المساكين . واسلمت جسدي لأحرق ، ولو لم تكن فيّ المحبة فلا أنتفع شيئاً . المحبة تتأنّى وترفُق . المحبة لا تحسد ، ولا تتباهى ، ولا تنتفخ ، ولا تأتي قباحةً ، ولا تلتمس ما هو لها ، ولا تحتدُّ ، ولا تظن السوء ، ولا تفرح بالظلم بل تفرح بالحق ، وتحتمل كل شيء ، وتصدق كل شيء ، وترجو كل شيء ، وتصبر على كل شيء . المحبة لا تسقط أبداً . أما النبوات فستُبطل ، والألسنة تزول ، والعلم يبطل . فانا نعلم علماً ناقصاً ، ونتنبأ تنبؤاً ناقصاً فمتى جاء الكامل يُبطل الناقص ، اني لما كنت طفلاً كنتُ انطق كالطفل وأعقل كالطفل وأفكر كالطفل . فلما صرتُ رجلا ابطلت ما هو للطفل . لاننا الآن ننظر في مرآة على سبيل اللغز . أما حينئذ فوجهاً إلى وجه . إني أعلم الآن علماً ناقصاً . أما حينئذ فسأعلم كما عُلمت . والذي يثبت الآن هو الإيمان والرجاء والمحبة . هذه الثلاثة وأعظمهن المحبة » .

الوهم في السلامة

"ابن بيتك في جانب بركان"

نيتشي

أكثر الناس يعتقدون بأن المسيحية انما جاءت إلى العالم لكي تؤكد لنا خلاصنا من خطايانا ، أو بعبارة أخرى لكي تحافظ على سلامتنا .

وهذا الاعتقاد هو نتيجة للفرض بأن الرغبة في السلامة هي أعظم رغبات الجنس البشري . وكل هذا الفرض ليس بالحقيقة سوى محض وهم وانخداع . لانه لا ينشد السلامة سوى ذوى العقول الدنيئة من الجبناء وأما ذوو العقول الصحيحة والأجسام الصحيحة فهم يرغبون في أن يعيشوا في هذا العالم ممتلئين من الهمة والجراءة والحياة .

وليس في استطاعة انسان أن يعيش في هذا العالم حياة تستحق الاعتبار بدون خطر ومغامرة . فالخطر هو أعظم الأصدقاء المخلصين في محبة النفس .

بل انما الخطر والحياة شقيقتان توأمان لا تفارق واحدتهما الأخرى قيد شعرة . لأن كل كائن حي هو تحت الخطر سحابة حياته ، وما من شيء مستريح في الحياة رافل في أمن وسلامة سوى الأموات والكائنات الغير الحية . لأن الحياة نفسها قوة تجاهد أبداً ضد القوات المعادية لها وتبذل كل ما فيها من العزم للتغلب على هذه القوات التي تريد أن تفترسها . ولولا هذه القوات المعادية للحياة لما كان للحياة من غاية تسير اليها أو عمل تقوم به .

على أن الرأي الغالب في العالم القائل بالذهاب إلى جنان نتمتع فيها بالسلامة والنجاة من جميع الأخطار قلما يؤثر في عقيدتي . لأنه إذا جردت الحياة من الميل إلى الخطأ وفعل الشر فان ذلك يؤدي إلى تخنيث النفس واضعافها .

لأن أعظم قوة عاملة على تهذيب الانسان هي ميله لفعل الشر إذ أي فضل للانسان الذي يفعل الخير لانه لا يقدر أن يفعل شراً البتة ؟

وقد عارض يسوع بأقواله وأعماله العقيدة المقررة في السعي وراء السلامة من الأخطار . فأوصانا أن لا نجمع الثروة ونخزنها في خزائننا على الأرض لكي نحافظ بها على سلامتنا من الفقر . وأمرنا ألا نهتم بالغد ، وأن نعيش مغامرين معرضين للأخطار وانه لمن الغريب أن نجد في تعاليم ألد أعداء يسوع - نيتشي - مثل هذا التعليم الجميل .

فقد كان الفيلسوف الألماني مجنونا بحكم جميع المؤرخين ولكن المجانين كثيراً ما يأتون بحِكَمْ قلما تبلغ إليها افهام الأصحاء العاقلين .

وكان نيتشي حكيماً بالغ الحكمة عندما طلب إلى الناس أن يعيشوا تحت الخطر بقوله . « ابن بيتك في جانب البركان » .

أجل ، ان ما نسميه بالسلامة والأمن من الأخطار وهم لا حقيقة دونه .

فانه لا فرق أينما وضعت أموالك في هذا المصرف أم في تلك الشركة الكبيرة ، فانك لن تستطيع أن تكون واثقاً بأن ما لك لن يتخذ له أجنحة ويطير إلى حيث لا يرجع .

وانك مهما بالغت في العناية بصحتك وأفرطت في الحمية والوقاية فانك لا تستطيع بتة أن تثق بأنك ستحيي إلى الغد .

لأنك حيثما وجدت الحياة تجد شقيقتها الوحيدة التي هي الخطر .

فان الناس الآمنين من الأخطار في مدينتك هم أولئك المتكئون في المقابر تحرسهم الحجارة الثقيلة الموضوعة على صدورهم .

لأن الحياة تشبه ركب الدراجة - فانك لا تستطيع أن تحافظ على سلامتك من السقوط متى ركبتها الا إذا واظبت على المسير . ولكنك متى وقفت وجب عليك أن تنزل عنها والا سقطت إلى الأرض .

فلماذا لا نتخذ هذه العقيدة شريعة مقررة في الطبيعة التي من الجنون أن نهزأ بها وبأحكامها ؟ فانها تنقذنا من خيباتنا العديدة .

لأن السعادة الحقيقية في الحياة انمّا هي السعادة التي تنالها في عملك يوماً فيوماً . وأما السعادة التي تحلم بأنك ستنالها يوماً ما في المستقبل البعيد فهي أشبه بالسحابة التي تبدو لك جميلة بهية عند غروب الشمس لأنها تكون بعيدة عنك ، واذا بلغت اليها اتضح لك انها ليست سوى ضبابة مظلمة قاتمة .

جميلٌ ان يكون لك في حياتك محجة تسير اليها ، ولكن يجب أن تعلم ان الفرح العظيم الذي تناله من هذه المحجة انما يأتي عن طريق سيرك اليها وليس من بلوغك اليها وقد قال روبرت لويس ستيفنسون ، ان البركة الحقيقية التي يتمتع بها المسافرون من الناس ، « ليست في الوصول بل في السفر . »

وفي الدين نفسه قد أسأنا فهم « الخلاص » ولم نعرف كيف نستثمره .

فقد خيل الينا ان بركة الحياة انما تتمُ لنا بالانفلات من الحياة الى حياة غيرها بعد القبر . ولكن بركة الحياة يجب أن تكون كائنة فيها . والخلاص ، عوضا عن أن يكون قوة تنقذنا من العالم يجب أن يكون قوة ترفع نفوسنا إلى أسمى درجات الكمال حيث نحيا حياة تفيض غبطة وبركة .

وقد قذف بنا الدهر إلى هذا الوجود لكي نعمل باليوم وليس بالمقاطعة . والدهر لا يدفع الأجرة لفعلته إلا يوماً فيوماً ولذلك لا نقبض أجرتنا عند انتهاء العمل المعين الذي نعمله ، بل ننال أجرة كل يوم بيومه ونحن مكبون على عملنا ، اللهم اذا قبلنا بها شاكرين .

ولذلك كان أوفر الناس سعادة أولئك الذين يأكلون المنّ الضروري لحياتهم كل يوم بيومه ، ولا يخزنونه في أهرائهم .

فكل ما يحتاج إليه الإنسان في حياته اليومية قليل من المحبة ، وقليل من العمل ، وقليل من اللعب ، وقليل من النوم . واذا قدرنا أن نصبغ هذا القليل بألوان قوس قزح الامل ، وأصباغ الخيال البعيد ، وتأملات الحكمة حينئذ نجد الحياة ذات قيمة عظيمة فنحيا بها .

فلِم الإنتظار ؟ و لِم التأجيل في الحياة ؟

فليس هذا بالوعظ السقيم الذي يجدر به أن يُطرح في زاوية النسيان من

في الإنسان ، بل هو الطريقة الوحيدة لاستثمار المبادىء النافعة في الحياة

وان الأرض التي نسير عليها جميعنا ليست قائمة على أعمدة صلدة ثابتة بل هي تدور كالفقاعة المتموجة في الفضاء .

والوجود بأسره متواز في دقة الشعرة ، ومامن شيء ثابت آمن فيه ، بل كل شيء في فيضان وغليان .

وأما الشيء الوحيد الثابت على حال واحدة فهو القوة العاملة على تغيير الكائنات من حال إلى حال . فان النمو هو شريعة الحياة الواحدة ، والذين يعرفون كيف يتمتعون بسعادة الحالة التي يكونون فيها في أدوار تطوراتهم هم الذين يأخذون من الحياة أفضل ما فيها . لذلك فليلعب الولد كولد ، وليترنم الشاب لقوته ، وليفرح الشيخ بمسرات شيخوخته المطمئنة . وليعش كل منا في هذا العالم ، كيفما وأينما وضعته الحياة ، فرحاً مغتبطاً ، وليؤمن بالحياة من أعماق قلبه ، وليحب الحياة حبه لربه .

واننا واثقون بأن أفضل تأكيد لدوام الوجود بعد الموت إنما يتمّ لنا اذا عرفنا كيف نعيش هذه المدة المعينة لنا قبل الموت كما ينبغي ويليق . ..

وشد ما يخطىء الذين يستعملون كلمة « خلاص » بمعنى الانقاذ من عذاب نار الجحيم بعد الموت . لأن هذه العقيدة ليست من المسيحية بشيء بل هي فكرة وثنية قديمة مأخوذة عن خرافات اليونان والمصريين وعقائدهم السرية في العالم الثاني .

فان يسوع إنما أراد أن يخلف في شيء واحد ، وهو التعاسة . وقد فعل ذلك بإعطائه ايانا من حكمته ما نستطيع به أن ندرك القوات التي تعمل على تعاستنا وشقائنا ونزيلها . وايضاحه لنا قوة المحبة . التي هي معين السعادة والطمأنينة بين الناس .

وبعبارة أخرى ، اننا كنا نستطيع أن ندرك حقيقة حياة يسوع ادراكاً أفضل وأكمل لو كنا فكرنا أنه قد جاء إلى العالم لكي يعطينا الفرح والسعادة لا الكآبة

فقد قال بفمه الطاهر : كلمتكم بهذا ليستقر فرحي فيكم ويكون فرحكم كاملا .

وفي موضع آخر نراه يسمي الروح القدس « بالمعزي » .

وان القوة الحقيقية المجددة التي كانت تعمل في قلوب المسيحيين الأولين ناشرة البشارة في جميع أنحاء العالم القديم انما هي قوة الفرح والطمأنينة . فكانوا بفرحهم وجراءتهم وثباتهم أمام أعدائهم ومضطهديهم وحياتهم الممتلئة من الرصانة والجمال يكللون بأكاليل النجاح في أعمالهم ، وبذلك جميعه حملوا العالم على اعتناق ديانتهم وغيروا طبائع الناس أجمعين .

أما زخارفهم ، واحتفالاتهم ، وعطاياهم ، وما حصلوا عليه من معاضدة الحكومات ، وما جمعوه من جنود الصليب المحاربين . وحيلهم وشعوذاتهم السرية ، واضطهاداتهم المتعددة المرعبة ، وخطباؤهم وعلماء الكلام فيهم ، ورجال المنطق والعلماء باسرهم - فقد كانوا للمسيحية كتخشيبة البنائين للبناية الجديدة وكعهد الايراق الذاهب للشجرة ، وكالجلية ، والبلبلة ، والنجارة والخشارة ، والنفاية ، وقرضات النار للمعمل العظيم .

لأن القوة العظيمة السامية ، القوة الصامتة العاملة في المسيحية انما كانت وما برحت ، وستبقى إلى الأبد كائنة في حكمة يسوع ومحبته ، وهي القوة الوحيدة التي بدلت مباديء الانسانية وسكبت من معينها النقي مياه القوة الحقيقية في قلوب أبناء الأرض .

الوهم

في تفوق الكسل على العمل

« إن جميع أمجاد الأرض مبنية على الكسل ،
ولكن يسوع قد علم بمجد العمل »

من غريب الأمور أن تغلب على فكر العالم العقيدة القائلة ، بأن الذين يشتغلون في العالم هم أحقر من الذين لا عمل لهم يعملونه . لأن جميع أمجاد الأرض قد قامت على الكسل والخمول . فقد كان جميع ملوكها واسيادها الاريستوقراطيين كسالى خاملين . ولاتزال هذه الفكرة سائدة في أوروبا اليوم . فان أكثر الأشراف والأغنياء ينظرون إلى العمل والاتجار نظرة كره واحتقار . وعندهم أن شرف الانسان يقاس ببعد المسافة بينه وبين الجد الأول من سلالة أسلافه الذي كان يحصل على خبزه بعرق وجهه .

وفي أكثر أنحاء العالم اليوم ضرب من الجنون المطبق . يعتقد أكثر الناس بأن الحقيقة بعينها . وخلاصته : أن جميع الأعمال في العالم يجب أن تقوم على أكتاف المساكين من أبناء الانسان الذين لا يعرفون كيف يهربون من العمل . وان الذين ليس لهم عمل يعملونه في الحياة بل يعيشون من أموالهم الموروثة عن غيرهم ، يجب أن ينظر اليهم العالم نظرته إلى أسياد جبلتهم تختلف عن جبلة الفقراء والعمال ، فهم أبناء الدم الأزرق ، ومنهم الحكام والأسياد . هذا هو الأساس الرث البالى الذي تبني عليه أكثر صروح المدنية الأوروبية الحديثة . وانني لا أذكره لكي أزعزع أركانه ، بل انما أشير اليه لكي أبسط لكل ذي عينين ضرره وشره، حتى اذا مررت به يوماً ما تستطيع أن تميزه لبشاعته وكراهة منظره .

وان أكثر الناس في جميع أنحاء العالم ينظرون إلى العمل نظرتهم إلى

مصيبة أو ضربة تحل بهم . فهو واجب لابد من قضائه والفراغ منه بسرعة لكي نستطيع بعدئذ أن نلعب ونستريح ونرقص فرحين بتخلصنا منه . لاننا نعتقد بأن العمل لعنة سكبتها الأزمنة على رؤوسنا .

ولكن يسوع قال ، « أبي حتى الآن يعمل ، وأنا أعمل » ، ومع انني لا أريد أن أكثر من الشواهد الكتابية في هذا الموضوع فأن في هذه الآية التي تفوه بها يسوع دليل كاف لنقض الرأي القائل بأن العمل لعنة من الله لآدم وحواء عندما طردهما من الفردوس .

على أن رأينا الناقص في العمل إنما هو نتيجة النقص في إدراكنا لكنه الحياة البشرية وجهلنا كيف وجدت ، وكيف تتم سعادتها وطمأنينتها .

ومما لا جدال فيه ، أن كل كائن حي من الانسان إلى أدنى أنواع الحيوان قد رتبت له الطبيعة عملا يتمه بفرح وسرور ، فللانسان ، كما للحيوان ، لذة فائقة في القيام الطبيعي برغبات غرائزه وشهياته ، لأن العالم قد شدت أوتار قيثارته على الفرح ، والفرح مالىء حياة جميع الأحياء وخصوصاً بالقيام بوظائفها فإذا تعلم كلب الصيد على الركض فانه لا تتم سعادته ما لم يركض وإذا تعود القرد الحياة بين الأشجار فانه لا يفرح ما لم يقفز من فرع إلى فرع ويعلق ذنبه ببعض الأغصان العالية . وبعبارة أخرى ، فان كل كائن حي ، إذا أراد أن يكون سعيداً ، يجب أن يتم العمل الذي رُسم له .

أما الانسان فقد أقيم في الأرض لكي يصلحها ويسير بها في معارج التقدم والفلاح ، ويحول الفوضى التي فيها لى نظام وسلام ، ويحصل على غذائه ومسكنه وكسائه من خيراتها ، ويُروض ما فيها من القوات الطبيعية ويخضعها لارادته ويضطرها فتترك له مكاناً كافياً لرياضة فكره .

وما السعداء في العالم سوى الذين يتاح لهم أن يقوموا بهذا الواجب المقدس حق القيام ، والقاعدة الغالبة في الأرض ان العمال هم السعداء القانعون بما قسم لهم . ولكن الأغنياء الكسالى الخاملين هم الذين يثيرون نيران الشر والاضطراب في العالم . ولم يرَ العالم أدباً أو فضيلة أو ديناً انتشر إلا بين العمال

الفقراء . فالمسيحية وجميع فروعها المتعددة قد بدأت بين طبقات العمال . وقلما نجد في صفحات التاريخ ان كبيراً أو وجيهاً من الواهمين في التفوق على غيرهم من أبناء الانسان قد اختلج قلبه بعاطفة خير أو فضيلة قط . فان السعادة ثمرة من ثمار العمل اليانعة . فالعامل العادي من الناس تتم سعادته إذا كان يشتغل ويحصل على خبزه الجوهري يوماً فيوماً . ولذلك علمنا يسوع ألا نضيع نفوسنا الخالدة في جمع المال وحشد الثروة الزائلة . ولا يعني ذلك ان الفقر لذيذ مرغوب فيه بذاته بل ان الكسل قتال يطعن صاحبه في كبد حياته .

وعندما قال يسوع ، انه اسهل على الجمل أن يدخل في ثقب الابرة من ان غنياً يدخل ملكوت السماء ، فانه لم يقصد ان الغني بذاته شر للانسان ، بل ان الانسان يكون غبياً جاهلاً إذا كان يعتقد بأن سعادته تتم له في مجرد الحصول على الغنى للتلذذ به في الكسل والخمول . لان الانسان الذي يقضي عمره في جمع المادة الميتة في الحياة يخسر التمتع بسعادة الحياة الحقيقية .

فالحياة السعيدة انما هي في العمل اليومي عن رضى وقناعة لاجل المعيشة الصالحة ، وإذا لم نتعلم كيف نكون سعداء في عملنا ، وكيف ننال سعادتنا الحقيقية من عملنا ، فاننا سنظل نتعثر بأذيال عبوديتنا للمادة خابطين خبط عشواء في دياجير الأوهام .

لأجل هذا أعلن يسوع ذاته لعامة الشعب ، وقضى حياته بين الفقراء الذين كانوا يشتغلون ليحصلوا على الخبز الجوهري لحياتهم . ولم يزعج ذاته قط للعمل مع الطبقات العليا الكسولة الخاملة . لأن غايته الوحيدة من تعاليمه إنما كانت منحصرة في أن يوضح للعالم كيف يكفون ذواتهم على ضروريات الوجود ، وكيف يعيشون حياة رضية ، جميلة ، قنوعة بما تحصل عليه يوماً بيومه . فلا أثر في تعاليمه لعقائد الطمع والجشع والعبادات السرية التي لا يمارسها بين الناس إلا كل خامل لكع .

وانه لمن عجيب الغرائب أن يحتقر العالم العمل الذي هو حياته . فقد شاهدت غير واحدة من صور الجحيم حيثما مُثل فيها مسكن الرجيم ممتلئاً من

مداخن المعامل ودواليب الآلات الصناعية العديدة . ولا أذكر إني رأيت في حياتي صورة من صور السماء تمثل ملاكاً أو قديساً له عمل يعمله سوى الكسل والبطالة . ولذلك فاني أعتقد بأن كل وجود ، سواء في هذه الحياة أم في الحياة الثانية ، لا تعمل فيه النفس عملاً صالحاً للمحيط الذي تعيش فيه ولا حياء قواها وانتعاشها انما هو وجود سمجٌ ممقوت .

أما رأيي في السماء فهو رأي صموئيل جُونسون . فانه فيما كان يتنزه في بستانه مع صديقه بوسوال ذات ليلة وهما يتأملان في السماوات المرصعة بالنجوم ، سأله بوسوال ، ماذا يعتقد بالحياة المستقبلة . فأجابه على الفور قائلاً ، ان الشرائع التي تسود علينا في هذه الحياة ستظل سائدة علينا في الحياة الثانية. ولذلك فانني أعتقد بأنه إذا كان لي أن أحيا حياة ثانية بعد هذه الأرض ، فانني لن أكون سعيداً هنالك ما لم يكن لي عمل موافق لطبيعتي أعمله مُذلّلاً العقبات التي تقوم في سبيلي وعاملاً على درس الشرائع وحلّ القضايا التي هنالك التي تستلذها الحياة البصيرة المفكرة . وبعبارة أخرى ، فانني لا أحب أن أذهب إلى السماء ما لم أجد لي عملاً فيها .

وقد قال روبرت لويس ستيفنسون في هذا الموضوع ما خلاصته : انه مع شدة اخلاصه في محبته لامرأته ، والمرارة الشديدة التي تتسبب له اذا خطفها الموت من بين يديه ، فانه مع ذلك يستطيع أن يتصور بامكانية الوجود والمثابرة على عمله بدونها . ولكنه لا يستطيع أن يفكر في أي نوع من دوام البقاء الذي يفصله عن عمله .

وخلاصة ما تقدم ان الناس وجدوا لكي يكونوا سعداء ، وفي عملهم . وان أفضل ضمان للمستقبل (سواءً كان هذا المستقبل غداً أم بعد الموت ، فهو محجوب عنا أبداً) انما هو في الحياة السعيدة ، الحياة الجريئة ، الحياة المدركة اليوم وعلى هذه الأرض .

الوهم

في منفعة الانفراد في العمل

"ان ملذات الحياة لا تركض ركضاً متوازياً
في طبقة واحدة من الناس ، – بل هي تركض
ركضاً عمودياً في جميع الطبقات ."

(حنة أدمس)

ومن الأوهام التي لطخت الفكر الانساني الوهم في ان الانفراد في العمل نافع ويجب التقيُّد برغباته .

ولذلك نرى البيوت التجارية تعلن بأحرف كبيرة أن لديها كمية كبيرة من الأحذية والأقمصة ، وأغطية الأسرّة وساعات اليد النادرة المثال . وهذا الاعلان كثيراً ما يؤثر على المؤمنين بأن كل شيء تعلو قيمته كلما قل عدد الذين يستعملونه مع ان حجَر الماس جميلٌ بذاته ، فان اللذة التي ينالها صاحبه لا تتوقف على جماله بل على ان الذين يستطيعون أن يقتنوه قليلون جداً بين الناس . والرجل الغني لا يبني قصره لمجرد محبته للجمال والراحة فحسبُ ، بل لكي يظهر انه يقطن في بيت قل بين الناس من يستطيع أن يبني مثله في المحيط الذي يعيش فيه . وفي المسارح العمومية نرى الناس يفضلون أن يجلسوا في المقاعد الخاصة الغالية الأثمان القائمة في جوانب المسارح فلا ينظرون إلا جانباً من دكة المسرح حيث يجرى التمثيل ولا يقعدون في صدر القاعة مع بقية الناس بحيث ينظرون كل شيء .

واننا نرى الرغبة في الانفراد في العمل والاثرة تتحكم في جميع طبقات الناس وفي سائر مراتب الحياة على السواء . فهنالك المُتَحَذْلِق في الآداب ، الذي

لا يقرأ سوى الكتب والمجلات القليلة الإنتشار الغالية الاثمان ، ويستلذ البذل في سبيلها لمجرد معرفته ان أكثر الناس لا يقدرون على الحصول عليها .

وهنالك المتنطّس في الدين الذي يفاخر متعجرفاً في ان طائفته تضمّ خيرة الناس وان الذين يفهمون مبادئها قليلون .

بل انّ أكثر الناس يعتقدون بأن التفوق انما هو الانزواء عن الناس والابتعاد عن عمل ما يقومون به من الاعمال .

وقد قالت حنة أدمس مرة ، « ان ملذات الحياة لا تركض ركضاً متوازياً في طبقة واحدة من الناس ، - بل هي تركض ركضاً عمودياً في جميع الطبقات . » وكإنما أرادت أن تقول ، « ان أفراح الحياة وملذاتها بسيطة وعامة لجميع طبقات الناس ، وهذه الملذات لا تنحصر في الأكل ، والشرب ، والحب واللعب فحسبُ ، بل هي قائمة في الملذات المتولدة عن الافتكار والتأمل ورياضة الروح البشرية .

وان أعظم ما في الروح المسيحية انها بعيدة عن هذه العقيدة ، لأن يسوع يدعو جميع الناس إلى ملكوته على السواء .

وكم في العالم من النُظُم والآراء والمبادىء والجمعيات المختصة بعضها بالبريطانيين ، وبعضها بالفرنسيين ، وبعضها بأبناء الكليات ، أو بهذه الطبقة أو تلك الجمعية من الناس ، ولكن ميزة انجيل يسوع التي ترفعه عن جميع نُظم العالم وشرائعه انما هي انه معدٌ لكل مخلوق انساني مولود من امرأة على الأرض.

فان الديانة التي علم بها يسوع هي ديانة عامة جامعة لسائر الأمم والشعوب والأجناس والألوان ، والطبقات والجمعيات ففيها لكل انسان يونانياً كان أم يهودياً ، أميريكياً أم صينياً ما هو في أشد الحاجة اليه للبلوغ الى سعادته وكمال حياته . ولذلك فهي المبدأ الوحيد في العالم الذي تستطيع أجزاء الانسانية المتباعدة المتفرقة أن تتخذه أساساً لوحدتها وتأليف جامعتها .

الوهم في أن الوثنية حرية

"قد بطلت الوثنية لأن العالم
سئمها ومل منها"

قد اعتاد ذوو العقول غير المختمرة بخمرة الروح المحيية الاعتقاد بأن لهم في الوثنية حرية لأنفسهم .

فان أمثال هؤلاء بحياتهم بين الجماعات المسيحية لم يستلفت أنظارهم بنوع خاص سوى الحدود والقيود التي أوجدتها الكنائس المختلفة لتقيد بها أبنائها .

وقد أقامت الكنائس هذه الحدود لأجل التعليم والتهذيب ، وهي نافعة في كل موقف من المواقف التي تدعو إلى التأدب والحضارة . غير انها في المحيط البعيد عن الحياة الروحية لا تولد سوى التمرد والعصيان .

على ان كل دين من الأديان المنظمة المرتبطة بوحدة في شرائعها كثيراً ما تولد قوانينه ونظمه انفجاراً في العقول الضيقة يقودها إلى الكفر والالحاد .

فهنالك الكافر الخارج عن الكنيسة وهو عدو لدود لروح التساهل في الكنيسة .

وهنالك فريق من عامة الناس الذين يفصلون ذواتهم عن الحياة الروحية لما يجدونه من الصعوبة في الدساتير الروحية وهم بشر مثلنا لهم ما لنا من الشهية الروحية التي هي غريزة انسانية عامة . ولأجل اشباع هذه الشهية الروحية يهيم البعض منهم على وجوههم في حقول الأديان العديدة ملتقطين من غرائبها ونوادرها ما يوافق طبائعهم ويلائم غرائزهم .

وهنالك فريق آخر من المعرضين عن الدين المتعمقين من درس آداب

الكلاسيك (١) السابقة للعهد المسيحي ، أولئك الذين خبروا اللذة الكائنة في التهذيب ، وهم يرتدّون بعيون متعطشة لا وراء ظمأ روحانيتهم من ينابيع الوثنية

وقد أحسن وُودْ وُرث بإيضاح هذه العاطفة بقوله :

« أيها الاله العظيم ! أود لو أكون وثنياً أرضع من حليب عقيدة رثة بالية .

« فيتاح لي ، وأنا واقف في غابة هذه الحياة الجميلة

« أن أمتع عيني بنظرات تقلل من يأسي وبؤسي

« فأرى بروتاوس (٢) ناهضاً من البحر

وأسمع الشيخ (٣) تريتون ينفخ في بوقه العظمى »

ولكن المصيبة الكبرى أن هذا الحنين الذي يدفع بهؤلاء الناشزين عن المسيحية إنما هو حنين مؤثر مفجع ، لأن الموضوع الذي يجذبون اليه لا يحتوي على أكثر مما في التفاحة الصناعية من الغذاء ، أو ما في الوردة المزورة من العطر .

لأن الوثنية لم تكن بالحقيقة سوى قوة وهمية عظيمة تأخذ بجميع مخاوف الإنسان . ولذلك قال الرومان ، « ان الخوف يصنع الالهة »

---

(١) يقصد بها آداب أهل العلم من اليونان والرومان واضعي أساس العلوم والفنون والذين يرجع اليهم في المشكلات . المعرب.

(٢) بروتاوس Proteos : هو أحد آلهة البحر ، وهو ابن أوقيانوس من ثاسيس امرأته ، أو على رأي بعض علماء الميثولوجيا ، هو ابن نبتون (بوسيدون) وفنيس . وقد نال موهبة النبوة من نبتون . ولكنه كثيراً ما كان يرفض أن يجيب الراغبين في استشارته عن أسئلتهم ويوقعهم في الحيرة بظهوره أمامهم بأشكال مختلفة - المعرب .

(٣) تريتون الشيخ Triton: هو أحد آلهة البحر أيضاً ، وهو ابن نبتون وأمفيتريت . وقد كان شديد القوة ، يهدىء حدة البحر وشدة العواصف كلما خطر له . وكان يعيش مع أبيه وأمه في قصر عظيم من الذهب الخالص قائم في قعر البحر . وقد ذكر الشعراء المتأخرون كلمة تريتون بصيغة الجمع وهم يعنون بها طائفة من الآلهة البحرية الصغيرة . أما المظاهر التي كانت تظهر بها فعديدة مختلفة ، ولكن الغالب في وصفها انها كانت تمثل الهيئة البشرية في القسم الأعلى من جسدها وكان القسم الأدنى من جسمها بشكل سمكة . وفي مقدمة ميزاتها

فعوضاً عن أن يخاف الانسان إلهاً واحداً كان القدماء يخافون الوفا من الالهة .

وإنما يتميز انتصار الايمان الحديث في نظره الى الالوهية نظرته الى صديق ودود ، والى جميع المخاوف التي لا تزال سائدة عليه حتى اليوم نظره الى ثياب رثة بالية قد ورثها عن الوثنية القديمة ولم يستطع بعد على تمزيقها وطرحها عنه .

فالوثنية كانت تعتقد بأن كل واحد من ألهتها سيد أوتوقراطي جبار ظلوم ، وقد كانت الهتها جيوشاً من رجال الشرطة السرية والجنود القساة .

فكان الانسان في ذلك العهد المظلم يعتقد بأن نحت كل شجرة من أشجار الاحراج الهاً مستوراً عن الانظار ، وان في كل عليقة الهاً ، وان في كل عاصفة رباً جباراً . فكانت الآلهة في كل مكان . وكان كلما مشى في حرج ، أو اقترب من عليقة يخاف أن يدوس على واحد من هذه الآلهة فيثور عليه ويقتله . وكان إذا جاء إلى الماء ليستحمّ يُخيل اليه أن هنالك الهاً سيقبض عليه ويخطف روحه .

ولكن الفكر الإنساني لا يستطيع أن يستقر في محيط ممتلىء من الخوف ، ولذلك لا يلبث أن يتغلب عليه أو يخلفه وراءه مع الزمان . لأنه ليس في الحياة أكثر ملالاً من الخوف .

وقد بطلت الوثنية لأن العالم قد سئمها ومل منها . وكما أنه يصعب بل يستحيل على الانسان البالغ الحكيم أن يسلم بصحة حكاية ألف ليلة وليلة هكذا يستحيل عليه أن يرتد عن عبادة الإله الواحد إلي الشرك والالحاد .

الوهم في تقسيم الناس إلى طبقات

ان يسوع هو أول ديمقراطي عظيم في العالم

"لا شك أن الله قد أحب عامة الناس ،

لأنه خلق كثيرين منهم ."

(ابراهيم لينكلن)

انني أعتقد بأن يسوع هو المؤسس الحقيقي للديموقراطية العملية . لأن الديموقراطية انما هي الثقة بالشعب ، الثقة بعامة الشعب قاطبة ، ولذلك تتميز عن غيرها من أنواع الحكومات التي تعلم بأن العامة من الناس يجب أن يكونوا عبيداً للخاصة ذات الأهلية للتهذيب والحكومة والمدنية .

وأعظم ميزات يسوع عن غيره من المصلحين انه حصر تعليمه بين العامة ولم تكن له علاقة قط بالعلماء ولا بالطبقات العليا من الحكام والأغنياء .

فقد قدم دعوته للعامة ، وكانت العامة تصغي إلى تعاليمه بفرح وسرور . وفي جميع أدوار حياته لم يفهم تعاليمه سوى العامة من الناس ، وجميع العقبات التي قامت في سبيل الانجيل كانت صادرة من الطبقات العليا في الشعب . بل إننا إذا أمعنا النظر في درس تاريخ الكنيسة المسيحية نرى كلما تقدمت في القوة والثروة وبالغت في العجب والكبرياء كانت تنحرف عن السراط المستقيم الذي رسمه لها يسوع وتنحدر في أزقة الوثنية القذرة . أما ملح الأرض الذي حفظ المسيحية من الفساد فانما هو الرجل العامي المسكين .

أجل إن يسوع خاطب الفقراء الودعاء الذين كان يمر بهم في الشوارع . وقد أودع رسالته عقولاً ساذجة من أصغر عقول أبناء العالم . ولذلك دعاه الأعيان في

زمانهم صديق العشارين والخطاة . والمبادىء السامية التي نشرتها بشارته في العالم هي القوة التي طالما قلبت عروش الاستبداد وقضت على امتيازات الطبقات العليا من البشر ، ومكنت الرجل المسكين أن ينهض من شقائه ويتمتع بحقوقه كأحد أبناء الانسانية .

على أن الديمقراطية الحقيقية لا تعني بتة المساواة بين الناس ، لأن الناس ، لم يخلقوا متساوين بل خلقت لكل منهم مواهبه وعطاياه ، وكل ما في الديمقراطية أنها تساوي بين ظروف الجميع . وانما أعني بذلك أن الديمقراطية تفسح المجال لكل انسان أن يكون له مركزه في السباق الانساني العام .

ففي الديمقراطية تفوّق لقوم على قوم ، ولكن إذا جاءت الديمقراطية الحقيقية فحينئذ يصبح التفوق ملكاً لأصحابه الجديرين به ولا يتوقف اذ ذاك على الطبقة أو العائلة أو أمثال ذلك من الامتيازات الكاذبة .

وقد كان يسوع ذا ثقة عظيمة وايمان ثابت في الشعب ويخيل اليّ أنه ليس من التعصب أن أقول ان الإيمان بالشعب والثقة بصلاحهم وحكمتهم ، ضروري للمسيحي كالايمان بحكمة اللّه وصلاحه .

لانه إذ كان اللّه حاضراً في كل مكان فهو لاشك حاضر في الشعب الذي خلقه . ولذلك لا نبعد عن الحقيقة اذا وضعنا الشعب في ذهننا عوضاً عن الكائن الأعلى عندما نردد الآية القائلة : « فمن يؤمن (به) يخلص ، ومن لم يؤمن (به) يُدن » لأن أكثر المصائب التي نزلت بالانسانية على ممر العصور انما كانت نتيجة لعدم الايمان بالشعب . ولذلك قد حلت بنا هذه الدينونة العظمى التي تبدو طلائعها في سائر أنحاء العالم .

ومن أغرب الغرائب أن يقلب الناس تعاليم المعلم الصالح ظهراً لبطن واهمين أنه من الصلاح والفضيلة أن يعتقد الانسان بأن العالم شرير وممتلىء من الشر وصائر إلى الهلاك بل كيف نستطيع أن نقبل مثل هذه العقيدة الفاسدة ونحن نقرأ كل يوم الآية : « هكذا أحب اللّه العالم حتى أنه بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به ؟ »

وهل أغرب من أن نفهم من هذه الكلمات أن اللّه لا يحب سوى بعض أفراد من العالم وهم أعضاء الكنيسة الفلانية دون سائر الأمم ؟ أجل ، ان هذه الآية تظهر بأتم وضوح ان اللّه يحب الانسانية قاطبة . فيحب عبيد أفريقيا كما يحب أسياد انكلترا ، ويحب البدو في الصحراء العربية كما يحب الملوك والحكام على عروشهم ، يحب الجميع على السواء .

فالحروب قائمة في العالم ، والخصومات سائدة في العراك الصناعي والمزاحمة التجارية ، والشقاق لا ينقطع من العائلات البشرية ، والفوضى ضاربة أطنابها في سائر أنحاء العالم ، - وكل ذلك لأننا حتى الآن لا نؤمن بعضنا ببعض . وان مصائبنا هذه ليست نتيجة لعدم ايماننا باللّه بل هي نتيجة لعدم ايماننا بالانسان . لأجل ذلك اذا سولت لك نفسك أن تفوقك في الحكمة والفضيلة يقودك إلى احتقار عامة الناس الذين يخيل إليك أنهم أحقر منك ، فكن على ثقة يا صاح بأنك لفي ضلال مبين .

غير ان العالم وقد مرت به اختبارات نحو ألفي سنة من التعليم الصالح لسعادته لا يزال يستغرب الايمان بالانسانية . فان انجيل المسيح يحمل للعالم بين دفتيه حقيقة أزلية ثابتة على ممر الدهور وهى ، ان عامة الشعب المؤلفة الأكثرية الساحقة من الرجال والنساء ، هي أوفر فضيلة وصلاحاً من أية طبقة من الطبقات الخاصة التي فصلت ذاتها من هذه الأكثرية ، بل هي أكثر حكمة من الذين يريدون أن يعلموها ويسودوا عليها ، وهي أكثر شعوراً من جميع الزعماء الذين يقودونها حيثما شاؤا وشاءت رغائبهم .

أجل ، بل أن الرأي الأساسي الذي أنشأ الكنيسة ، كجماعة من الناس تفصل ذاتها عن عامة العالم لتستقل بشؤونها الخاصة وتكون نائبة عن المسيح في جميع تصرفاتها ، انما هو رأي سخيف باطل . لأن هنالك جماعة واحدة تستطيع أن تدرك أعماق تعاليم يسوع المسيح وتعمل بها وتلك الجماعة هي العالم بأسره . لأن اللّه عز جلاله اذا نظر إلى العالم كمجموع واحد يستطيع أن يرى فيه صورته واضحة كما في مرآة نقية ، ولكن في تجزئة الوحدة الانسانية مهما سمت

أجزاؤها المنفصلة بعضها عن بعض لا تظهر صورة الحق سبحانه وتعالى إلاّ مقسمة مجزأة .

وخلاصة الدعوة المسيحية لكل منا أن يؤمن باخوته في الانسانية ويثق بهم ، ويحبهم ويساعدهم . ولكن أكثرنا يعتقد حتى الان بأن هذا لمن رابع المستحيلات . بل أن أكثر الناس ينظرون إلى الآية الآمرة بعدم المقاومة وبتقديم الخد الآخر لمن يصفع على الخد الأول ، نظرة سخرية واحتقار . ولكن قل من وقف منا برهة يفكر في الشريعة التي تحلل لنا المقاومة ليرى نتائجها في حياتنا . فاننا ما برحنا منذ ألوف السنين نحارب ونبغض ونعاقب وننهش بعضنا بعضاً ، فماذا كانت النتيجة ؟ فقد بنينا لذواتنا نظاماً اقتصادياً هائلا للاثرة والانانية ، وألفنا جامعة انسانية ومدنية تئن تحت أثقال التعاسة والشقاء وهي لا تجد راحة لذاتها في كل مقتنياتها وقد سعى كل منا إلى سعادته خارج ذاته فكان بذلك أشبه بمن يحفر قبره بيده ، وكل ذلك لأننا تمردنا على تعاليم الناصري الصالح .

ورب قائل يقول ، ان المسيحية قد كانت في جميع أطوارها خيبة وفشلاً لأصحابها ، ولكن لمثل هذا نقول مع المستر تشاسترتون ، ان المسيحية لم تُوضَع مبادئها في بوتقة الاختبار بعد ليجرأ أحد على الحكم عليها . ولكن إذا كان العالم بأسره ، أو أي قسم من أقسامه ، يجرِّب ممارسة تعاليم يسوع المسيح ومبادئه فحينئذ يحق لهم ان يحكموا عليها من نتائجها ، ولكن طالما نحن نحصر مسيحيتنا بانشاد الترانيم ، وتلاوة الصلوات ، وتطبيق طقوسنا وتقاليدنا على طقوس الوثنيين وتقاليدهم في عبادتهم فانه لا يحق لنا البتة أن نحكم على المبادىء المسيحية .

أجل ، ان يسوع هو مخلص العالم لأنه هو مؤسس الديموقراطية الحقيقية . لان الديموقراطية وحدها التي تعلّم الناس الايمان الصحيح بعامة الشعب والثقة بهم ستخلِّص العالم من شقائه ، وتنهض به إلى أوج السعادة والمجد .

أنا مسيحي

لأنني أجد في المسيحية أفضل الآمال في الخلود

"ان يسوع لم يعمل على اثبات صحة
الخلود ، بل آمن به كحقيقة ثابتة راسخة"

ان أصدق البينات على وجود الحياة بعد القبر هو في عقيدتي كائن في غرائزنا . فان في الانسان كرهاً فطرياً لأية عقيدة أو رأي يريد أن يقنعه بأنه يموت كما يموت الكلب أو الحمار . وفي كل أمة وكل نوع من الناس ايمان عميق بان الأموات سيحيون في عالم آخر . ومع اننا قاصرو المعرفة في أمر الحياة بعد الموت فان الايمان بها يظل ثابتاً في قلوبنا وان جهلنا حقيقتها . فان الناس في هذا العصر يذهبون مع أمواتهم إلى القبور كما ذهب الملايين من قبلهم في جمع الدهور ، والآمال تملأ قلوبهم في أن هذا القبر لن يكون فاصلاً أبدياً لأحبائهم .

فالخالق سبحانه وتعالى يستحيل في مذهبي أن يكون مع حكمته الالهية قد خلق هذا الانسان وزينه بالعقل والحكمة لكي يقذف به بعد سنين معدودة في ظلمة الأرض طعاماً للدود والحشرات .

انني لا أعرف أن هنالك حياة ثانية في المستقبل ، لأن هذه المعرفة فوق ما يبلغ إليه ادراكي ، ولكنني أؤمن بها من أعماق قلبي ، وإنما أعني بهذا الإيمان انني اتصرف في هذه الحياة « كما لو » كان هنالك حياة ثانية بالحقيقة . وقد وجدت بالاختبار انني عندما أضع هذا الايمان نصب عيني في سائر أنواع تصرفاتي يعود ذلك عليّ وعلى العالم الذي أعيش فيه بخير النتائج ، لأنه يهذب سيرتي ويقودني في مناهج الخير والفضيلة أبداً . وأما الذين يفكرون ويعملون

« كما لو » كانت هذه الحياة كل ما في الوجود فانما يؤلفون الأكثرية المطلقة من الفاسدين الزائغين عن طريق الحق الذين لا أود أن تكون لي أية شركة معهم . وبعبارة وجيزة أقول ، ان الايمان بالخلود فعال في حياة العالم ومنتج لثمار الفضيلة والصلاح الكامل ، وان عدم الايمان بالخلود يدهور الحياة إلى أدنى درجات الظلمة .

فأنا مسيحي لأنني أعتقد بأن كل من يعمل بتعاليم المسيح تثمر فيه مبادئه ثماراً شهية تجعل حياته خالدة . والحياة الخالدة التي أشار اليها يسوع في تعاليمه هي في عقيدتي متوقفة على نوع الحياة لا على مدة بقائها .

أما ثمار الأخلاق التي تأتي بها المبادىء المسيحية في حياة الانسان ، فانها خالدة باقية ترمي إلى غاية بعيدة ، لا تتفق مع هذه الحياة الترابية المحدودة . لانه إذا كانت هذه الحياة كل شيء ، فانه يصعب علينا ان ندرك ما هي الأسباب التي تدفع الجندي إلى التضحية بذاته لأجل بلاده ، وتحمل الام على تضحية ذاتها فداء عن ابنها ، وترغم كل إنسان ان يحتمل الاهانة والشقاء ولا يلطخ شرفه بلطخة العار ، وان يظل أميناً ولو كانت أمانته تؤلمه وتقوده إلى الخسران . بل انه يستحيل علينا أن ندرك حقانية الصلاح ، والشهامة ، ونبالة النفس ، اذ لم يكن للحياة نهاية في عالم آخر . بل من يستطيع إذ ذاك ان يجيب بكلمة عن منطق الخليع الفاسد الذي يترنم في صباحه ومسائه قائلاً ، « فلنأكل ولنشرب ولنفرح لاننا غداً سنموت . » (١)

أما الايمان بالخلود فانه بطريقة خفية ينمي مواهب النفس وينعشها ويغذيها ، واما عدم الايمان بالحياة الثانية فانه يسقي زهور النشاط والهمة والرغبة في عمل الخير بماء ممزوج بالملح والزفت .

---

(١) أنظر المحاضرة في آخر الكتاب .

على ان يسوع لم يعلم على اثبات صحة الخلود كقضية مطروحة للبحث ، بل آمن به كحقيقة ثابتة راسخة . فقد علم ، وعاش ، وعمل « كما لو » كان سيحيي إلى الأبد . وكل من يتخذ تعاليمه دستوراً لحياته يعمل ويؤمن مثله ، وتصبح حياته أجمل وأجدر بالعناية من حياة غير المؤمنين بما لا قياس له .

وليس في العالم عقيدة تعظم الانسانية وترفع قدرها مثل عقيدة الخلود ، العقيدة الوحيدة في الحياة الانسانية التي تمنع الناس عن التصرف كالبهائم الدنيئة وتغزي جذور التهذيب بغذائها المحيي ، وتغرس في العائلة أشجار المحبة والسلام والجمال فهي الماسة الفريدة في جيد النفس الانسانية .

انني جزء صغير من الطبيعة ، فالطبيعة قد كونتني ومزجت نارها العجيبة في جبلتي . ولذلك فان نفسي تستريح وتطمئن الى الطبيعة وما فيها من الحقائق النيرة أكثر مما إلى معارفي المحدودة والنتائج المغلوطة التي استخرجها بقوة منطقي . وانني اعتقد بأن الطبيعة اسم مستعار لحقيقة الكائن الأزلي الذي هو إلهنا أجمعين . وأفضل وجه أستطيع أن أرى فيه صورة اللّه الخالق انما هو وجه يسوع المسيح . فقد اقترب يسوع من اللّه إلى أدنى ما اودّ ان اقترب منه ويقترب منه تعالى كل بشري على الأرض . وقد قيل انه ما من انسان رأى وجه اللّه في زمن من الأزمان قط ، ولن يستطيع أحد أن يرى وجهه تعالى في أي زمن من الأزمان المقبلة ، كما اننا لا نستطيع ان نرى النفس البشرية الا بواسطة الجسد الذي تحل فيه . لذلك فان آمالي في السماء متعلقة كلها بيسوع المسيح ، الصورة المنظورة التي بغير واسطتها لا نستطيع أن نرى اللّه .

ومتى فارقت هذه الحياة ووقفت وجهاً لوجه أمام القاضي العادل فانني افرح واطمئن اذ ذاك انني قد وقفت حياتي هذه على اطاعة أفضل زعيم عرفته صالحاً ليكون وكيلاً للّه عز وجل . وعندما أنقل من هذه الحياة المعروفة إلى الحياة التي لا أعرف عنها الآن شيئاً فانه ما من فكر سيكون عزيزاً على قلبي معزياً لوحدتي أكثر من الافتكار بذلك الذي تلفظ بهذه الكلمات الآلهية العجيبة الفتانة : « أنا هو القيامة والحياة . وكل من يؤمن بي لا يموت إلى الأبد »

المسيحية

أفضل طريق إلى الأبدية

"ان جميع ما في آدابنا من الغيرة والحمية
مستمد من عقيدتنا في الأبدية ."

إن السبب الرئيسي لاحتقار الحياة ، والشعور بمرارة الوجود ، انما هو نتيجة لازمة لاهمال الانسان التفكير في العلاقة الكائنة بين حياته على الأرض وبين حياته في العالم الثاني .

وليس في الحياة آلم على الانسان من أن يعتقد بأنه نوع من الحيوان يعيش ويموت مثله ، ولكنه قد تفرد عنه بشيء من الذكاء والفطنة الروحية وكثيراً ما يدعو هذا الوهم الكثيرين من الناس إلى اليأس والانتحار .

لان الافتكار في ان الانسان العجيب بعقله وحكمته سيموت كما يموت الكلب في الأسواق القذرة ، إنما هو مقدمة للنتيجة القائلة و بان الخالق الذي خلقه على هذا المنوال انما هو مداعب ومازح قاس .

واننا لا نستطيع أن نظهر غرابتنا ودهشتنا لكثرة ما في العالم من الاستخفاف الفظ بامور الدنيا . ولكننا ندهش انه لم يوجد أكثر من ذلك عندما ننظر إلى العدد العظيم من الناس الذين يعتقدون بان الموت نهاية كل شيء .

على ان الفكر كلما كان نيراً كان القلب أميناً في خدمته مخلصاً في طاعته، وكلما كانت الطبيعة حاسّة سامية العاطفة ازدادت ثورتها لمجرد سماعها ان مخلوقاً عجيباً له حكمة الانسان وكما له تكون نهايته ظلمة الموت .

لأن الحقيقة التي لامرية فيها ان جميع ما في آدابنا من الغيرة والحمية مستمد من عقيدتنا في الأبدية .

فان جميع الأخلاق الشريفة كثيرة على هذه الحياة .

ولكن عقيدتنا في الأبدية هي التي تلطف من حدتنا في حالة الغضب ، وتثبت أمانتنا في وقت التجربة ، وتؤيد ايماننا واخلاصنا في أيام الاضطهاد .

وفوق ذلك ، بل وأعظم من ذلك ، فان الغبطة الجديرة بسعي الانسان ، وكل ما يحصل عليه من الطمأنينة الروحية التي لا تؤثر عليها قوة ما ، وجميع موجبات القناعة اللامعة كالكواكب المتلالئة بالنور في حياتنا ، القناعة المشرقة التي لا تنطفيء وتزول كلما هبت بها ريح أو ثارت عليها عاصفة ، - كل ذلك انما هو نتيجة من نتائج عقيدتنا الراسخة في الأبدية .

أما الملذات التي نحصل عليها من الأطعمة الفاخرة والتنعمات الجسدية المتعددة والشهرة الرنانة ، والثروات العظيمة ، فانها ملذات محدودة قصيرة الاجل . لان وراءها كلها تتبعثر جميع أحلامنا إذ نقرأ هذه العبارة المرعبة المكتوبة بحروف من نار ، - « كلها صائرة إلى الزوال » .

وإن الإنسان لا يمكن أن يحترم ذاته أو أن يعني بأمورها برغبة ولذة اذا كان يعتقد بان هذا الفصل الترابي هو كل قصته من أولها إلى آخرها .

لاننا عاجزون عن أن نفصل هذه الحياة عن الأبدية كما اننا لا نستطيع أن نفصل السنة عن قرنها والساعة عن يومها .

وقد طالما أعمل الانسان فكرته في تعليل الأسباب التي تحمل البشر على فعل الشر ، والتمرغ في حمأة الدعارة ، والخلاعة ، والأذية ، والدناءة ، واللؤم والخساسة ، ولكن السبب الحقيقي ، الينبوع أو المصدر الذي تخرج منه جميع أنواع الحطة والسفالة ، البالوعة المفتوحة التي تلطخ الجنس البشري بأقذارها ، - انما هو الوهم الذي يرسف في قيوده القسم الأكبر من العالم الذي يخدع المصدقين به فيخيل اليهم ان العوبة الحياة الانسانية تنتهي في الحال عندما يرخي الموت ستائره ، وبعد ذلك لا يوجد شيء البتة .

على ان خلاصة فلسفة النشوء والارتقاء تظهر لنا بالعكس من ذلك ان الحياة كل الحياة ليست في العهد الطويل الذي قضيناه حتى بلغنا إلى حيث نحن

اليوم ، بل إنما الحياة كل الحياة في العهد الذي لن ينقضي ، الذي سيدير وجوهنا إلى المستقبل .

وما من عاقل قط يستطيع أن يبحث في هذه الأرض ، من غير أن ينظر إلى علاقتها بالشمس والكواكب المالئة ارجاء اللانهاية .

وكذلك ما من قوة عاقلة تستطيع أن تفصل الحياة البشرية عن صلتها الخالدة بالابدية .

ماذا أقصد عندما أقول أنا مسيحي

اعتراف ج . ستانلي هول

المستر ج . ستانلي هول من المتفردين الثقات في علم النفس . وقد قرأت له اعترافه الآتي فاعجبت به الاعجاب كله واردت ان انقله ههنا خدمة للقراء الكرام لانه شديد الانطباق على الموضوع الذي نحن في صدده ، قال :

« انني كلما فحصت حياتي لأرى إذا كنت قادراً أن أؤدي جواباً حسن القبول عن تصرفاتها ، أجد ما لا أكتفي به بتة . فقد كنت أنانياً حيثما كان يجب أن أكون جواداً سخياً ، وكنت صغير العقل حيثما كان يجب أن أكون شريف النفس هماماً ، وسعيت وراء العقائد الخارجية حيثما كان ينبغي أن أتبع عقائدي الداخلية ، وكثيراً ما كنت أدعي لنفسي الفضائل التي كنت أشد الناس حاجة إليها. بيد أنني قد أحببت الحق وأبغضت الباطل ، وقد أنفقت من مالي وبذلت من ثروتي في السبل الخيرية ، وحاربت بكل قوتي جميع ما حسبته ضلالاً أو خطيئة أو شراً ، وبالاجمال فانا أعتقد باخلاص بانني كنت أعني بمصالح الآخرين أكثر من مصلحتي الخاصة ، كما يجدر بالمعلم أن يكون . وقد طالما كنت أسعى الى النظر إلى الداخل قبل الخارج شأن البسيكولوجي الحكيم . ولذلك فانني أحسب ذاتي تلميذاً لمعلم النفوس العظيم ، وأعتقد بأنني أخ مسيحي لجميع الذين يعيشون في هذا العالم لأجل المحبة والخدمة وكل من يحب ويخدم هو في عقيدتي عضو حي في كنيسة المسيح الحية ، ونحن جميعنا أخوة في المسيح . وانني بكليتي أقف أعماق قلبي ونفسي لهذا المجدد العظيم لنفوس ابناء الانسانية الذي اظهر للافراد والجماعات ، وجميع الامم والشعوب القاطنة على وجه الأرض الطريق الوحيدة الواحدة التي بواسطتها يخلصون . »

ج . ستانلي هُولْ ، في الفصل « يسوع المسيح »
في كتابه « نور علم النفس »

كيف أفهم الدين ؟

"ان يسوع جاء إلى العالم لكى
يعلم الناس كيف يعيشون فيه .
ولكنه لم يأت ليؤسس ديانة جديدة لذاته ."

يسؤني ان أوضح بين الآونة والأخرى معنى الكلمات التي استعملها . ولكن أكثر ما في العالم من سوء التفاهم إنما هو نتيجة لعدم ايضاح الانسان صراحة ما يرمي اليه من كلامه . واطلب الى القارىء الأديب ان يتذكر انني اذا عرفت كلمة من الكلمات فأنا لا أقصد بذلك ان هذا هو المعنى الحقيقي لهذه الكلمة ويجب أن يتقيد به كل ابنسان ، بل انما أقصد ان أوضح المعنى الذي أفهمه منها بالطريقة التي استعملها بها .

فاذا تكلمت عن ديانة يسوع فانا أتكلم بشك وريبة . لأني لست واثقاً بأن يسوع كان معلماً دينياً طقسياً ، فان كلمة دين لم تستعمل سوى مرة واحدة في العهد الجديد . واننا نعرف ، على مقدار ما نستطيع أن نعرف ، ان يسوع لم يستعمل هذه الكلمة قط . ولذلك يخيل الى انه كان خبيراً بالغ المعرفة في أسرار الحياة أكثر مما كان عالماً من علماء الدين . فقد بلغ إلى أسمى درجات المعرفة ، وأدرك كنه الشرائع العظيمة التي تدير سبل الحياة في هذا الوجود . على انني أشك كثيراً في انه أراد أن يؤسس ديانة جديدة كما انني أشك في انه رغب في تاليف حزب أو طائفة لذاته . وان صح انه تكلم في هذين الموضوعين ، فانه تكلم قليلاً جداً وبطريقة عرضية . ولذلك اعتقد بانه انما جاء الى العالم لكي يعلم الناس كيف يعيشون في العالم ، وقد نجح في عمله أكثر من أي معلم سواه .

على انني عندما استعمل كلمة دين لكي أوضح بها ديانة يسوع فانني لا

أستطيع أعرّفها بغير ما عرّفتها في كتابي « دين الغد » حيث قلت ، « ان الدين هو تأثير الله الشخصي في حياة الانسان » .

فانني لا أستطيع أن أجد في الدين أو في تعاليم يسوع قوة ظاهرة بتأثيرها أقدر أن أتخذها لمنفعة حياتي سوى تأثيرها الشخصتي على حياتي . فالتأثير الذي ليسوع المسيح على حياتي هو نفس التأثير الذي تتركه فيّ أية شخصية كانت من الشخصيات البارزة في التاريخ . فاذا اجتمعت برجل متهذب أو امرأة شريفة واشبعت بأدبهما وشهامتهما فإنني أشعر في الحال بتغيير سري في أعماق خلقي يدفع بي إلى التهذيب والشهامة . وهذه ، كما أقدر أن أعبر عن فكري، هي صورة مصغرة جداً لما يحدثه فيّ الاجتماع بيسوع .

على أن هذا التأثير الشخصي الذي أحصل عليه لا ينحصر في الأحياء الذين أشاهدهم فقط . فان عمانوئيل كانْت ، وداود ملك اسرائيل ، وابراهيم لينكلن ، وألفرد تنسون يؤثرون فيّ تأثيراً بالغاً ، ولكنني لم أنظر أحداً منهم قط . لأن تأثيرهم الشخصي قد بلغ إليّ بما كتبوه وقرأته لهم وما سمعته عنهم فيما مرّ من عمري ، لذلك فان كثيرين من أبطال الروايات الذين لم يوجدوا في العالم قط ، لهم تأثيرهم الشخصي على حياتي . فقد أثر فيّ كثيراً ما قرأته عن جان فالجان ، وجون هاليفاكس ، ومارك سابر ، وروم ولا .

هذا هو نوع التأثير الذي ليسوع في حياتي ، ولكنه يختلف عن غيره بأنه أقوى وأطول من الجميع وأشد فعلاً وأوفر ثمرة . على انني لا أقول أن يسوع المسيح لم يكن الهاً وانه كان انساناً بسيطا مثل كل واحد منا . بل كل ما أقوله انه كان كائناً علوياً أفضل من جميع أبناء البشر الذين عرفتهم أو سمعت بهم . وأما الفرق بين الرجل العظيم وبين الاله فأنا لا أستطيع أن أفهمه ولا أعتقد بأن فهمه ضروري لحياتي . لأن عبقرية العظيم النابغ كألوهية الاله محجوب ادراكها عن قوى فكري !

فانني أعتقد من صميم قلبي بأن يسوع هو رأس معلمي الانسانية . وقد أثرت تعاليمه وحياته في اصلاح الملايين من الناس مما لم يخبرنا تاريخ المدنية

البشرية بأن حكيماً أو معلماً أتى بمثله لا من قبله ولا من بعده . وقد سكب من معين وحيه في أفكار وقلوب الالوف من الناس وأعمالهم فرفع حياتهم إلى الأوج فرأوه بالرغم مما كان يحيط بهم من حيرة الوثنية وضلالها . ومع أن شرور الناس قد أبعدته عن الانسانية حتى ليبدو كانما هو شبح أو خيال لا حقيقة دونه ، ومع أن قياسات اللاهوتيين وسفسطاتهم التي يتيه الفكر في صحرائها فلا يعرف أين تبتديء ولا أين تنتهي – قد سدلتْ حجبها الكثيفة على الحقيقة السامية التي جاء بها إلى العالم ، ومع أن عبادته قد تسلفت إلى نوع من الوثنية السمجة ، فانه لا يزال لمجرد ذكر اسمه قوة فعالة في قيادة الانسانية إلى الصلاح . وما برح تأثيره الشخصي مثمراً في القلوب المستعدة له ثماراً خالدة محيية . وانني لا رغبة لي في الدخول في البحث اذا كان إلهاً أو إنساناً . بل جل غايتي انه سواء كان إلهاً أم إنساناً ، أم إلهاً وإنساناً معاً ، فقد كان لحياته على الأرض وتعليمه أكبر تأثير على حياتي ، كما انه كان أفضل دليل لقواي العاقلة ليقودها إلى السعادة والطمأنينة .

المسيحية في عقيدتي

طريق تؤدي إلى الحياة

وليس إلى الهرب من الحياة

"ليست المسيحية ديناً بمقدار ما هي قوة وحكمة توضحان كيفية الانتفاع من الغاية التي وجدت الاديان لأجلها."

ليس من الصواب أن ننظر إلى المسيحية كدين من الأديان . لأنني أعتقد بأن المسيحية ليست مذهباً دينياً للعبادة الطقسية كالبوذية والبرهمية وغيرهما من المذاهب الوثنية التي كانت تحارب بعضها بعضاً على ممر العصور . فان المسيحية أسمى من أن تزاحم أمثال هذه الأديان في طقوسها وفروضها السخيفة .

بيد أن المسيحية تحتوي على جميع المباديء الدينية الشريفة . ولذلك كان الأفضل أن نقول أن المسيحية تحتوي على الدين من أن نقول أن المسيحية دين من الأديان .

وانني أعتقد بأن المسيحية طريق تؤدي بنا إلى الحياة الحق . بل هي حكمة بالغة ، ومبدأ سماوي يرفع حياة البشر التعساء من صحراء التعاسة إلى فردوس الغبطة والسعادة . والحاجة القصوى التي تنقصنا اليوم هي ان نتعلم كيف نعبر عن المسيحية بشعورنا وعوطف قلوبنا مثلما نستطيع أن نعبر عن أفكارنا بالألفاظ والعبارات المتنوعة . لان يسوع قد ضرب على أوتار العواطف والقلوب كما ضرب على أوتار الحصافة والعقل . والحياة عند التحقيق مزيج من الفكر والشعور ولا يمكن أن تحل في واحد منهما وتهمل شأن الآخر .

على ان في ما نفهمه بكلمة « دين » كثيراً من الزوائد التي أعرضت عنها في المسيحية التي أؤمن بها واتخذها دستوراً لحياتي .

فهنالك الخوف مما تجهل حقيقته ، والطاعة العمياء لذوى السلطان المطلق ، ووجوب تقييد حرية الفكر ، والمحافظة على قوانين معينة وطقوس مقررة ، والرجاء في الحصول على الثواب ، والخوف من العقاب ، وغير ذلك مما ورثناه عن العقول القديمة مما لا تستطيع العقول الحديثة أن تتخذه قائداً ودليلاً لحياتها .

على انني لا أقصد بهذا ان الدين هو قضية من القضايا الفكرية . لأن القوة الفكرية المتسلطة على الغرائز والنزعات النفسية تستطيع أن تستثمر النافع منها وتضع جميع المبادىء القديمة التي اتصلت بنا من الأجيال الغابرة في بوتقة الاختبار لتظهر نفعها أو ضررها .

ولذلك يجدر بالشخصية القوية المدربة في ادارة حياة الانسان الذي تحل فيه أن تكون شديدة الحرص على درس جميع ما وصل الينا بالارث عن جدودنا الاولين من العقائد والتقاليد ، وتطبيقها على حياتنا قبل قبولها .

فالمسيحية إذن هي القوة التي بها نستطيع أن نميز بين النافع والضار من الدين . هي الطريقة التي بها نجعل الدين ينبوعاً للقوة الفردية ، وللنظام الاجتماعي ، وللمنفعة الاقتصادية للجميع على السواء . لان لكل انسان ديانة خاصة به ، فاما أن تتجسد فيه بشكل من التعصب الذميم والوهم العقيم ، أو انها تملأ حياته بما لا طائل تحته من النظريات الفارغة والاراء السقيمة ، ولكن إذا كان لهذا التعصب أو الوهم سلطة على القائل بهما تهذب أخلاقه وتدرب حياته في السبل المستقيمة فانها بحق تدعى ديناً . ولذلك فان الكافر والمتشائم وغيرهما من الماديين لهم كل دينه من هذا القبيل . لان الدين على نوعين دين صالح ودين رديء . فالايمان كما انه يخلص بعضاً فانه يقتل بعضاً . فاذا آمنت بالكذب قادك الكذب إلى الخراب . وإذا آمنت بالصدق أنقذ الصدق حياتك ووطد لك بنيان سعادتك . وإذا آمنت من أعماق قلبك ان الهك يعلمك أن شر السم القتال اذا شربته

لا يؤذيك ، فاقدمت على أخذ جرعة كبيرة منه فانك تموت في الحال كما لو كنت ممتلئاً من الشكوك في الموضوع . فان العالم ممتليء من روح الدين وكل ما فيه انما أسس على الدين . غير ان المسيحية هي الطريقة الواحدة التي توحد هذا الدين وتجزل ثماره في بساتين الحياة .

وفي الفقرة التالية المنقولة عن المستر هافلوك أليس بعض الفائدة في الموضوع :

« في مقدمة الصوفيين العظماء في تاريخ الانسانية نجد اسم لاوتسا فقد عاش هذا المعلم قبل المسيح بستمائة سنة وقبل ساكياموني بمائة سنة ، وكان بنقاء فكره أكثر تصوفاً من الاثنين ، وفوق ذلك كان أقرب منهما إلى العلم في أرائه وتعاليمه جميعها . حتى ان المركز الذي كان يشغله في خياته .
بالنسبة إلى جيله وبلاده ، كان أيضاً ذا صبغة علمية . فقد كان على ما في أميناً على السجلات والقيود الرسمية . وفي سائر أعماله نرى الاتحاد والائتلاف بين العلم والدين ظاهراً لكل ذي عينين . والكلمة « تاوُ » ، التي كانت في نظر لاوُتسا رمزاً إلى كل ما توحِّدنا به الديانة بطريقة سرية يجوز أن تترجم بكلمة « عقل » ، بالرغم من أن هذه الكلمة تظل قاصرة عن تأدية معناها الكامل . وليس في تعاليمه من أثر للتأملات والظنون اللاهوتية الفائقة الطبيعة في جوهر الله ، (ولم ترد هذه الكلمة في كتاباته إلا مرة واحدة ولعلها من زيادات النُسّاخ ،) أو النفس أو الخلود ، فقد امتاز لاوُتْسا بدقته وصفاء ذهنه في التعبير عن الحقائق الروحية بشكل الحقائق الطبيعية . ولذلك لم تتناول أبحاثه ايضاح حقائق الدين فحسبُ ، بل كانت توضح المذاهب الجوهرية في العلم أيضاً . وقد كان لهذا الرجل قلب الصوفي ، وفكر الطبيعي وعين البَيولوجي . ولذلك كان يتخطر في دائرة متسعة - الدين والعلم واحد فيها . » - هافلوك آلّيس في كتابه « رقص الحياة [1] صفحة ٢٠٤

---

(١) قد ترجمنا هذا الكتاب إلى العربية وقريباً يظهر مطبوعاً ان شاء الله .

السيادة الحقيقة

التي أجدها في يسوع

«ان جميع أنواع السيادة كائنة في نفس الانسان.»
باكون

ان موضوعنا الحاضر يتناول البحث للاهتداء الى حيثما كان يسوع « قوة الله » . وبعبارة بسيطة فاننا سنوضح في هذا الفصل الأسباب التي جعلت يسوع قوة عظيمة فعالة في حياة العالم .

وانني إذا طُلِبَ إليّ أن أقدم شهادتي الشخصية في الموضوع ، في محكمة الرأي العام ، فإنا أقول ان المسيح هو قوة الله لأنه كان بالحقيقة أعجوبة من عجائب الحكمة الالهية وانما أقصد بذلك ان قوته لا تتوقف على انه كان رباً للجميع ، أو ملكاً للملوك ، ولا على انه سيد السماء والأرض ، ولا أمثال ذلك مما يلقبه به ضيقوا العقول والأفهام من الناس . فانني أعتقد بأن هذه الألقاب كلها نظرية ولا تليق بعظمته الحقيقية لانه إذا لم يكن في يسوع غير هذه الألقاب لنواله السيادة على العالم ، فان مركزه لا ينفعه أكثر مما نفع القيصر الروسي أو الامبراطور الالماني مركزهما . فهو يسود على العالم لان سيادته نتيجة لازمة لعظمته الداخلية ، ولا يعرف في سيادته مهرجان العظمة الملوكية والأبهة السلطانية الذي اخترعته الكنيسة النصف وثنية بعاداتها وتقاليدها واهمة انها بعملها هذا تقدم له عبادة أو كرامة .

أجل ، ان الملك الحقيقي لا يحتاج إلى تاج ، ولا يعوزه الصولجان أو العرش . والإله الحقيقي لا يحتاج إلى رعود وبروق لاثبات ألوهيته . ولذلك فاني أعتقد في أعماق نفسي بأن سيادة يسوع كائنة في قوته الداخلية التي لا تؤثر

فيها المادة وقلما أهتم بالسيادة المادية التي ينسبها له العالم المادي البعيد عن ادراك حقيقة روحه الطاهرة .

على ان القوة التي منحها يسوع للعالم قد مُزجتْ على ممرّ العصور بكميات كبيرة من الصدأ والنفاية غير النافعة . ولذلك يلوح لي اننا لو قدرنا أن نجرّد يسوع من السلطة الموهومة التي ينسبها اليه العالم ، والمظاهر المادية التي يظهرونه بها ، - بل لو كان لنا أن نخرج يسوع من الهياكل المقيّدة إلى الفضاء الطليق ، إلى الحقول ، إلى شوارع المدن ، إلى البيوت التي نسكن فيها مع أولادنا ، لكي يكون نفوذه حراً طليقاً من جميع الستائر المادية والتقاليد الصناعية ، فنستطيع أن ننظر اليه كشخص حقيقي ، ونشعر بتأثير شخصيته علينا كما لو أنه حيّ أمام عيوننا ، ونصغي إلى كلماته كأننا نصغي إلي الحقيقة البسيطة المجرّدة ، فإن القوة الكامنة في أعماق شخصيته السامية يكون لها إذ ذاك فرصة أفضل للعمل في العالم المحتاج إليها .

وأما الذين لا يفهمون حقيقة السيادة المتجسدة في يسوع ولا يشعرون بالقوة المتجدّدة المحيية التي تُغلّف شخصيته ، والوحي السامي الذي انسكب في أعماقه وجعله ينطق بتعاليمه الخالدة ، فإنما هم اولئك الذين سدلت المادة براقعها السوداء على وجوههم فلم يعنوا الا باختراع السلطة المادية الباطلة لسيدهم .

وقد قال يسوع مرة ، « من أقامني قاضياً أو مقسّماً بينكم ؟ » وانها لآية حرية بأن يعلقها الضالّون عن سراط الحق في أعناقهم لعلهم يفهمون ويهتدون .

ماذا أقصد بالتجدد الروحي

"ما من شيء يستطيع أن يعطيك حياة
سوى ملامسة حياة أخرى لحياتك ."

نبحث في هذا الفصل موضوع التجدد الروحي وكيف أفهم هذه الكلمة . فأنا مدين بتربيتي لبعض من أعضاء كنيستي ، لانني عندما كنت صبياً كنت أجدد أهتدائي فى كل شتاء حيثما كانت تعقد كنيستي اجتماعاً عاماً لتجديد الحياة الروحية في قلوب أعضائها في جلسات متوالية . ولكنني كنت أضيع في كل صيف ما حصلت عليه من ثمرات التجدد الروحي في اجتماعات الشتاء هائماً كيف طاب لي الهوى . وكانت العقيدة الغالبة في تلك الاجتماعات حيثما كنت أقضي أوقاتي في فصل الصيف ان الحياة الدينية هي نتيجة الاختبار في كل انسان أو هي ما يطرأ عليه من التأثيرات العقلية في أثناء هذه الاجتماعات .

ولايزال أكثر رجال الدين في كنيستي الى اليوم يعتقدون بأن ما يحصل عليه الانسان من الاختبار في رجوعه عن اعوجاج سيرته واهتدائه إلى حظيرة السيرة الشريفة انما هو أساس الحياة الدينية ، لأنه ألم يقل الكتاب ، ان لم يولد الانسان من فوق لا يقدر أن يدخل ملكوت السماوات ؟

وانني ما برحت على أتم الثقة بأن التجدد الروحي بداءة الحياة المسيحية ، ولكنني قد تعلمت معنى جديداً لهذا الارتداد الروحي لم أكن أعرفه من ذي قبل وهو أكثر انطباقاً على عقلي من الرأي الأول . فأنا أفهم بالتجدد الروحى التغيير من حالة إلى حالة ، أو بعبارة أوضح ، تغيير طبيعة النفس ، وأنا أعني بذلك تبديل مسالك الحياة وتغيير مجاريها .

على ان هذا التبديل ليس شكلاً غريباً من التأثيرات السريّة الغامضة لانه لما كان الدين عبارة عن تأثير شخصي فان التجدُد الروحي هو ثمرة لهذا التأثير . لانني اذا تقربت من رجل نابغ الفكر عظيم القدر وأكثرت من معاشرته والاصغاء إلى مبادئه برغبة ومحبة فانني أعجب به شيئاً فشيئاً حتى أصير مثله . وكل من وقع قلبه في حب امرأة فاضلة يعرف التغييرات التي يحدثها حب تلك المرأة في أخلاقه ومبادئه . ومثل هذا يجري عندما يضع الانسان مثال يسوع وصورة كماله أمام عينيه فان ذلك المثال يُسيّر ارادته لاتباع خطوات المعلم الصالح وتطبيق الحياة على تعاليمه ومبادئه ، فيفيضُ ينبوع شخصية يسوع عليه فيروى حياته بمياه الحكمة والمعرفة ويغيّر أخلاقه وطبائعه حتى يخيل اليه أنه قد ولد ثانية .

وكثيراً ما يشعر الانسان بعد أن يتماثل الى الشفاء من داء ألم به انه قد خُلق ثانية وانه رجل جديد غير الرجل الذي كان مريضاً . وعندما يهرب الانسان من شقاء الكفر وشكوك الالحاد ويلتجيء الى حماية يسوع فان مباديء يسوع تعمل فيه فتحوله بسرعة عجيبة الى رجل جديد صالح حتى اننا لا نبالغ اذا قلنا انه قد صار انساناً جديداً في المسيح يسوع . »

والحقيقة التي لا مرية فيها انه لا يؤثر في الحياة سوى حياة مثلها فان وراء المظاهر الغريبة التي ترافق التجدُد الروحي حقيقة لا ينكر نفعها أحدٌ من الناس . لان في داخل هذا الغطاء الخشن الثخين بزرة ممتلئة من القوة والحياة .

ماذا أقصد باتباع خطوات يسوع ؟

التمسك بالحرف يقتل الشعور

"ان القانون يعطي لنا بسبب خمولنا ،
وأما المبدأ فانما نناله لان عندنا مثله"

ان ما سبقت فأوضحته عن الفرق الكائن بين القوانين والمبادىء ربما كان في حاجة إلى زيادة ايضاح . فانني لا أنظر إلى الكتاب المقدس ككتاب قوانين وفرائض للمحافظة على سلامتي ، بل أنظر إلى هذا الكتاب كمجموعة مباديء تشجعني على النمو في سبيل الكمال .

فالقانون هو نائبٌ ينوب عن العقل والذكاء وأما المبدأ فهو عقيم لا فائدة منه ما لم يمتزج بالعقل والذكاء .

أما المعلم فتتوقف عظمته على مقدار ما يطرقه من مواضيع الحياة الرئيسية التي يتطلب من تلاميذه وتابعيه اجهاد أفكارهم وعقولهم لادراكها والبلوغ الى قلبها . وانني أعتقد بأن يسوع وغيره من كبار المعلمين والمصلحين كان آخر ما طلبوه من الناس الخضوع المجرّد والطاعة العمياء . لاننا بالحقيقة لا نستطيع أن نتبعه عن رغبة وقناعة ما لم نستعمل كل ما أوتينا من فطنة وفهم .

اننا نقرأ في الكتاب أن الحرف يقتل أما الروح فتحيي ولذلك فان الطريقة التي لابد ان تُضلّنا عن اتباع خطوات يسوع انما هي في نظرنا إلى العبارات والألفاظ التي تفوّه بها نظرة خارجية مهتمين بمعناها الحرفي أكثر من مرماها الروحي البعيد . فان يسوع شرقي بطبيعته وحياته . وقد علّم الناس على الطريقة الشرقية بالاشعار والإفتراضات والأمثال . وقد أوضح لنا رئيس الاساقفة هويتْلي ، أن أكثر ما طلبه يسوع من العالم إذا نظرنا إلى معناه الحرفي نرى أحد

أمرين : اما أنه يدعو إلى السخرية والهزء أو انه يستحيل تنفيذه ولكن هذه هي الطريقة الشرقية التي يعشقها الشرق في تعليمه ، أما الغاية منها فهي أن تترك التلميذ سابحاً لذاته في عالم الخيال الروحي ليستخرج بفطنته الغاية الروحية المنطوية عليها عبارات المثل أو الحكاية لان العمل بما يطلبه الحرف عقيم الثمرة ولذلك يسعى إلى الثمرة الروحية الخفية .

ومن الأمثال التي تظهر لنا هذه الطريقة التهذيبية الجميلة أن يسوع بعد أن غسل أرجل تلاميذه قال لهم أن يقتدوا به ، وكما انه غسل أرجلهم فليغسلوا هم أيضاً أرجل غيرهم من الناس فاذا فهمنا هذه الوصية بظاهرها أفلا يرى كلُ منا انه من التوافه الغير المعقولة ان يدور التلاميذ أوغيرهم من المسيحيين على الناس ينزعون أحذيتهم من أقدامهم ويغسلون أرجلهم ؟ ولكن كل انسان يستطيع بقليل من أعمال الفكرة ان يدرك الطريقة الجميلة الفتانة التي استخدمها يسوع بهذه العبارة ليوضح لنا عظم فضيلة الخدمة بتواضع .

ومثل ذلك عندما سأله الشاب عن القريب والطريقة الواجبة في معاملته ، فقصّ عليه يسوع حكاية السامري الشفيق ثم اردفها بقوله ، « اذهب انت وأفعل هكذا، » فان ابسط الناس يستطيع أن يفهم أن يسوع لم يطلب الطاعة البسيطة لمساعدة الجرحى والعناية بهم واخذهم إلي الفنادق والمستشفيات ، بل انما أراد أن يعلمنا وجوب مساعدة المحتاجين مهما كان دينهم أو جنسهم أو وطنهم .

وان مبدأ الأعراض عن السوء وعدم مقاومة الشرّ الذي علم به المسيح قد أسيء فهمه أكثر من جميع المبادىءالأخرى . فقد قال يسوع « من ضربك على خدك الأيمن فحول له الأيسر ، وإذا طلب أحدٌ ثوبك فاعطه الرداء أيضاً ، ومن سخرك ميلا فامش معه ميلين » . وقد شوّه نظر الناس إلى حروف هذه الوصايا الجمال الروحي البالغ الذي ألبسها إياه ذلك المعلم الصالح إذ خيل اليهم ان يسوع أراد بهذه الوصايا أن يعلم الانسان الجبانة والتخنُّث . غير اننا في نظرنا إلى هذه الوصايا يجدر بنا أن نطرح الحرف القتال جانباً وننظر إلى الروح المحيية التي

تقطن في هذه الوصايا فنرى أنها أحكم الوصايا التي سمعها الانسان منذ وُجد على الأرض وأسهلها انطباقاً على الحياة في جميع فروعها . فان كل رجال الأعمال من غير استثناء يديرون الخدّ الثاني اربعين مرة في النهار عوضاً عن المرة الواحدة . فان الرجل منهم لو كان يريد أن يقف ليرد لكل انسان ضربته ويصفع كل من يصفعه فانه ما كان يصل إلى مكتبه مرةً قط . لأنه لو أراد الانسان ان يلتفت إلى كل كلب نابح عليه ويطارده حتى ينتقم منه فانه ما كان يتخذ له عملاً غير هذا العمل في حياته . لأن المبدأ الذي تعبر عنه هذه الكلمات التي تفوّه بها يسوع انما هو جوهر العظمة الحقيقية وشرف الأخلاق الانسانية . فهو يُظهر ان الانسان المتفوق بفكره وادراكه لا يستطيع أن يحمل حقداً في قلبه . ولا يقدر أن يضمر سوءاً لأحد من الناس . فلا يقابل الذي يصفعه بمثل فعله ، ليس لأنه يخافه ، بل لأنه يحتقر ان يفعل ذلك . والمسيح قد قدّم هذا المبدأ السامي لا مثال هذا من المتفوقين بعقولهم ومداركهم .

وان هذا المبدأ القاضي بالاعراض عن الاساءة وعدم المقاومة لهو أسمى ما بلغ اليه البشر من الانتصارات الروحية فكما ان المصارع الياباني الماهر يغتنم فرصة العنف الذي يبذله خصمه في مقاومته ليكسر ذراعه أو يخلع عنقه بأن يحجم عن المقاومة في حين ان خصمه يكون متوقعاً مقاومة شديدة منه وهكذا يتم له الانتصار عليه من غير ان يقاومه ، كذلك جميع انتصاراتنا الروحية لا تتم لنا إلا عن طريق التسليم وعدم المقاومة . وعلى هذا المنهاج بعينه يظهر الرجل المتهذب تفوقه بالتأدب والاحتشام على الرجل الدنيء السافل .

ولذلك فانني عندما أقول انني أتبع يسوع انما أقصد انني أسعى أن أنفذ مبادئه بحياتي ، بسلوكي وتصرفي في العالم ، وقد وجدت بالإختبار ان ذلك قد ساعدني في الغالب للحصول على طمأنينة بالغة ورضى وقناعة واحترام لذاتي ، وقد رأيت ان ذلك قد جعل حياتي مع جيراني وأقربائي أفضل كثيراً من ذي قبل وبعث في عزيمة في جميع أعمالي .

وانني أخال ان بين الناس من يحترم نفسه ويجرب أن يتخلص مما يلقي

على عاتقه من المسؤولية . فان المسؤولية التي يحملها الانسان في حياته هي أفضل معلم له في هذا العالم . وانني لا أعتقد بأن يسوع يطلب مني أن أهرب من حمل مسؤوليتي . ولا أستطيع أن أجد لنفسي مبرراً يدفعني كلما كنت في حالة شريرة أن ألتفت إلى يسوع وأقول له ، « أنت قلت لي أن أفعل ذلك » . فان يسوع لم يطلب إليّ أن أفعل شيئاً قط . ولكنه قدم لي هذه المبادىء السامية ونفخ بي من روح حكمته وفطنته ما أستطيع معه على اختيار كل ما يوافقني ويلائم غرائزي منها ، فهو ينشط قوتي العاقلة ويقسّيها ولكنه لا يقتلها البتة .

وشر أمثال الظلم والجور التي أحدثها التمسك بالحرف دون الروح ظاهر في العلاقة بين تعاليم الكنيسة وغريزة حفظ النوع الانساني . فقد قال يسوع مرة ، « ان من نظر الى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه » .

وقد طالما ثار الكثيرون من الناس على الطبيعة البشرية بسبب سوء فهم هذه الآية وتفسيرها بان العاطفة الطبيعية بين الرجل والمرأة ، التي لا يخلو منها رجل أو امرأة ، انما هي عاطفة شريرة شيطانية . وكم ألّفوا من النظم ووضعوا من القوانين للتبتل والعذراوية ، بحجة ان الذين يتبتلون ويكبحون جماح شهواتهم هم أطهر من غيرهم من المتزوجين الأصحاء الذين يحافظون على عواطفهم الطبيعية . وقد عالج تولستوي الروسي هذا الموضوع بتطرف كثير وابحاث عقيمة ، لان عقله كان مشبعاً بتعاليم القرون المتوسطة المظلمة ، ومن أقواله ، « ان في كل شهوة شراً أكيداً » . والشهوة هنا انما يقصد بها الشوق النقي الكامل الذي يختلج به قلب الرجل نحو المرأة .

وكل هذا يوضح لنا النتائج الفاسدة السقيمة التي يؤول الحرف اليها . فان الشعور العام فينا يخبرنا ان المبدأ الذي أراد يسوع اظهاره لنا بالآية السابقة هو ان صحبة الرجل والمرأة يجب ان تنال اسمى درجات الاعتبار والافتكار ، لأن الخيال الصحيح الذي يوحد هذه المحبة وحدة واحدة هو الخلاص الوحيد لغريزة حفظ النوع في الانسان . وكل من يسعى الى استئصال بذرة هذه الغريزة من الطبيعة البشرية انما ينزل بالانسان الى أسفل درجات الضلال والفساد .

وانني أستطيع أن أقول انه ما من ضلال وقع به الانسان منذ وُجِدَ على الأرض حتى الآن واحدث من الاضرار والمصائب الفواجع في العالم مثل الفكرة الرجسة القائلة بأن الطبيعة البشرية شريرة أو قذرة . فان اجيالاً عديدة من التعاليم الضالة قد زرعت في عقولنا ان « الشهوة » ، التي ليست بالحقيقة سوى تحريك العاطفة الطبيعية في قلب الانسان ، انما هي عارٌ ونجاسة .

على ان العقل السليم يجب أن يقودنا طبيعياً الى الإدراك بأن العاطفة الفطرية في المرأة والرجل هي بالحقيقة أجمل قوة في تطورات الحياة . لان العائلة تضمحل بدونها ، وتفقد الانسانية كل ما في الحياة العائلية من الكمال والسعادة . ويخسر العالم بخسارة هذه العاطفة الحب العذري وكل الثروة الشعرية البالغة الفائضة من ينبوع هذا الحب الطاهر . بل ان جميع الأحياء العائشة في العالم تزول وتضمحل بزوال هذه العاطفة . ولذلك فان العقيدة الآمرة باحتقارها والقائلة بأنها شريرة نجسة انما هي عقيدة رجسة وثمرة قتالة للحرف القتال .

ولا غرو في ان كل عاقل يدرك ان هذه الرغبة الجنسية التي تقرّب الرجل من المرأة لحفظ النوع الانساني يجب أن يتبصر الانسان في الانقياد اليها وأن يكبح جماحها بضميره وعقله . ولما كانت هذه الرغبة أقوى رغبات الحياة لذلك يجب الا يغرب عن الأذهان انها إذا أريد تقييدها وحصرها انفجرت وأحدثت بانفجارها أفظع الجرائم والرزائل . وأما القائلون بوجوب تقييدها بحجة أنهم يعرفون مثالا أو مثالين أضرّت فيهما لجهالة في طريقة استعمالها والانقياد إليها ، فهم أشبه بالقائلين بوجوب حجب نور الشمس لأنه أحدث صُداعاً في رؤوسهم .

غير اننا إذا نظرنا إلى قول يسوع هذا ووضعناهُ مع قول آخر حضّ فيه الرجل على ترك جميع نساء العالم والالتصاق بامرأته ، لوضحت أمام عيوننا الغاية التي قصدها من هذه الآية ، وأدركنا الحقيقة الناصعة التي يُبنى عليها الزواج بامرأة واحدة ، ولعرفنا حينئذ : ان الزواج بامرأة واحدة إنما هو الطريقة الطبيعية الوحيدة لقضاء الشهوة الطبيعية بما يلائم الآداب الراقية ويحافظ على شرف المبادىء الزوجية .

ماذا أقصد

عندما أدعو يسوع مخلصي

"انني أدعو يسوع مخلصي لانني بقوته
أرتفع من أدنى درجات الغايات الدنيئة إلى
أوج السعادة والراحة."

انني بملء طوعي واختياري وكمال راحة ضميري وقناعتي أدعو المسيح مخلصاً لي ولكنني أريد أن أوضح معنى هذه الدعوة في عقيدتي .

فأنا أقصد بهذه الدعوة انني بما ليسوع من التأثير عليّ أستطيع أن أرفع حياتي إلى مستوى رفيع في سعادة الحياة ، وبقوته أرتفع من أدنى درجات الغايات الدنيئة إلى أوج الراحة والغبطة .

على انني لا أتخذ يسوع مخلصا لي لاعتقادي بانه ينقذني من غضب الله ، إذْ لا أعتقد بأن في خلق الله شيء من الغضب فلا أستطيع أن أصدق ان الله يغضب عليّ عندما أفعل خطأ ما ويرغب في تعذيبي والانتقام مني ، بل أنا أعتقد بان الله يحزن عليّ ان فعلت سوءاً ويشفق علي نفسي من أعماق قلبه كما أشفق أنا على ابن لي عندما يفعل شراً . وما أجمل ما وضعه ماتَرْلنك في فم الشيخ أركال في « Pelleas and Melisande» حيث قال ، « لو كنتُ الهاً لكنتُ أشفق على جميع الناس » (١)

---

(١) وقد قال عمر الخيام الشاعر الفارسي بهذا المعنى ما ياتي :

« حكمت الهي بالعذاب فيا ترى ... باي مكان فيه أنت تدين »

« فليس عذاب حيثما أنت كائن ... وأي مكان فيه لست تكون ؟

واننـي لا أدعو المسيح مخلصاً لـي لمجرد أنه سيأخذنـي عند موتـي من هذا العالم الشرير إلى أرض الغبطة والنقاوة والجمال فانني أؤمن من أعماق قلبي بأن الخلاص لا يتم للانسان بتغيير محيطه بل انما يتم له خلاصه بتغيير وتبديل أخلاقه ومبادئه . وأنا أنظر إلى المسيح كمخلص لي لأنه ، دون غيره من المعلمين ، قادر على تبديل أخلاقي وتغيير مبادئي .

ولا أنظر إلى المسيح كمخلص لي رغبة مني في أن يحافظ على سلامتي من الأذية والأخطار . لأنني لا أريد أن أكون سالماً من الخطر والأذية . ولا أسأل الله أن يحرسني ويحفظ حياتي من الخطر ، بل أصلي طالباً ما هو أفضل من هذا بما لا قياس له ، متوسلاً إلى الله ان يحفظني قوياً شجاعاً أمام أخطار العالم .

على أن أقوى غرائز الانسان إنما هي غريزة حفظ الحياة ، وقد قال شيشرون « ان الدفاع عن النفس أول شريعة من شرائع الطبيعة » . ولكن هنالك طريقين للمحافظة على الحياة ، الواحدة باقامة الجدران وقلاع الدفاع حول الحياة والثانية بتقوية الحياة الداخلية في اعماقنا وتشجيعها لتدافع بذاتها عن ذاتها . فالطريقة الواحدة تأمر بالبعد عن كل ما يؤذي أو يسبب فساداً أو ضرراً ، والثانية تأمر بتقوية ما فينا من قوات الصحة والحياة لمحاربة الأمراض أين وأيان هاجمتنا . فالواحدة تلبسنا درعاً للمحافظة على سلامة أجسادنا والثانية تضع في يميننا سيفاً . أما أنا فاتخذ يسوع مخلصاً لأنه يقوي غرائزي المقاومة للشر . وينعش ما فيّ من الشجاعة ، والرجاء ، والقوة الحيوية ويملأ كياني همة ونشاطاً . ولذلك فانني لا أريد ان اعتزل العالم وابتعد عن الاشرار من الناس خوفاً من أن يتسرب إلى شيء من شرورهم ، لأنني واثق بأن في أعماقي قوة تقدر أن تبطش بالشر اينما وجدته ولذلك فهي لا تخافه ولا تخشى بأسه . على أن هذا النظام الآمر بالبعد عن الناس خوفاً من أن ينالنا شيء من شرورهم ربما كان صالحاً للاولاد الصغار حتى تنضج قوتهم ، ولكنه نظام فاسد مضرٌ للبالغين من الناس لانه يخنثهم ويذهب بقوتهم .

وقد قسم بعضهم النفوس إلى فقرية وذوات اصداف . فذوات الأصداف منها

تعتمد في المحافظة على سلامتها على اصدافها العظمية ، فتتخذ أصدافها الصلدة درعاً خارجياً تدرع به ليقيها طوارىء الزمان . واما الفقرية فقوتها كائنة في فقراتها الداخلية فاذا فوجئت ذوات الأصداف بخطر زحفت متحصنة داخل أصدافها ، واذا فوجئت الفقرية بخطر عمدت الى محاربته بقوتها والتغلب عليه . أما أنا فلا رغبة لي في أن أكون نفساً صدفية .

ولا أعتقد بأنني سأنفذ من الأخطار ، لا في هذا العالم ولا في العالم الآتي ، لانني أؤمن بأن الحياة شقيقة الاخطار وحيثما لا خطر لا حياة . أما إذا قدر لي أن أكون في مأمن أبدي من الخطر في السماء فذلك انما هو نتيجة لما سيكون لي من القوة للتغلب علي الأخطار والبقاء الدائم في السماوات وليس لان الجدران ستكون بالغة الارتفاع ويستحيل عليّ الافلات منها .

كيف أنظر إلى الصلاة

"الصلاة لا تغير الارادة الالهية ،
ولكنها تطبق الحياة عليها ."

انني أؤمن بالصلاة من أعماق قلبي . فأصلي في مخدعي وفي سكون وحدتي ، كما أشارك الناس في صلواتهم العمومية على انني أود أن أوضح في هذا الفصل خلاصة عقيدتي في الصلاة .

ان أفضل تعريف للصلاة ينطبق على فكري ويقنع قلبي هو هذا : « الصلاة هي إلباس الرغبات الفكرية ثوبا من الألفاظ الساذجة » فاذا صليت فانا أجهد فكري لأعبر بالألفاظ من أعمق رغبات نفسي . واوجه هذه الألفاظ الى رَوح اللّه المالئة الوجود لانني كلما فكرت به تعالى أشعر بأن قوته غير المنظورة تشجعني على ايضاح اسمى رغبات نفسي .

وكل ما أرمي اليه من وراء هذا العمل إنما هو السعي وراء ادراك القوة الكائنة في الارادة الالهية وتكييف ذاتي على ما تودُه لي . ولم أفكر قط في حياتي في ان اقيد ارادة الاب الكلي الحكمة بارادتي . لاني أعتقد بأن من الغباوة البالغة أن أسعى إلى مثل هذا الجنون . لان ما يريده الأب لي هو أفضل بما لا قياس له من جميع ما أفكر به لذاتي .

وانني أحب كثيراً أن أردد التشبيه الذي وضعه هُوارس بُوشْنَال في هذا الموضوع ، وخلاصته اننا عندما نصلي نشبه رجلاً جالساً في قارب صغير قريباً من الشاطيء وهو ماسك بيده حبلاً غليظاً مربوطاً إلى وتدٍ في الشاطيء ، وهو يشد به بهمة ونشاط ظناً منه بانه يجذب الشاطيء اليه والحقيقة أنه إنما يجذب ذاته إلى الشاطيء . وهكذا فانني وان خُيلَ اليّ اني أرغم اللّه بصلواتي لكي يفعل

لي على وفق ما اطلب منه ، لان ضعف مداركي العقلية لا يجد طريقة أفضل من هذه للتعبير عن رغباتي ، فإن وراء كل هذا تركع رغبتي الخفية ضارعة إلى الله وقائلة ، « لتكن مشيئتك انت ، لا مشيئتي »

لاجل ذلك لا أؤمن بما يسميه الناس ، « الاجابة الخصوصية عن الصلاة » ، فانا لا أصلي إلى الله أن يمطر على الأرض أو يحدث أقل تغيير في ناموس الطبيعة ، ولا أطلب منه تعالى ان يعطيني مالاً أو صحةً أو أن يحرس حياة أهلي وأحبائي . لان أبي السماوي في جميع هذه يعرف ما أنا في حاجة اليه أكثر مني . وكل ما التمسه بالصلاة ان أكون قنوعاً ، راضياً بكل ما أناله من عطايا الحياة ، قادراً ان أعيش مطمئناً به تعالى راضياً بنظام الحق العظيم قابلاً بما قسمه لي في هذه الحياة .

على ان هنالك كثيراً من الآيات التي يتسلح بها البعض للبرهان على ان يسوع قال ، ان كل ما نطلبه بالصلاة ونحن مؤمنون يكون لنا . ولكنني اعتقد بأن أمثال هذه الأيات الشعرية الرمزية إنما هي نوع آخر من التعبير الشرقي الجميل الذي إذا لم ننظر إلى روحه أكثر من حرفه تضيع علينا فائدته وربما زادنا بلبلة وتشويشاً أكثر من ذي قبل . فتصور أيها القاريء العزيز ان في هذا العالم الذي نعيش فيه بليون ونيف من أبناء الانسان وكل واحد منهم يركع مصلياً الى الله ، وافرض في ذهنك ان كلا منهم يريد نوعاً خاصاً من الطقس الذي يحبه ، فالواحد يلتمس شمساً تحيي بحرارتها زروعهُ ، والثاني يطلب مطراً يروي حقوله المتعطشة ، والثالث يلتمس ريحاً شرقية ، وغيره يطلب ريحاً غربية ، إلى آخر ما هنالك من الرغبات البشرية المتناقضة ، فيتمثل أمامك إذ ذاك انك تعيش في عالم تسود الفوضى في أنحائه وتعمّ البلبلة والتشويش جميع ابنائه ، لانه لا تسود فيه إرادة المهندس الحكيم الذي وضع شرائعه بل تتحكم فيه الملايين من الرغبات والشرائع التي يسنها البشر الجهلة .

ويلوح لي ان الصلاة قد تحولت في الناس إلى عادة ملازمة وأصبحت من الرغبات العادية التي يمارسها الانسان على مقتضى ظروف الزمان والمكان . أما

أنا فإنني قلما أصلي راكعاً على ركبتي لانني أعتقد بأن اللّه كما أؤمن به لا يريد البتة أن يراني ساجداً أمامه كعبد ذليل حقير ، فهو ليس بالسلطان الظالم أو السيد الجائر ليتلذذ برؤية رعاياه يزحفون على الأرض متذللين . بل هو أبٌ وصديق عطوف ولذلك يريد أن يأتي اليه أبناؤه وأصدقاؤه كما يأتي الابن إلى أبيه والصديق إلى صديقه . على انني اركع على ركبتي أو أقف منتصباً في الصلاة على مقتضى الظروف عندما أكون في الكنيسة مع بقية أبناء طائفتها ، ولكنني افعل ذلك من قبيل المحافظة على الأدب والابتعاد عن الشذوذ ، ولان ذلك لا يؤثر بي فعلته أم لم أفعله أما إذا كان فريق من الناس لا يصلون الا وهم راكعون فانني بملء ارادتي اسجد راكعاً معهم ، بيد انني اسجد إكراما لهم لا إكراماً للّه لان اللّه لا يطلب ذلك مني وانما هم يطلبون .

واحب ان اشارك الناس في صلاتهم العمومية ، سواء قرأتها في كتاب كما في الكنائس الشرقية والكنيسة الابيسكوبالية والرومانية ، أم أصغيت إلى الواعظ كما في الكنائس البروتستانتية الأخرى ، لانني اتشجع وازداد قوة بأن أرى إخواني في الانسانية متحدين معي في الدنوّ من هيكل اللّه الغير المنظور ، ومهما كنت واثقاً بصحة ارائي وسلامة عقائدي فلربما ظهر اخيراً ان هذه الآراء وهذه العقائد ليست بأفضل من غيرها ، وان الاب السماوي يقبل شركتهم في الصلاة افضل من شركتي .

لان كل ما أقوله في هذا الكتاب ليس من باب الجدل والمماحكة ، لاظهار تفوقي أو أنانيتي ، بل إنما هو اعتراف بسيط أودّ أن أظهر به حقيقة عقيدتي بطريقة أحافظ بها على الصراحة والأمانة والاستقلال الذاتي .

كيف أنظر إلى الروح القدس

"ان الانسان روح استطيع أن أنظر الجسد الذي تحل فيه . وأما الله فروح لا أستطيع أن أنظر جسدها . أما روح الله فهي الروح القدس"

انني أؤمن بالروح القدس ، ولكن ايماني هذا لا يبنى على أساسات ما فوق الطبيعة أو غير ذلك من الخوارق . لاننا اذا تكلمنا عن روح الانسان فنحن نقصد بذلك ذات الانسان الحقيقية التي بها نعرف ان الانسان أرقى من الحيوان . لان الانسان فكر أو روح لها جسد مادي تحل فيه ، وليس الانسان جسداً مادياً تحل فيه روح أو فكر . هذه عقيدتي الراسخة في شأن الانسان وأنا أتمسك بها لانني أجد أنها أقرب إلى العمل والفكر من العقيدة القائلة بان الانسان حيوان مفكر .

وكما ان الانسان روح استطيع أن أرى الجسد الذي تحلُّ فيه ، هكذا اللّه روحٌ لا أستطيع أن أراها . وفي الناس نفرٌ من ذوى التأثير الصالح عليّ وهم في نظري أرواح صالحة ، وروح اللّه لها على حياتي أعظم التأثير وأنفعه وخصوصاً بواسطة يسوع المسيح ، ولذلك فهي روحٌ مقدسة ، ولكن قداستها قد تناهت في الكمال حتى انها بحق تدعى الروح القدس .

وأما موضوع الثالوث ، فسواء كان اللّه واحداً في ثلاثة أقانيم ، آب وابن وروح قدس ، أم كان إلهاً واحداً بغير أقانيم ثلاثة فان ذلك موضوع لا أستطيع أن أفهمه وهو أسمى من أن يبلغ فكري إلى إدراكه . وهو لا يؤثر في حياتي المسيحية قط طالما أنا أؤمن بتأثير هذه القوة الالهية العظيمة في جميع مظاهر حياتي .

وأما الرأي السائد على الناس بأن اللّه يغضب عليّ اذا لم أؤمن بموضوع لا أفهمه وينتقم مني شرّ انتقام فهو في عقيدتي وهم لا حقيقة دونه .

غير انني في مقدمة الراغبين في مشاركة الناس في تقديم الاكرام والعبادة للروح القدس والانخراط في سلك المرتلين والمسبّحين بحمده وشكره . ولكنني اعتقد بان لي كما لكل إنسان ملء الحق في إيضاح حقيقة معتقدي .

فان اللّه روحٌ بالحقيقة ، كما ان الانسان روح بالحقيقة . وانه لمن الضلال أن نقول ان الانسان أو اللّه لهما روح فيهما بل يجدر بنا أن نقول ان كلا منهما روح بذاته ولكن روح الانسان هي نسمة علوية خالدة من روح اللّه . ولذلك أوضح النبي هذه الحقيقة بجمال شعري فتان بقوله ، « ان روح الانسان مصباح الرب » .

ما لا أقصده

عندما أقول أنا مسيحي

" ان الناس لا يدركون ما تقصده بكلامك

حتى توضح لهم ما لا تقصده "

انني لا أخص بمسيحيتي

عقيدة من العقائد المقرّرة

"ان عقيدتي جامعة تشمل جميع العقائد . وانني بملء اختياري أدعو كل إنسان يتبع خطوات يسوع بامانة واخلاص أخاً حبيباً لي" .

انني لا أعتقد بأن ارادتي تنطبق على العقائد المقررة في أية كنيسة من الكنائس . وأشك كثيراً في ما إذا كانت كنيسة من الكنائس تقبلني كأحد أعضائها المتمسكين بطقوسها وتقاليدها . ومع ذلك فانني استطيع أن أكون عضواً في أية كنيسة من الكنائس المسيحية من غير ان تتأثر عقائدي الخاصة ومبادئي . وأثق بأن السلطات الكنائسية المختلفة لا تطردني من الشركة معها لأنني لا أعترض على عقيدة ما من عقائدها التي لا أؤمن بها . وأنا لا أفعل ذلك رغبة مني في الخداع والمراوغة ، كلا ، ولا لأني سهل الانقياد إلى التصديق بما لا أؤمن به من العقائد و الآراء . بل أنا أفعل ذلك لأني أعتقد بأن العقائد والنظم المختلفة التي يقوم الخلاف عليها في الكنائس المسيحية انما تتألف من قضايا متعددة لم يعرف شيئاً منها أحد من مشترعي العقائد كما انني لا أعرف عنها شيئاً . وأكثر هذه العقائد تتألف من قضايا نظرية قد طالما كانت موضوع مناقشات ومجادلات حادة بين الطوائف المسيحية ، وقل بين هذه القضايا ما له أقل تأثير في المواضيع المتعلقة بالحياة المسيحية .

وبعبارة وجيزة أقول ، انني من صميم قلبي أسلم بالمخرج العام المشترك

الذي يضمّ كسور العقائد المسيحية كلها إلى وحدة واحدة . فان هنالك عقائد عامة تؤمن بها جميع الكنائس المسيحية . وهنالك غيرها من العقائد والطقوس الخصوصية التي تؤمن بها هذه الكنيسة ولكنها تختلف عن العقائد والطقوس الخاصة الأخرى التي تؤمن بها تلك الكنيسة . أما أنا فانني أؤمن بالعقائد العمومية التي يؤمن الجميعُ بها وأما العقائد والطقوس الخصوصية التي لكل واحدة منها منفردة عن رفيقاتها فانها قلما يهمني أمرها وسواء عندي حق هي أم لا .

ولزيادة الايضاح نقدم هذا المثل ، اذا ضمك مجلس فيه ممثلون من جميع الفرق النصرانية من بابا رومية إلى السيدة ماري ادي (مؤسسة فرقة الكريستيان سيانس « العلم المسيحي ») إلى يوليم بُوث زعيم جيش الخلاص ، وسألت كل واحد منهم رأيه في التثليث ، وطريقة اتمام المعمودية بالرش أم بالتغطيس ، والكهنوت ، والنعمة الرسولية ، وأنواع السلطة في الكنيسة ، والمطهر ، والعصمة ، والخمير والفطير وغير ذلك فانك تحصل على اجوبة بمقدار عدد المجاوبين وكل منهم يناقض الآخر . غير انك إذا سألتهم ما الاجدر بالانسان ان يكون أميناً أم خائناً ؟ نقياً أم مدنساً ؟ تقياً أم مجدّفاً ؟ قائداً لذاته أم أن يكون قياده في يد غيره ؟ عفيفاً أم شهوانياً ؟ فان كل واحد منهم يجيبك بنفس الجواب الذي يجيب به رفيقه .

ولعل هذا ما دعا أمَرْسون ان يقول ، « ان جميع الرجال الابرار في العالم يدينون بدين واحد »

على ان جميع الخلافات المستحكمة بين الكنائس المسيحية هي من اعمال الماضي المظلم . وقد نشأت هذه الخلافات في مواضيع يندر ان يكون في أية كنيسة كانت في هذه الأيام مَنْ يعيرها أقل اهتمام . واذا قام الخصام اليوم بين أبناء هذه الطائفة وتلك الطائفة فانما هم يحاربون بعضهم بعضاً لأجل الخصومات القديمة التي كانت في أيام أجداد أجدادهم وقلما يوجد بينهم من يعرف الاسباب الرسمية التي دعت الى الخصومات . وأما المباديء التي توجد

في جميع الكنائس على السواء والجميع يؤمنون بها إيماناً واحداً فهي الأرث الوحيد الذي ورثناه عن آبائنا وسيظل عاملاً نافعاً لأبنائنا وأحفادنا وأحفادهم من بعدهم . وأما المباديء الخصوصية الباقية فهي أشبه بمصران الزائدة المعوية في جسم الانسان .

فان كل ما تقوم به هذه الزائدة من الخدمة للانسانْ في التطورات الحديثة انها كثيراً ما تلتهب وتنذر حياته بالموت اذا لم يبادر إلى قطعها للحال .

وان السبب الحقيقي لوجود الطوائف المتعددة في جسم المسيحية في الوقت الحاضر مع انها ادركت الضرر العظيم الناتج عن ذلك ، فهو ان كل طائفة قد الفت من افرادها مجموعاً منظماً له شرائعه وقوانينه ، فبنت لذاتها الكنائس والأندية والمدارس ، ونشرت دعوتها بواسطة الوعاظ ، والمبشرين ، والكتبة ، والمعلمين ، والوكلاء ، والكهان ، والأعوان ، وعينت لكل منهم عملاً خاصاً به يتقاضى لقاءه أجرة معينة ، ولذلك لم تبق ثمتَ من وسيلة لهدم كل هذه المؤسسات وطرد جميع الموظفين من وظائفهم وأعمالهم .

ولا يختلف الحال في الكنائس عما هو في دور الحكومة فان كل عاقل يعرف ان النظام الحاضر السائد في العالم الذي يقسم العالم إلى أمم مختلفة لكل منها حكومتها ومصالحها المناقضة لمصالح الأخرى انما هو نظام هادم نهايته الخراب والشقاء ، وبالعكس من ذلك النظام الذي يقول بتوحيد جميع ممالك الأرض في مملكة واحدة . ولكن هذا يقتضي للقيام به زمان طويل . فان التنظيم والتوحيد هما أشبه بالنماء ، فاذا جربت أن تعجل فيه فإنك تكون كمن يقضي عليه ليفسح المجال للفوضى والاضطراب . مثل هذا حدث في الثورة الفرنسية ومثله حدث في روسيا عندما دحرجوا عرش القيصر وعوضوا عنه بالبلشفية . فعندما سعى القوم في فرنسا وروسيا إلى تغيير النظام القديم وتبديله بنظام أفضل تمّ لهم تحطيم قوى النظام القديم ولكن الفوضى كانت نتيجة أعمالهم ولو إلى حين ، وسدّت في وجوههم المسالك المؤدية إلى النظام . ومع أن الناس في جميع أنحاء العالم يرغبون في الوحدة بين الكنائس المسيحية فإن هذه الوحدة لمن أشق

التغييرات التاريخية لان العادات ، والتقاليد ، والمصالح ، والرغبات المتحكمة في العالم المسيحي يجب أن تتغير كلها وتبدل بما هو أفضل للوحدة الجديدة . وذلك لا يتم دفعة واحدة بل يقتضي له زمان طويل .

وكما سبقت فقلت ، أقول الآن ، ان ما يقوم بين الكنائس المسيحية من الخلاف والخصام انما هو تاريخي أكثر مما هو عملي . فإن الخلاف الذي يفصل بين الكنيسة الانكليكانية وكنيسة المثوديست ، مثلا ، إنما هو خلاف حصل في النظر الى موضوع تسلسل الكهنوت من الرسل الى اليوم ، ولكن الحقيقة التي لامريّة فيها انه قلما يوجد بين أعضاء هاتين الكنيستين مَنْ يُدرك حقيقة هذا الموضوع أو أنه على الأقل يهمه أن يدرسه ليَسْبُرغورَه . ولذلك فان الخلاف بين هاتين الكنيستين قائم على اختلاف بسيط في التقليد والعادة ، والطقس ، والتنظيم والشعور . غير أننا إذا نظرنا إلى الحقيقة المجردة نرى ان في كل من الكنيستين أعضاء كثيرين من خيرة المسيحيين يظهرون بأعمالهم الصالحة وسيرتهم الشريفة أنهم يؤمنون إيماناً واحداً بالرب يسوع وزعامته السماوية للحياة البشرية ، ويجربون على السواء أن يقتفوا خطواته الصالحة .

والخلاف بين الكنيسة المعمدانية والكنيسة المشيخية (البرسبيتيريان) إنما هو قائم على طريقة اتمام المعمودية . ولكنك قلما تجد عضواً في هاتين الكنيستين يؤمن بأن الطريقة التي تتم بها المعمودية سواء كانت بالتغطيس الكامل أم بالرش لها أقل تأثير في تكوين الأخلاق والآداب المسيحية . فالخلاف كائن بين هاتين الكنيستين ولكنه نتيجة لقوة استمرار الماضي في الحاضر .

ولاشك ان العقيدة ضرورية للناس . لان الانسان لا يستطيع أن يفكر البتة ما لم يكن له موضوع يفكر به . أما هذه العقيدة الضرورية التي سادت وتسود على جميع الكنائس فانما هي المخرج المشترك العظيم الذي يضم جميع صور الطوائف تحت جناحي الايمان بزعامة يسوع والحقيقة الخالدة الكائنة في المباديء الشريفة التي نطقت بها شفتاه وأيّدتها سيرته وأعماله في حياته .

انني لا أخص بمسيحيتي

الخضوع لأي نظام من النظم دون غيره

"لا تعني المسيحية بسيرة الانسان مالم
تكن سيرته ثمرة من ثمار أخلاقه الصالحة"

ان مسيحيتي لا تضطرني البتة إلى أن أطبق سيرتي على أي نظام من النظم التي تعرضها هذه أو تلك الكنيسة دون غيرها . فان هنالك كثيراً من الأعمال التي أعملها بفطرتي ولكن هذه النظم تمنعها وتحتقر من يعملها . وهنالك كثير من الأعمال التي تجعلها في مقدمة الواجبات الضرورية ولكنني أهملها في سيرتي وقلما أعبأ بها . لأجل ذلك لا أريد أن أنخرط في عضوية أية جماعة تريد أن تقيد حياتي بقيود الطاعة العمياء لأوامرها : ولذلك سأظل خارجاً عن بعض هذه الجماعات ولكن البعض الآخر الذي لا يتطلب مني مثل هذه الطاعة العمياء أستطيع أن أنخرط في عضويته .

فان صحيفة أعمالي حرّة طليقة من سطور الطائفية وبنودها ولم يخطر لي قط أن أفكر في كيف تنظر الطائفية إلى أي عمل من أعمالي قبل أن أقوم به لان لي اليه دافعاً غير ذلك . لأن القوة التي تدير سفينة حياتي كائنة أولاً في نظري إلى أن أجعل سيرتي مطابقة لمباديء يسوع الخالدة ، وبعد ذلك في اصغائي إلى الصوت العميق في داخل ضميري ، ومراعاتي لعواطف عائلتي ، وجيراني ، واخواني في الانسانية التي أنا عضوٌ منها . ولذلك أبذل قصارى جهودي لكي أطبق حياتي على أسمى العادات والتقاليد العاملة في المحيط الذي أعيش فيه ، والابتعاد عن أي عمل من شأنه أن يزعج سلامة الذين يعتقدون بخلاف ما أعتقد من غير أن أحتقر أياً منهم أو أعترض على مبادئه لأني أعتقد بأن ما عندي من

القوة للاعتراض على مبادئه يجب أن أحتفظ به لما هو أفضل من ذلك وأكثر ثمرة للانسانية قاطبة ، وكل ما أطمحُ اليه أن لا أحتقر أحداً من الناس الذين أعيش بينهم وألاّ اتلفظ بكلمة أو أباشر عملا يجرح عواطفهم وحاساتهم ما لم تدعُ إلى ذلك حاجة ماسةٌ لابدّ منها .

ولكن هذا كله في عقيدتي لا دخل له في الكنيسة أو في الدين . لأنه مظهر من مظاهر المدنية والتهذيب والعاطفة الصالحة . فانني لا أعتقد بأن الدين يقوم بالنظم المتضاربة التي تضيّق مسالك الحياة بل هو عبارة عن مبادىء عمومية لتهذيب الروح وتدريب الفكر في مناهج الحق والحياة .

انني لا أقصد بمسيحيتي

انني قديسٌ طاهر

"ليست المسيحية لاقلية مختارة من
الناس . لانه ليس على الأرض من أمة أو
شعب لا يستطيع أن ينتفع من مبادئها"

إذا قلت أنا مسيحي فان ذلك لا يعني انني قديس طاهر لانني لا أنا بالقديس ولا أنا بالمتظاهر بالقداسة . ولكن الحقيقة التي لامرية فيها انني فردٌ من الناس الذين يرغبون في أن يعيشوا بحشمة وأدب في المحيط الذي حولهم ، وانني لست بأفضل منهم ولا أردأ من الرديء فيهم ، وأعرف الكثيرين من الناس الذين لا علاقة لهم مع كنيسة البتة ولكني احترمهم كل الاحترام لشهامتهم الحقيقية وسمو أخلاقهم ، ونقاء سيرتهم ورقة أرواحهم . وأعرف الكثيرين من الأعضاء العاملين في الكنائس الذين لا يتخلفون عن حضور أية حفلة أو خدمة لكنائسهم ولكنني أودّ مع ذلك جميعه ان أظل بعيداً عنهم سحابة حياتي . غير ان هذا لا يعني أن الدين لا فائدة منه ، كلا ، وألف كلاً ، بل انما يوضح بأجلي بيان ان هنالك كثيراً من الناس ، في الكنيسة وفي خارج الكنيسة ، قلما يدركون من حقيقة الدين ما يدرك كاتب هذه السطور من لغة الصين .

وفوق ذلك فانني لا أقصد البتة بمسيحيتي انني قديس طاهر كما يفهم الناس من القداسة والطهارة . لانني لست من المؤمنين بالعبادات السرّية والألفاظ السحرية . فلا اقضي ساعات طويلة في الصلاة . ولا أعتزل العالم اياماً وأسابيع لكي اجتمع بالروح الكلي واحظي بالانشقاق السماوي باتحادي مع روح اللّه ،

لانني أعتقد بأنه أفضل لي بأن أسعى إلى معرفة ما يريده الله مني بأعمالي وبالقيام بواجباتي اليومية بطريقة تحسن في عينيه تعالى . وانني أذكر ان يسوع قد قال في الانجيل ما يؤيد رأيي في هذا الموضوع انه في اليوم الأخير سيأتي اليه كثيرون ويقولون له ، « ألم نتنبأ باسمك ، وباسمك ألم نصنع العجائب ؟ » فيجيبهم الرب قائلاً ، « لماذا تدعونني يا رب ، يا رب ولا تعملون ما أقوله لكم ؟ أبعدوا عني أيها الملاعين اني لم أعرفكم قط » .

على انني قد رأيت في حياتي من الرؤي والاعلانات والمظاهر الروحية بمقدار ما رأى أبعد الناس شعوراً وخيالاً . ولكن هذا كله لا يستطيع أن يكون لي أساساً راسخاً أبني عليه دعوتي المسيحية ، وقد طالما أثرت في حياتي الدروس والتأثيرات النفسية فعمدت إلى درسها وانتقادها والريبة منها ولكنني لا أؤمن بالانذارات السابقة ، ولا بالأرواح الشريرة والمناجاة والرسالات الروحية . ولا أعتقد بان الانسان تقوده الأرواح في حياته حيثما شاءت بحيث تضيع ارادته ، وذلك بطريقة فائقة الطبيعة . وأعرف انني أحد أفراد أبناء الانسان الذين ورثوا الأوهام والخرافات عن اسلافهم المتقدمين على ممر ألوف السنين ، وآثار هذه الخرافات ظاهرة في جميع أعمالهم لكل ذي عينين ولكنني أنظر إلى ذلك كله نظري إلى وسخ أدبي علق بذهن الانسانية . وعليّ كعاقل بصير ان اغسله غن ذهني ليظل فكري نقياً صافياً . ولذلك فاني اعتقد بأن جميع الخرافات القديمة الباقية اثارها وكل ما يخامر نفوسنا بسببها من المخاوف والتخرصات والسحر والرعب أوهام لا شأن لها مع الدين الحقيقي بل هي آثار للبربرية التي نشأ عنها الجنس البشري .

ان مسيحيتي لا تضطرني

إلى اتباع تعاليم يسوع بتذلل والاقتداء بحياته بخنوع

"ان ما أنا له من يسوع هو أقصى درجات الحرية."

ان أفضل ما أعبر به عن الحقيقة التي تدفعني إلى القول بأني مسيحي هو الكلمة البسيطة التي يفهمها كل ذي شعور سليم في العالم أنني أجرب ان « أتبع » خطوات المسيح . وهذه الكلمة « أتبع » هي بالحقيقة كلمة جميلة ولذلك أحب مضمونها : فأنا لا أجرب ان أقتفي آثار المعلم الصالح بتذلل وجهل مقرونين بعدم الفهم لأنني أعتقد بأن كل معلم صالح يريد ان جميع المؤمنين به يدركون معنى تعاليمه ويفهمون الغاية من حياته حتى إذا تبعوه عرفوا أين يسيرون . لأن يسوع لا يريد أن أتبعه في طريقه صامتاً ، بل يريد أن أتخذ من مبادئه طريقاً خاصة بي اسير عليها حراً طليقاً . فعوضاً عن أن أقول انني أعمل مثل المسيح ، فاني أعتقد بأني أكون تلميذاً أفضل إذا قلت انني أتصرف على وفق طريقتي وأنا باذل قصارى جهدي لجعل هذه الطريقة طبق رغبة معلمي يسوع . لأن الفرق عظيم جداً بين الاقتداء بالمسيح بذلة وصغارة وبين العمل بتعاليمه عن إدراك حقيقي لفائدتها الخالدة وقد قال يسوع مرة ، « تعرفون الحق والحق يحرركم » . ولذلك فاني بمعرفتي للحقيقة المسيحية أحصل على أقصى درجات الحرية .

وان من أشرف صفات المعلم العظيم أنه يحررك من عبوديتك ، لأنه يقوي وينعش قواك المفكرة للسيادة على مجاري حياتك . ولا يقيد شخصيتك بقيود ثقيلة تربط تعاليمه ومبادئه . لان المبتدىء في درس الموسيقى عندما يشرع في

تفهم المبادىء الأولية والسعي إلى تحديها في عمله يصبح صدى بسيطاً يردد أنغاماً أردأ مما تعلمه . ولكنه عندما يدرس بيتهوفن وشوبان فانه يجد ان أفضل ما في نفسه من الانغام قد استغرق منها من حيث يدري ولا يدري . وانني اعتقد بان وجودي في هذا العالم إنما هو واسطة لايضاح حياتي بأفضل ما أقدر عليه من التعبير ،ويسرني أن أسمي نفسي تلميذاً ليسوع لأنه هو الذي يستطيع أن يساعدني على هذا الإيضاح بما لا يساعدني به معلم سواه .

وعندما أقول أنا مسيحي انما أعني انني أتخذ مبادىء يسوع دليلاً لي في حياتي الحرة أكثر مما أعني انني أتبع جميع وصاياه مرغماً . وأنا أخص بوصاياه النصائح الخصوصية والارشادات التي كان يعطيها لافراد مخصوصين في ظروف خاصة . واننا عندإعمال الفكرة في درس الإنجيل نستطيع ان نميز بين هذه الوصايا الخاصة والمبادىء العمومية التي هي المحور الوحيد لتعاليم المصلح الأكبر ولأعماله على الأرض .

ليست المسيحية

في عقيدتي نظام محرّمات ومُقدّسات

«ان إله المحرمات والمقدسات هو دون سواه
قد ملأ هذه الأرض بالزنادقة والمعطلين
لان الاله الذي علمنا يسوع أن نعبده لا
يستطيع أحد أن يرفضه أو يكفر به .»

انني على أتم الثقة بان كثيرين من قراء هذا الكتاب سيقولون ان مؤلفه لا يحق له البتة في أن ينتمي إلى دين من الأديان أو أن يدعى بأنه مسيحي من أبناء الإيمان . وعندي أن أمثال هؤلاء القراء محقون في قولهم إلى حد محدود . فانني بالحقيقة كافر في نظر أكثر أديان العالم الحاضرة وفي جملتها أكثر المذاهب والطوائف التي يخيل اليها انها مسيحية . لانني أعتقد بأن أكثر مبادئها التي تتمسك بها وثنية صرفة .

أما الفرق بين الوثنية والديانة الحقيقية فهو كالفرق بين الوهم الأعمى والايمان الناضج بالمعرفة . فالوثنية تحيي بالخوف والزجر عن هذا والنهي عن ذاك من الأعمال . والمبادىء الوثنية تكاد تكون جميعها نظما خرقاء لاستعطاف الله والتفكير لديه . أما طقوسهم واحتفالاتهم فانما يقصدون أن يكفوا بها غضب الالهة عنهم وجميع علومهم وبلاغتهم ومنطقهم موجهة للهرب من انتقام الالهة التي يعبدونها . وأما ذبائحهم فلتهدئة حدة غضبها ولتسكين ثائر انتقامها .

وانني أعتقد بأن كل فرقة من فرق النصرانية تدخل في مسيحيتها شيئاً من هذه الخرافات القديمة تكون وثنية ضالة عن سراط المسيح المستقيم لأنني

لا أستطيع أن أتصور البتة أن اللّه غضوب محب للانتقام . بل أنا أعتقد بالعكس بأن اللّه حليم رؤوف بمخلوقاته التي برأها وهو أب حنون يرحم الخطاة من أبنائه الذين أنا أولهم . فهو يحبنا جميعنا على السواء المرضى والأصحاء ، الأغنياء والفقراء ، الخطاة والقديسين ، الأبرار والسفاحين ، ويدير حركة الكون بحكمته لما فيه خيرنا وتقدمنا أجمعين .

واعتقد بان اللّه تعالت حكمته لم يكن قط في حاجة إلى ذبائح العجول والتيوس . كلا ، ولم يكن قط وحشاً ضارياً لا يلذ له سوى سفك الدماء البريئة والتلذذ بشربها . وكل ما نراه في العهد القديم من هذه الفظائع التي كان ينسبها العالم الى شخص اللّه تعالى إنما هو نتيجة لأن عقيدتهم باللّه لم تكن قد نضجت بعد . وقد جاء يسوع لكيْ ينقض هذا الرأي الناقص ويقدم للعالم تعليمه الخالد بابوّة اللّه ومحبته ورحمته الغير المتناهية وقد خلص العالم بتعليمه الذي قاده أخيراً إلى الصليب فقبله طائعاً ليؤيد بالامه عليه جميع تعاليمه الخلاصية .

لأجل ذلك سيبقى صليب يسوع إلى الأبد أسمى مثال للالوهية المتجسدة على الأرض . أما العواطف التي تختلج في قلبي لاكرام الصليب والحقيقة الخالدة التي يمثلها الصليب فهي لا تقل اخلاصاً عن عواطف أي كان من خلاصة رجال الطقوس والحروف . ولكنني أعتقد بأن هذه العاطفة يجب أن تكون حرة طليقة من قيود الرياء والتصنع .

ان الرجل العادي من الناس عندما يقول ان هذا الانسان تقي ورع بطبيعته إنما يعني أولاً : انه قد قيّد فكره بقيود عقائد وآراء مقررة ، وكثيراً ما تكون في مواضيع لا يعرف عنها شيئاً ، أو ثانياً : أنه تقي في ممارسة الطقوس والاحتفالات ، مثل الذهاب إلى الكنيسة ، والسجود في وقت الصلاة والاماتة بجميع اصولها وفروعها ، والمحافظة على السبت وأمثال ذلك ، أو ثالثاً : انه يحظر على نفسه التمتع بملذات معينة ، فانني عندما كنت صبياً كان على التقي الصالح ألاّ يلعب (بالورق) ، والا يذهب إلى المسارح العمومية وألا يرقص أو يحضر سباق الخيول .

وربما نظر الناس في هذا العصر إلى هذه الأمور نظرتهم إلى أشياء تافهة ولكن الحقيقة الناصعة ان هذه هي أقدم ديانة في العالم . هي ديانة المحرمات والمقدسات ، ديانة البركات واللعنات . فان الوفا من السنين قد مرت على الدين قبل أن بدأ ينظر إلى تعليم الآداب ، فقد كان في كل ذلك الزمان الطويل منشغلاً بتنفيذ النظم والشرائع التي تعلمك ان هذا الشيء مقدس وذلك ملعون مُنجس . ولم يعرف التاريخ أمة من الأمم الهمجية التي لم تكن لها محرماتها أو الأشياء المحظورة عنها ، ومقدساتها أو الأشياء المباركة عندها . ولا يزال حتى اليوم كثيرون من الناس ، الذين يخيل اليهم انهم متمدنون ، يحصرون ديانتهم بالمحرمات والمقدسات .

هذا هو جوهر الديانة الفريسية التي ثار عليها يسوع ليستأصل شأفتها من الأرض . وقد انتقده الفريسيون مرة لانه فيما كان يمشي بين الزروع قطف بعض سنابل الحنطة وفركها بين كفيه وأكل حبوبها في يوم السبت . وهذا ما دعا يسوع إلى التصريح بقضائه العادل على ديانة المحرمات والمقدسات بقوله المشهور : « ان السبت قد جعل لاجل الانسان وليس الانسان لاجل السبت » .

واذا قيل لك ان هذا الرجل كاثوليكي « فاضل » أو ابيسكوبالي « فاضل » أو مسيحي « فاضل » فانما يريد القائل ان يبرهن لك ان هذا الرجل الفاضل هو شديد التعصب في المحافظة على الطقوس المقررة في مذهبه في شأن المحرمات والمقدسات لا أن يوضح لك أن هذا الرجل فاضل لأنه ذو روح طيبة محبة للخير والفضيلة .

فان أكثر الناس يعتقدون بان الدين هو دعوة إلى الحرب فهم أعضاء في هذه الكنيسة كما ان الجنود أعضاء في ذلك الجيش . لانهم ينظرون إلى الدين نظرتهم الغبية إلى الوطنية العمياء التي هي ثمرة من ثمار خرافة تفريق العالم إلى أمم وممالك مختلفة يحارب بعضها بعضاً . ولما كانت هذه العاطفة المفرّقة البشر إلى فرق فرق ، قديمة العهد ممتلئة من الشر يسهل على الناس الشعور بها، فإن الكثيرين من زعماء الكنائس يستلذون نشرها وتعزيزها .

أما أنا فلا أعتقد بان الدين واسطة للتفريق . فسواء عندي سميته باباوياً أو أسقفياً أو معمدانياً أو مشيخياً أو غير ذلك من الطوائف المتعددة ، فما هو في عقيدتي الاوثنية حمقاء كالتي نشاهدها بين البرابرة في جزائر سليمان أو في اوساط أفريقيا ، بل هذه هي الديانة الفتيشية [1] بعُجَرها وبُجَرها . واذا كانت هذه هي الديانة الحقيقية فانني سعيد فخورٌ ان أكون كافراً بها وبمبادئها وكثيراً ما أجد بعض اثارها ما برحت عالقة بفكري فاشعر بخجل عظيم في أعماق قلبي .

أجل ان يسوع المسيح لم يعلم قط بمثل هذه الديانة ، ديانة المحرمات والدنسات . والاله الذي أعبده بروحي وأؤمن به من أعماق قلبي لن يرضى بتة أن أجهد نفسي بالجوع والجلد والتعذيب والاماتة والركوع ساعات طويلة لقهر الذات أو غير ذلك من الطقوس المقاومة للحياة ، بل هو بالعكس يريدني أن أكون قوياً جريئاً وديعاً حليماً ، وان استعمل كل ما عندي من العواطف ، وان افكر بكل ما أوتيت من الفطنة والادراك ، وان أعيش ممتعاً بخيرات الأرض حراً إلى أقصى ما تبلغ اليه الحرية المقدسة ، هذا هو الاله الذي استطيع أن أعبده وأؤمن به أما إذا كنت على ضلال في عقيدتي وكان إله المحزمات والمقدسات هو الاله الحقيقي فانني لأفضل أن أكون بعيداً عنه حائزاً على سُخطه دون رضاه . لانني بالحقيقة أوفر صلاحاً من مثل هذا الاله . والإله الحقيقي الذي أريد أن أعبده إنما هو أبو ربنا يسوع المسيح الذي هو أفضل مني ومن جميع الناس بما لا قياس ولا حد له .

---

(١) العبادة الفتيشية أحط الأديان الوثنية ، وتوجد باشكال مختلفة عند الأمم المتعمقين في الجهالة نظير سودان أفريقيا . ويراد بالفتيش الشيء الذي له روح أو خيال عن الروح كالشجرة والصخر والبيض والشوك والحبوب والبلح والقرن وعروق الحشائش وما أشبه ذلك . – المعرب –

لأجل ذلك أثق بأن إله المحرمات والمقدسات هو دون سواه قد ملأ هذه الأرض بالزنادقة والملحدين . لان الاله الذي علمنا يسوع ان نعبده لا يستطيع إنسان أن يرفضه أو يفكر به . ولكن الاله الذي ابقت لنا الوثنية عبادته ، الاله السفاح الغيور ، المنتقم الظالم لا عجب إذا رأينا الناس يثورون عليه . ولولا انتقال فكرة هذا الاله الظلام المحب لسفك الدماء وقتل الأبرياء وسدل الحجب الكثيفة على مبادىء يسوع الشريفة ، لما قرأ العالم شيئاً من تهكمات فولتير وغيره من المعطلين . ولو عقلت الطوائف التي يشاق بعضها بعضاً لعدلت عما ورثته من المسيحية فاستأصلت جميع أعدائها .

الجوهر الحقيقي الذي أنظر اليه في المسيحية

"ان الكنيسة تمثل أفضل ما يستطيع
البشر السقماء بأفكارهم الملتمسون طرقهم في
ظلمة الحياة ان يفعلوه بوحي عجيب ."

ان جوهر المسيحية كائن في الحق الذي أوضحه يسوع بتعاليمه . هذه هي نفس القضية المسيحية ويجب أن يميز الانسان بينها وبين جسدها تمييزاً صادقاً . أما جسد المسيحية فهو ممثل بالجمعيات المختلفة التي أنشئت لتأييدها والسير بها إلى الأمام . والنظم والعقائد المتعددة لتنظيمها وترتيبها . ولكن هذا الجسد سقيم عليل ، فقد طرأت عليه تغييرات متنوعة على مرور الأجيال التي مرت به وسيظل عرضة للتغييرات الاجتماعية كما أن أجسادنا البشرية تتغير أبداً بشريعة النمو والانقراض . ولكن النفس تعيش إلى الأبد ولا تؤثر فيها تقلبات الزمان أو حوادث الأيام .

وكم هنالك من ذوي العقول الكبيرة الذين يتركون السكة السلطانية ويرمون ذواتهم في الحفر والأخاديد . لأنهم يخلطون بين نفس المسيحية وجسدها . يعني أنهم ينظرون إلي الكنيسة نظرهم إلى المسيحية .

لأنه إذا كانت المسيحية عبارة عن الكنيسة لا أكثر ولا أقل فان عليها أن تؤدي جواباً عن الخطايا الكثيرة والجرائم العديدة التي اقترفتها الكنيسة على ممر العصور كجمعية من الجمعيات البشرية . فان ما صدر من بعض زعماء

النصرانية من الغلو في التعصب ، والترفض ، والظلم ، والطغيان والطمع والجشع وراء الرئاسة وحب الصدارة لا تتفق البتة مع روح المسيحية النقية الطاهرة الفاتحة قلبها لكل من يقبلها أمام وجه الشمس .

ويجب علينا أن نضع نصب أعيننا أن ما تسميه عامة الناس مسيحية ليس من المسيحية بشيء ، بل هو اكداس مكدسة من التقاليد الموروثة ، والرغبات المحشوة بالحماسة والمخاوف والأوهام المختومة بخاتم المسيحية .

ان الكنيسة تمثل أفضل ما يستطيع البشر السقماء المتلمسون طرقهم في ظلمة الحياة أن يفعلوه بوحي عجيب . ويلوح لي ان الكنيسة تتقدم في كل يوم بخلع ما ورثته من التقاليد الوثنية الرثة ، ولكنها لا تزال عليها مسحة من صبغة الأجيال المتوسطة السوداء .

ومع كل ذلك فان القوة الكائنة في يسوع والوحي السامي المتدفق من ينابيع تعاليمه عظيم بهذا المقدار حتى ان القليل منه الذي تتمسك به الكنيسة قد كان كافياً لتأييد كل ما نشاهده من الخير والصلاح في أعمال الكنيسة .

وانني اقتطف بهذه المناسبة فقرة من أقوال هافلوك اليس الذي قال فيه المستر مانكن ، « لا أشك بتة في أن هافلوك اليس هو أوفر مدنية من جميع الانكليز الأحياء » . وقد أوضح بهذه الفقرة كيف ان الهيام النقي الذي يختلج في قلب الراغب في درس الدين وتعرف اسراره كثيراً ما تقبض عليه اشباح الماضي وتقيده بطائفة من التقاليد العمياء التي تفل ارادته وتقوده حيثما شاءت وطاب لها الهوى . قال :

« ان نير التقاليد ، والمجامع ، والطوائف ، والعشائر ، قد طالما كان ضربة قاضية على العاطفة الدينية كما على العاطفة العلمية . ولا أجد بي من حاجة الى ايضاح الطريقة التي يقضي بها ثقل هذا النير على العاطفة الدينية . فان هذه الحقيقة واضحة وضوح الشمس في رائعة النهار ، لانه عندما تنبت نبتة العاطفة الدينية في نفس من النفوس الفتية تتراكض غيلان الكنائس من كهوفها فتقبض على الضحية التاعسة للتأثير الالهي في قلبها وتشرع في التأكيد لها بان ما تشعر

به من الهيام الديني ليس مظهراً من المظاهر الطبيعية الحره كنور الشمس الجوادة كقلب الزهرة ، بل انما قد طبع بطابع القوة الفائقة للطبيعة وقيد الى الأبد بقيود العقائد النظرية الميتة وهكذا تقع النفس الفاتحة قلبها لاول مرة لنور الدين فريسة لطعم هيامها فيطبق عليها الفخ وتمسي سجينة بائسة يسير بها دليلها الأعمى إلى حيث أراد : فينتف الريش عن جناحيها ويجردها من كل ما فيها من قوة ورفعة حياة ، وهكذا يقضي عليها قضاء مبرما فتظل راسفة في قيودها إلى الأبد . »

ما هي القوة المجددة في المسيحية

ماذا يغير فكرك من مبادئها؟

"غاية المسيحية الرفعة لا الاقناع"

اغناطيوس

اذا قلت انك قد غيرت فكرك فانك تعني أكثر من انك غيرت رأيك أو انك تشعر بخلاف ما كنت تشعر به قبلاً . بل انت تقصد أكثر من انك قد بلغت إلى رأي جديد غير رأيك القديم . ولكنني لا أستطيع أن أعبر عن هذا التغيير الفكري تعبيراً صحيحاً ، بيد انني أشعر بأنه أعمق وأقصر من جميع ما ذكرت من التبديلات .

على انني قلما يهمني أن أقدم اسماً علمياً لهذا التغيير لانني انما أكتب لقوم يريدون أن يفهموا جوهر موضوعي لا ان يشغلوا اذهانهم بالاصطلاحات الوضعية والتراكيب العلمية .

ولكن كيفما كانت هذه القوة المجددة في المسيحية فهي قوة تغير فكر الانسان لأنها تزيد في ترقيته ونموه ، فينال منها أضعاف ما فيه من الترقب والسهر . فهي والحالة هذه قوة عظيمة تهدمه ثم تبنيه أفضل مما كان .

ومن شر الأوهام السائدة في العالم ان العقول البشرية تتغير، أولاً بالدليل والبرهان ، ثانياً بالخوف .

ولكن الدليل لايؤثر بغير العقل . والعقل ليس بالحقيقة سوى مدير للشخصية الانسانية ينظم قوتها ولكنه لا يستطيع أن يجهزها بقوة جديدة .

وانك اذا أعملت الفكر في حياتك اتضح لك أن أفضل ما ظهر لك من الحقائق في الوجود انما كان نتيجة للنمو في القوى الفكرية الداخلية والحصول على خيال أبعد من الصعود إلى أعلى ما تبلغ اليه قواك حيثما استطعت أن تبصر

أفضل ما في الأصقاع التي أشرفت عليها من المناظر الجميلة .

وكثيراً ما تشعر بتغيير عظيم في فكرك ولكنك لا تعرف كيف حصل ذلك التغيير ولا من هو الذي أحدثه فيك ، لأن أعظم ما يطرأ على حياة الانسان من التغيرات الفكرية انما هو تلك التغيرات التي يعجز الانسان عن ادراك اسبابها .

وأما تغيير الفكر الناتج عن الدليل أوالبرهان فهو تغيير محدود . لانك إذا أقنعت رجلا بأدلتك وبراهينك وارغمته على التسليم لك بعقيدتك لأنك تستطيع أن تتكلم بصوت أعلى من صوته ولك جلد على الكلام أكثر منه ، أو لانك أكثر منه دهاء وأوفر حيلة ومكراً ، وهو بطيء الذهن ضعيف الحجة بالنسبة اليك ، فإنه ربما يقول لك ، « حسن يا صاح ، فأنت محق في أدلتك وبراهينك ، وأنا مخطيء في عقيدتي . ولذلك اسلم لك . » وربما ذهب الى بيته مقتنعاً بصدق رأيك ، ولكنه في الغالب يعود إلى ذاته في الليل ويراجع أقوالك وأقواله في الموضوع فيتذكر انه كان يجب ان يقدم كذا وكذا من الأدلة لنقض أدلتك ولكنه لم يفعل ذلك لانك لم تترك له مجالاً . ولذلك تتسرب الريبة الى ذهنه فيعود الى رأيه الأول معتقداً انك مخطيء دونه . ولكنك إذا طرحت أمامه موضوعاً وطلبت اليه أن ينظر فيه ويقرر خلاصة ما تبلغ اليه نضاجة عقله فان التغيير الذي يصير اليه يكون معتدلاً ثابتاً، لأنه يعرف اذ ذاك أنه قد أقدم بملء اختياره عليه ولم يضطره أحد اليه .

لأجل ذلك لم يحاول يسوع ولم يقدم أدلة أو براهين على ما جاء به من الحقائق فقد اقتصر على تقرير ما كان يريد أن يقوله بقوله « قد سمعتم انه قيل - كذا وكذا ، أما أنا فأقول لكم - كذا وكذا » . هذا كل ما كان يقوله ولم يجرب قط ان يبرهن على صحة قوله ، وليس هذا نتيجة لما كان له من السلطان العظيم ، بل هو طريقة المعلم البالغ المعرفة في الشريعة الملائمة لجميع النفوس . فقد عرف ان الاشارة الى الحقيقة أفضل من البرهان على صحة الضلال .

لأن أفضل المعلمين هو ذلك الذي يحمل كيس بذاره ويسير في حقول العقول البشرية زارعاً كيفما سار . فهو يبذر بذاره ، لكي يفرخ وينمو ، ولكنه لا يملأ سلة من التفاح او صهريجا من السوائل لأن الفكر الانساني لا هو بالزنبيل ولا هو

بالبرميل . بل هو كائن عضوي حي قابل للنماء .

وكل ما نحتاج اليه في طور تغييرنا ونمائنا أن نفتح عيوننا ونبصر الحق ونجني من ثماره اليانعات .

أجل ، بل يجب أن نأكله خبزاً حياً ونشربه ماء محيياً ، لكي يجري مجرى دمائنا في عروقنا ، ويختلط بطبائعنا وأفكارنا . لأن المعلم الأعظم قال ، انه هو خبز الحياة وماؤها وخمرتها المنعشة . وأما الحقائق المتراكمة بعضها دون بعض التي نتعلمها عن طريق عقولنا فما هي الا طريقة للنمو في الحق ، كما ان القواعد المسطرة التي يقرأها المبتدىء في تعليم السباحة انما تظهر له كيف يسبح . فالحقائق العقلية لها مركزها ، وقواعد السباحة لها مركزها ، ولكن لا هذه ولا تلك تستطيع أن تأتي بثمرة ما لم تمتزج بدقائق الحياة .

وهذا ما أراد يسوع أن يظهره لنا بقوله ، « يشبه ملكوت السماوات خميرة أخذتها امرأة وخبأتها في ثلاثة أكيال دقيق حتى اختمر الجميع . »

فان انتصارات المسيحية كلها انما كانت تجري على نحو المنوال الذي به تخمر الخميرة الصغيرة العجينة كلها . فقد انتشرت المبادىء المسيحية الأولى في جميع أنحاء العالم ونمت وتكاثرت بين جميع الأمم والشعوب كما تنمو الجرثومة الصغيرة وتنتشر وتتكاثر في جميع دقائق دم الانسان . وهذه هي قوتها التي لا تقاوم .

وقد استعمل يسوع تشبيهاً ثانياً للمسيحية بقوله « انتم نور العالم » لان نمو المسيحية كان أشبه بنمو أشعة الشمس الضئيلة عند الفجر التي تنير العالم ببطء مبددة ضباب الجهل والغباوة .

وانني أحب أن أتصور يسوع كشجرة ورد مزينة بالورود النضيرة قائمة في وسط بستان التاريخ ، تعطر فكر العالم بعبير زهورها .

وقد أوضح الشهيد أغناطيوس هذه الحقيقة في رسالته الى المسيحيين في رومية حيث قال ، « ان غاية المسيحية الرفعة لا الاقناع . »

وانني لا أحتاج إلى برهان لكي أوضح ان الخوف من العقاب والرجاء

بالثواب لا أثر لهما في تغيير طبائع الناس . وربما كان لهما بعض التأثير في ادارة أعمال الانسان ولكن لا سلطة لهما على تغيير أفكاره .

لذلك يجدر بنا الا نتوقع من الخوف من نار الجحيم أو الرجاء بفردوس النعيم ردّ الناس من الضلال إلى الحقيقة ، بتبديل طبائعهم ، لان مثل هذه التأثيرات انما تتناول سلوك الانسان دون اخلاقه .

ولم تكن خيبة الانسان في اعماله من اعتماده على الخوف من العقاب والرجاء بالثواب فحسب ، بل هنالك كثير من القوات التي اعتمد عليها وخاب بها سعياً لأن كل هذه القوات كانت وقتية باطلة . وكثير منها كان شريراً اضر بالانسان أكثر مما نفعه . ولذلك أعتقد بان جميع ما أثمره منطق اللاهوتيين من الأثمار ، وجميع الاحتفالات الطقسية التقليدية التي ورثتها الكنيسة عن الوثنية ، والكرامات والحمايات الخاصة وجميع العطايا المالية التي نالها رجال الكنيسة من الملوك والامراء ، وجميع المساعدات والحملات الصليبية التي قاموا بها للدفاع عن الايمان قد اقامت عقبات كأداء في طريق انتشار المسيحية اكثر مما ساعدت على نشرها وتعزيز مبادئها ، أما انتصار المسيحية الحقيقي فانما كان بنمو شجرة الحق التدريجي في فكر الانسان بقوة لا تقهر . وتقدم الانسانية المطرد الذي لابد منه ، الذي جاء نتيجة للمبادىء السامية التي بزغت انوارها من حياة يسوع وحكمته في العالم .

أما القوة المجددة في المسيحية فتتألف أولاً ، من الاشارة الى الحقيقة دون البرهان عنها . ثانيا ، من التأثير الشخصي ، واعني به القوات الكائنة في خميرة الحق الذي بشر به يسوع والمحبة التي غرسها في اذهان ابناء الانسان .

ماذا أرجو من مسيحيتي

«انني لا أريد أن أضمن حياتي

بـل أود أن أهذبهـا .»

ان ما أرجوه من المسيحية هو نفس ما يرجوه منها العالم بأسره ، وما أنا في حاجة اليه منها يحتاج اليه العالم بما لا يقل عن حاجتي ، وأنا لا أعني بالعالم المسيحيين فحسبُ ، بل سائر أبناء الانسان قاطبة .

فانا لا أرجو من الايمان الناضج ان أخلص نفسي ، بل انما التمس ان اتعلم كيف أعيش في هذه الحياة كما يليق وينبغي . لانني لا أريد أن أضمن حياتي بل أودّ أن أهذبها . ولا رغبة لي في الهرب من الغضب الآتي ، بل انا راغب في الحصول على قوة كافية استطيع بها أن أقوم بالجهاد الحسن في معركة الحياة القائمة حيثما ولدتني أمي . ولا أطمع من وراء إيماني بنوال البركة في العالم الآتي بل انما انشد منه ان يساعدني على الحياة بطمأنينة وقناعة في جميع أدوار وجودي. ولا أرجو ان انجو من عذاب الجحيم واهوال نيرانه بل إنما أتوق الى الخلاص والنجاة من الفوضى السائدة في العالم . وبالاجمال فانني آمل من ايماني أن أنمي رغباتي الطبيعية العادلة وأقويها واستثمر قواي الأدبية وأحييها لكي أتمكن من أن أحيي حياة هادئة معتدلة . لأنني لا ألتمس من مسيحيتي النجاة من شيء ما ، بل انما أرغب في ان أحصل منها على قوة تساعدني فاطبق ذاتي على كل شيء .

فان الفلسفة وحدها لا تكفي لهذه الغاية . ولذلك أنا في حاجة إلى الدين . لانني أحتاج إلى قوة تنظم غرائزي ، وانفعالاتي النفسية وقواي العقلية . وانني أجد كثيراً من المساعدة في أقوال الحكماء من مثل بنيامين فرانكلين

وكونفوشيوس وسقراط وامرسون وغيرهم . ولكنني لا أجد في أقوال هؤلاء الحكماء ما أجده في يسوع من الوحي النقي لاظهار الحق السامي ، والفهم الكامل لطبيعة القلب البشري والمجتمع الانساني ، والقوة العجيبة النابعة من شخصيته الفريدة في العالم .

على أنني لا أريد أن أحقر من قدر التاريخ المسيحي وما فيه من الاختبارات العديدة . فقد كان وراء جميع الاغلاط والاوهام التي تسلطت عاى الناس قوة حقيقية مستترة . وقد كانت هذه القوة دليلاً للاولاد الصغار من الصبيان والبنات في حداثتهم . وكم بعثت في عزيمة الرجال من غريبة في مغامراتهم وجبرت قلوب النساء وسكبت فيها بلسم التعزية في أوقات الاضطهاد والتجربة .

أجل ، ان اختبارات االمسيحيين في العالم هي مخزن ممتليء من الكنوز الثمينة . ولا يمكن ان ننسبها كلها الى الأوهام والخرافات . لأن تأثيرها في الأخلاق والتهذيب الانساني عظيم بهذا المقدار حتى لا يستطيع أحد على انكاره .

ولكنني أعتقد بان هذه القوة كلها قد نبعت من معين الحق الواحد الذي بشر به يسوع ، ومن التأثير العجيب الذي أحدثته وتحدثه شخصيته الفريدة في القلوب . ولذلك يجدر بنا ان نميز هذا الحق الخالد وما علق به من الاوهام والخرافات الوثنية على ممرّ الأجيال الماضية .

فقد حدث لي ان جاءت الساعة التي اضطررت فيها الى الفصل بين الزوان والحنطة ، والتخلص من الأقذار والقشور والحصى ، المختلطة مع حنطة يسوع النقية . لانني لم أقدر أن أقدم على ما يفعله الكثيرون غيري من رفض الحبوب كلها بحجة انها ممزوجة بزوان الوثنية وقشورها . وكما انني لم استطع أن أهضم الفكرة القائلة بوجوب قبول جميع النفايا والسقاط والهذيان والهذر التقليدي المُعنْوَن باسم « المسيحية » الذي يتمسك به الكثيرون من منتحلي اسم المسيحية ويحترمونه .

وبعبارة وجيزة فانني لم استطع ان اجاهر بالكفر والالحاد ، لانني لم أقدر

أن أميت الايمان الحي في قلبي بأن هنالك حقاً خالداً في المسيحية لا يمكن رفضه. وفي الوقت ذاته لم أقدر أن أكون مسيحياً فريسياً متصنعاً ازدردُ التقاليد والعادات ازدراداً من غير أن أعرف شيئاً أو أسعى إلى معرفة شيء عنها وعن حقيقتها - لم أفعل ذلك كله لاني لو فعلته لكنت كاذباً مكاراً .

ولذلك نشطت أخيراً واخترتُ الطريق الصالحة لذاتي وشرعت في التمييز بين الجوهري والعرضي ، بين الأدبي والحقيقي وبين النظري والوهمي ، بين الغيرة الأدبية والحنين المتأجج للفضيلة والجمال الروحي في الجانب الواحد ، وبين مجموعة النظريات والعقائد الخرقاء التي تسوق الناس بالدبابيس والسياط ، المجموعة النصف همجية البعيدة عن الفطنة التي يسميها الواهمون من أبناء الانسان ديناً ،وما هي عند التحقيق سوى مجموعة مخاوف سوداء من أهوال النواهي والمحرّمات ، وخلاصة رغبات عمياء في السعادة الكاذبة الكائنة في المقدسات والمباركات .

المسيحية في الشرق

"انني لا أعتقد بأن أديان الشرق الأقصى
سيكون لها من التأثير القتال على الحقيقة
المسيحية البسيطة متى انتشرت بينها ما كان
للاديان الوثنية في شعوب البحر المتوسط
من التأثير الشرير على هذه الديانة الشريفة"

ان ما أحدثته المسيحية من التأثير في خارج الممالك النصرانية عموماً ، وخصوصاً في بلدان الشرق الأقصى ، قد كان له أجمل وقع على قلبي . وانني أعتقد أنه لو كان في الامكان حصر المسيحية بخلاصة مبادئها الاساسية فإن جميع الشعوب الغير المسيحية ما كانت تتردد برهة في قبولها ديناً لها . لأن المرسلين الذين يرسلون إلى العالم الوثني ينجحون في أعمال بشارتهم بمقدار ما يتناسون ذكر الكنائس التي أرسلتهم . فان الطائفية هي أكبر عقبة تقوم في سبيل جميع سائر الأمم الوثنية إلى حظيرة المسيح . فالطائفة الرومانية الباباوية والبرسبيتيرية (المشيخيه) والابيسكوبالية (الانكليكانية) والمثوريستية ، وغيرها من الطوائف المسيحية كلها عقبات كأداء في طريق المسيحية . ولو استطاع العالم المسيحي بأسره أن يتفق على إرسال مبشرين إلى البلدان الوثنية يشترط عليهم ألاّ يقولوا كلمة واحدة في خصوصيات الطوائف التي أرسلتهم ، بل أن يحصروا رسالتهم بالبشارة بحياة يسوع المسيح ، ونشر تعاليمه ومبادئه الحكيمة فإنه ما كان ينقضي القليل من الزمن حتى نرى المسيحية منتشرة منتصرة في كل مكان تحت الشمس .

وانني على أتمّ الثقة بأن الطريقة التي أتكلم بها عن الكنيسة ربما يسيء البعض فهمها فتعرضني لاقتبال سهام الانتقاد الحادة ، لان أكثر الناس يستحيل عليهم ان ينظروا الى الدين إلا بالنظارات التي يقدمها لهم تعصبهم الأعمى لطائفتهم .

ولكنني لا أبالي والحمد لله ولَنْ أبالي بما سينالني من سهام الانتقاد الجارحة في سبيل ايضاح الحقيقة التي أؤمن بها بتمام الصراحة .

على ان التنظيم من القضايا الكثيرة التعقيد في الاجتماع البشري . ففي بعض الأحيان يخيل الينا انه يقتضي لنشر حقيقة من الحقائق ان نؤلف لها جمعية تناصرها ونبث الدعوة بها في جميع الجهات والبلاد . وفي أكثر الأحيان نرى ان الجمعية ذاتها التي الفناها لمناصرة الحقيقة المرغوب في نشرها قد كانت أهم عقبة في سبيل نشر تلك الحقيقة . ومن غريب الأمور ان هاتين النتيجتين لابد منهما في أية جمعية كانت فالجمعية تنصر الحقيقة التي أنشئت لأجل نشرها بين الناس من جهة ولكنها تعوق سيرها من الجهة الأخرى وقد خبرت هذا بنفسي فيما مضى عليّ من السنين . فقد حصلت علي منافع جليلة من الكنيسة ، ولكن الكنيسة قد عوقت في نمو الكثير من مواهبي وأفكاري .

على أن الطريقة الوحيدة التي وجدتُها لحل هذه الأحجية أن أعتقد بأن الكنيسة شجرة مثمرة تنمو وتتكيف مع الزمان . وقد كانت لها منفعتها في العالم بما أخرجته من الثمار اليانعات . وأما الحقيقة التي نشأت منها فكانت حتى اليوم مبرقعة ببراقع الجمعيات والطائفيات . ولكنني أظن اننا اليوم في دور انحلال هذه الجمعيات والطوائف . بيد انني لا أدري اذا كنا سنؤلف لنا جمعيات جديدة غيرها . لانه يستحيل عليّ أن أعتقد بأن العقل العادي يستطيع أن يقبل أية حقيقة كانت مجردة عن جمعية أو طائفة تعضدها . ولكنني أؤمن من أعماق قلبي بأن قصة يسوع البسيطة السهلة ، وتاريخ حياته وتعاليمه يكون لها تأثير أشد وأقوى إذا فُوصلت عما علقته عليها الطائفيات من الزخارف والبهرجات .

وفي عقيدتي أن المسيحية ستصادف انتصاراً أعظم في الشرق مما صادفت

في الغرب . ذلك لانها لن يقضى عليها أن تغوص في أوحال المجادلات العقيمة التي غاصت فيها في العالم الغربي . لان جميع هذه الخصومات لا تبلغ الى الشرق الا ضعيفة ممزقة كل ممزّق ، ولكن قصة يسوع المسيح ، وجمال الحكمة البالغة والقوة السامية التي في أقواله وأعماله تصل إلى الشرق بكل ما كان فيها عند حدوثها منْ القوة والحياة .

لأن الفكر البشري يؤلف نصف كل حقيقة يمسك بها . فاذا اخبرتك حقيقة زرقاء وكان فكرك أصفر الون فان النتيجة تكون خضراء . وليس في العالم حقيقة غير قابلة للامتزاج بغيرها ، وذلك ينطبق على المسيحية كما ينطبق على غيرها فقد انتشرت أولا في العالم الروماني ، فامتزجت بالوثنية الاوروبية ، وكانت النتيجة مزيجاً من التقاليد والعادات يسميه الغرب اليوم مسيحية .

ولكن يسوع كان بالحقيقة شرقياً ، ولذلك اذا امتزجت بشارته بالفكر الصيني والياباني والهندي ، فانه سيكون لنا منها شكل جديد لا شك في أنه سيكون أفضل من شكلها الحاضر .

وانني لا أعتقد بأن البوذية والكنفوشوسية والبرهمية وغيرها من أديان الشرق الأقصى سيكون لها من التأثير القتال على الحقيقة المسيحية البسيطة ما كان للوثنية المنتشرة بين الشعوب القاطنة على شواطىء البحر المتوسط من التأثير الشرير الذي كاد يقضى على النور النقي المنتشر من رسالة يسوع .

وقد أجاد المستر ألفرد . ي . زيّمارنْ حيث قال :

« مَنْ يدري اذا كانت أسيا وأفريقيا ، بمالهما من الحرية الواسعة على استخدام اختراعاتنا والانتفاع بنتائج ابحاثنا الغربية من غير ان تقف تقاليدنا عقبات في طريقهما ، ستقدمان لنا دروساً ابتدائية نستطيع بواسطتها على ادراك حقيقة يسوع وجوهر القوة الكامنة في المسيحية . غير أنه يجدر بنا نحن أبناء الغرب . الورثاء الشرعيين لماضينا ، وقد بلغنا إلى وقت أثقلت فيه كواهلنا الوصية التي تركها لنا اجدادنا بالفكر غير الصحيح والشعور الكاذب ، أن نشرع في تنظيف الخرائب الباقية لنا بترو وتمهل . »

لماذا أنتمي إلى الكنيسة

«لو كانت الكنيسة كاملة لما كانت
انتسب اليها بتة ، لانني لا أحسب نفسي
أهلا للامتزاج بمن كان كاملاً من الناس ،
ولو كان لي ذلك لما كانت لي منه تعزية .»

لاشك في أن كل من سيطلع على هذا الكتاب سيخطر له أن يسألني ، ما هي علاقتك بالكنيسة ؟ فقد أوضحت غير واحدة من أغلاط الكنيسة وكنت في بعض الأحيان قاسياً في انتقادي لها مستلفتاً الأنظار بنوع خاص إلى استقلالي عنها وحريتي الخاصة . ولا ريب في أن هذا يدعو القارىء إلى السؤال هل يخص هذا الرجل كنيسة من الكنائس ، وان كان كذلك فلماذا ؟ وماهي الكنيسة التي ينتمي اليها ؟

وها أنا أجيب عن السؤال الأخير أولاً . فلا أريد أن أسمي الطائفة التي أنتمي اليها الآن ، ليس لاني أستحي بها بل لانني أعرف الطبيعة البشرية معرفة صحيحة . وأعرف انه حالما يعرف القاريء العادي انني برسبيتيري مثلاً ، أو روماني أو معمداني ، أو ابيسكوبالي أو من هذه الطائف أو تلك ، فإنه للحال يدمغني بطابع تلك الطائفة ويقيدني بقيودها وعقائدها ناظراً أني كمن يتكلم بلسان طائفة معينة ، لا كفرد من البشر ذي نفس انسانية عامة حرة مستقلة . فيضع نصب عينيه انني اتمسك بكل العقائد والنظم التي يخيل اليه ان تلك الطائفة تتمسك بها .

ولذلك أكتفي بأن أقول انني عضو في إحدى الكنائس المسيحية المتفرعة

من شجرة كنيسة يسوع المسيح ، وكل ما أكتبه هنا يمكن أن يكون صادراً من أي عضو كان من الأعضاء المنتمين إلى جميع الطوائف المسيحية على السواء .

غير انني سأعالج هذا الموضوع من الوجهة التي أنظر إليه بها دون سواي من الناس . فلا أريد أن أبذل جهودي للدفاع عن الكنيسة كجمعية ضرورية لابد منها لحياة الانسانية بل جلّ ما أريد أن أوضح للقراء لماذا أحتاج إلى الكنيسة ، ولماذا أحبها وكيف تنفعني

انني لا انتمي الى الكنيسة لأنها كاملة أو معصومة من الخطأ . فهي ليست كذلك في عقيدتي . والحقيقة التي لامرية فيها انها لو كانت كذلك لما كنت أنتمي اليها بتة ، لأنني لا أحسب نفسي أهلاً للامتزاج بمن كان كاملاً من الناس ، ولو كان لي ذلك لما كانت لي منه تعزية قط : فالكنيسة معرضة للخطأ لأنها مؤلفة من أبناء آدم وانها وان كانت قد تأسست بقوة فائقة للبشرية ، فإنها قد كانت منذ نشأتها وما برحت تدار بأفكار البشر ورغباتهم . ولذلك اذا قلت انني انتمي الى الكنيسة فان ذلك لا يعني انني لا أنظر أغلاطها وانتقدها . فان المرأة تنتمي الى زوجها وتحبه وتخلص في وده ، ولكن هذا قلما يمنعها عن تعدادأغلاطه وانتقادها . وأنا أنتمي الى بلادي ، ولكنني أعتقد بانني أظل أميناً في وطنيتي واخلاصي لبلادي عندما انتقد بعض الأعمال التي تصدر من حكام بلادي ومشترعيها لأنها مخطئة في عقيدتي . ودخول الانسان في عضوية أي جمعية كانت من الجمعيات لا يدل على أن كل ما تفعله تلك الجمعية حق لا غبار عليه . بل ان ذلك يساعده على الظن بان حياته قد أصبحت أكثر قيمة من ذي قبل وانه يقوم بواجباته كعضو في تلك الجمعية أفضل مما لو كان خارجاً من عضويتها .

إذن ، ما هي الأسباب التي تدعوني الى الانخراط في عضوية الكنيسة ؟

ان أول هذه الأسباب اعتقادي بأن الكنيسة جمعية غايتها تعزيز أفضل الآراء وغرس أشرف المبادىء البالغة الأهمية في بستان العالم . وانني لا أعرف كنيسة مسيحية ما لا تقف بجانب الفضيلة ، والنظام ، وعبادة اللّه ، والعمل بالمبادىء الانسانية الشاملة التي علم بها يسوع المسيح . فعوضاً عن أن انتظر

حتى أجد كنيسة تتفق عقيدتها مع أفكاري وتلائم احتفالاتها وطقوسها ذوقي ومشاربي ، فانني أستطيع أن أدخل أول كنيسة أجدها في طريقي فأجد هنالك جماعة من الناس ينشدون الحق لينير عليهم مسالك حياتهم ، ويبحثون ما هو خير ليعملوا به وما هو شر ليبتعدوا عنه ، وهذه أعظم قضية من قضايا الحياة الهامة . لأنه لو عزمت ألا أتخذ عائلة لنفسي حتى أجد عائلة من الناس تعيش على وفق المثال الاسمى الذي رسمته في ذهني للحياة العائلية ، وان لا انتمي الى مملكة من الممالك حتى أجد المملكة التي طالما حلمت بها ، التي تسودها العدالة الحقيقية ، وان لا اتخذ لي صديقاً ما لم أجد الرجل الذي يبكي لبكائي ويرقص لفرحي ، فالاجدر بي حينئذ أن أركض مسرعاً وألقي بذاتي في أعماق البحيرة فإن هذا العالم لا يصلح لمن كان على هذه الشاكلة من الأخلاق .

ثانياً : أنتمي إلى الكنيسة لأني أحبها وأحب الناس الذين يذهبون إلى الكنيسة . ولا شك انهم معرضون للخطأ كما ان كل انسان غيرهم معرض للخطأ ، بل ربما كان بينهم من لا تستطيع أن تعاشره أو تتفق معه ساعة . ولكنهم بالاجمال ليسوا من الخبثاء القساة الظالمين الشهوانيين الخاملين . لأنه ربما كان في أعضاء الكنيسة الواحدة بعض من الاردياء ،ولكن أكثر المنافقين المتعرجين على الجانبين ومتعدي الشريعة ، وزد اليهم جماعات المتفلسفين والمتشائمين ونُفاية الأدباء وخشارتهم هم خارج الكنيسة ، ولا أنكر أن في الكنيسة بعض التعصب والفريسية والرياء بين الناس الذين يدعون ذواتهم مسيحيين لأنني بالحقيقة قد وجدت كثيراً من ذلك ، ولكنني قد وجدت تعصباً ورداءة وحقداً أكثر من ذلك بألف مرة بين الجماعات الخشنة الأخلاق التي تجتمع خارج الكنيسة وتهرّ على نوافذها المنيرة هرير الكلاب على شاهقات السحاب .

وكل من يريد أن يختار لذاته كنيسة ينتمي اليها يجدر به ان ينظر الى الجماعة وليس الى الأفراد ، وأن يتخذ الأكثرية قاعدة لاحكامه ولا ينخدع بما يشاهده مما يصدر من هذا أو ذلك الرجل في ظروف وأحوال خاصة . فان هنالك بعضاً ممن هم شمامسة في الكنيسة ولكنهم يضعون رملا في السكر ، وغيرهم

ممن هم كفرة معطلون ولكنهم لطفاء ذوو أخلاق راقية وأفكار شريفة ، ولكن ذلك لا يغير الحقيقة الواحدة ان من يفتش عن الرجل الشريف ليقدر ان يجده في الكنيسة المسيحية قبل أن يجده في خارجها ، وان من يفتش عن الغدار المنافق يقدر أن يجد ألفاً مثله في اسواق المدينة ومخازنها قبل أن يجد واحداً بين أعضاء الكنيسة .

ومن الأسباب التي تدعوني إلى محبة الكنيسة انها أقدم جمعية في العالم ، وفي القديم على الغالب جمال يجذب النفس اليه أكثر من الحديث . فأنا أحب الصخرة المغطاة بالطحلب أثر من الصخرة المجردة العادية ، وأحب ما يرافق التقاليد القديمة من الورع والتقوى بل ومن الأساطير والخرافات . واعتقد بأن أكثر الناس يؤثر فيهم القديم مثلي وأزود . فان ما تبعثه فينا بقايا الهياكل القديمة والاثار الرثة الباقية من كنائس الأزمان الغابرة من التأملات والرغبة في الدرس والعبرة بتقلبات الزمان لا يمكن ان نحصل عليه من أعظم القصور الحديثة والكنائس الجديدة الشاهقة .

غير انني عندما أقول ان ألكنيسة هي أقدم جمعية في العالم فأنا لا أخص بذلك كنيسة الطائفة التي أنتمي اليها ، كلا ولا أعني بذلك كنيسة رومية ، أو جامع المسلمين ، أو هيكل البوذيين ، بل أنا أعني تلك الجمعية العظمي التي تضم في عضويتها العالم أجمع وما هذه الكنائس المختلفة سوى مظاهر متعددة لوحدتها. لانني أقصد بالكنيسة هنا كل جماعة من الناس يجتمعون معاً للافتكار بالخالق العظيم ، والحياة الثانية ، وبضرورة القيام بالواجب ، وبالقضية الخالدة في ما هو الخير وما هو الشر . أما الكنيسة التي انتمي اليها اليوم فهي واحدة من موكب طويل من الجمعيات التي بنيت علي المبدأ الواحد الذي بنيت عليه كنيستي ، الموكب الذي اجتاز بجميع الأجيال المتوسطة ، وسار في ممالك اليونان ومصر وبابل ، ووجد في كل صقع من اصقاع الأرض التي عرفت فيها الانسانية معنى المدنية ، الموكب الذي تستطيع أن ترى نيران مذابحه كصف مستقيم من مصابيح الشوارع يمتد في الماضي حتى ينتهي أخيراً في الضباب الذي كان كفناً

للجنس البشري . ولذلك فانني عندما أذهب الى الكنيسة أشعر انني قد دخلت في هذه الجمعية العظيمة التي هي أوفر الجمعيات الانسانية شرفاً ووقاراً وجمالاً .

أجل ، انني انتمي الى الكنيسة لانني اعتقد بانها ، بصفتها جمعية عظيمة ، تبعث بمادة الحياة الى جميع القوات الضرورية جداً للرقي الانساني ، لان الكنيسة هي الينبوع الذي تفيض منه جميع الجداول النقية للفكر البشري الصحيح . ففي الكنيسة قد نشأت الفكرة الأساسية لجميع الحركات الاصلاحية في العالم . فالكنيسة بما فيها من التعليم الآمر بالاخوة والمساواة بين الناس قد سلحت الذين عملوا على نقض العبودية في العالم ودك حصونها الى الحضيض ، والكنيسة هي التي جرأت الانسان على الوقوف في تيار التقاليد البلهاء وصد سهام الهزء والسخرية ، ومنع الغازات السامة والمشروبات الروحية في هذه البلاد (الولايات المتحدة الأميركية) ، والكنيسة هي بالحقيقة أم حنون للمدارس العامة والكليات والجامعات العلمية ، واذا كانت الحرب ، وهي البؤرة التي تجتمع فيها جميع قوات الشر والتخريب ، الحرب التي هي آخر زعيم قذف به الجحيم ليحرق هذه الأرض بنيرانه الشيطانية ، الحرب التي هي أفظع ما ورثته البشرية الحاضرة عن الهمجية والحيوانية الماضية ، اذا كانت هذه الحرب الشريرة ستزول يوماً ما من العالم فسيكون ذلك نتيجة للجهود العديدة والثورات المتواصلة التي أثارتها الكنيسة عليها .

وانني أحترم الكنيسة ليس فقط لما تفعله في العالم مباشرةً ، او لما تقوم به من تقرير نظم السلوك وبذل العطايا في سبيل الخير والاحسان ، بل أنا أحترمها بنوع خاص لأنها تحيي بطقوسها وصلواتها وأناشيدها وتعاليمها مبادىء يسوع المسيح وتعاليمه وتأثيره الشخصي في حياة العالم .

هذا بعض من كل مما يدفعني الى الإنتماء الى الكنيسة ومحبتها واحترامها من أني أنتقدها . وانني سأظل عضواً فيها ما برح فرعٌ من فروعها يقبلني في عضويته .

أنا هو لا تخافوا

"من هو هذا الآتي من أدوم، وحمرة
ثيابه من فوصور؟"

أشعيا

ما من أحد يعلم كم انقضى على سكنى الانسان في هذه الأرض من الألوف أو الملايين من السنين .

فان الحيوان البشري منذ انتصب على قدميه وبدأ يحيا ليفكر خامرته الظنون بان هنالك كائناً غيره مفكراً مثله في هذا الوجود .

ولما كان الانسان يعيش في هذا الكيان والأخطار محيقة به من كل جهة ، لأن الحياة والخطر اختان توأمان ، ولما كانت حياته أرقى من حياة جميع المخلوقات ، فقد زاد ذلك في الأخطار التي تهدده ، ولذلك خطرت له للمرة الأولى العقيدة بأن الكائن المفكر الأعلى هو عدوه اللدود .

ومما خطر له في تلك الازمنة السحيقة ان هذا الكائن الأعلى الغير المنظور الذي تحيط الاسرار بوجوده هو أعظم وأسمى منه . ولاشك أنه بالغ الذكاء حتى يستطيع أن يحتجب عنه بكل هذا التحفظ .

وعلى هذه الأوهام بنى الانسان ديانته الأولى ليطيب نفس هذا الاله بالتقادم والهدايا المتنوعة . واننا نرى نيران المذابح مشتعلة في الماضي بمقدار ما استطاع المؤرخون أن يظهروا لنا عن قدمية العالم . فكان الانسان أولاً يحرق مواشيه وثمار أرضه ليخفف حدة غضب عدوه الغير المنظور .

فاخترع جميع أنواع الطقوس والاحتفالات يقيمها لاسترضاء هذا الكائن

الجبار والحصول على رضاه . ولا تزال آثار هذه الطقوس ظاهرة حتى يومنا هذا .

ومع ان الانسان كان يعرف ان صفقته خاسرة كيفما تقلبت الظروف ، فكان يروغ من عدوه ويتزلف اليه وهو عارف ان هذا العدو العظيم سيقبض روحه عاجلاً أو آجلاً .

لذلك كانت الحياة بطبيعتها فاجعة مؤلمة . وأفضل ما في تواريخ الآداب الماضية فواجع ينسحق لها القلب مرارة وحزناً .

وليس التاريخ القديم بالحقيقة سوى سلسلة مرعبة من الفظائع والحروب الهائلة التي كان هذا العدد الغير المعلوم يثيرها على أبناء الانسان .

وقد عرف الانسان النار لأول مرة من البراكين المشتعلة ، فخيل اليه ان الرعود المتصاعدة منها دليل على غضب ربه الجبار وان مقذوفات تلك البراكين إنما هي حجارة يضربه بها .

غير ان الانسان تعلم على ممر الزمان كيف يستخرج النار لنفسه من الصوان والخشب وغيرهما وقد خطأ بذلك خطوته الأولى في سبيل التقدم باجتيازه من الإرتعاد أمام نار البركان إلى طبخ مأكله على نيران المواقد .

وقد رأى الكهرباء لأول مرة في وميض البرق فكانت تهدم منازله وتقتل أولاده ، ولكنه تعلم أخيراً كيف يستخدم هذه القوة التي كان عدوه المجهول يحتكرها لنفسه فيما مضى من الزمان ، وصار ينقل صوته بهذه القوة من بلاد إلى بلاد فوق الجبال والأودية والبحار والأنهار ، واستخدمها لحمل أثقاله ، وتنوير المساكن والمدن التي يعيش فيها إلى غير ذلك مما لا يحصى من الأعمال .

وقد ظل عدو الانسان الأول قاطنا في البحار البعيدة مرعبا لجميع الناظرين إلى البحر حتى جاء كولومبوس .

وهذا العدو بعينه هو الذي حوط الأحراش بسياج من المخاوف والأوهام حتى خيل إلى الانسان أن الأحراش ممتلئة من العفاريت والجان .

غير أن الخوف قد أوجد لهذا العدو الجبار جيوشاً لا تحصى من الندماء

والخلان . فكم قام باسمه من الذين ادعوا بأن في طوقهم تأييد السعادة البشرية من السحرة والعفاريت والجان والأرواح الشريرة والأبالسة والهة الاحراج والبحار وغيرهم من الأرواح الخبيثة ، أجل ان حياة الانسان من بطن أمه إلى بطن الأرض كانت جهاداً واحداً مستمراً للنجاة من العدو العظيم الذي كان يطارده ليأخذ بخناقه ولم يستطعْ ابن امرأة أن ينجو منه .

فكان يُنزل الملوكَ عن عروشهم ، ويُخرس أصوات المنتصرين في أجمل ساعات انتصاراتهم ، ويخطف الطفل الرضيع عن ثدي أمه ويفصل العروس من جانب عروسها في أول يوم من قرانهما ، ويثير في الناس من حين الى حين نيران الشر والبغضاء فينبحهم في الحروب مئات مئات وألوفاً ألوفاً .

ولا بدع إذا رأينا الناس يستعطفونه ويقضون أعمارهم في الاماتة والصلاة للهرب من سخطه ، بل ليس بالغريب أن يُحمّق الانسان فكره وفطنته ويؤمن بما يرى الأولاد الصغار بطله وما فيه من الخرافة ويصدق جميع العقائد الوحشية بل ويعمل كل ما في طاقته ليرد عنه غضب هذا العدو الحقود المحب للانتقام .

غير ان هذا الكائن الغير المنظور قد تجسد أخيراً وظهر للانسان . ولكنه كان غريباً جداً عما عرف الانسان عنه من ذي قبل حتى انه لم يعرفه . « الى خاصته جاء ، وخاصته لم تقبله » .

وبعد أن فارق العالم شرع الانسان في بناء القصور الشاهقة من التقاليد الوثنية حول ذكره ، مما جعل اتباعه واقتفاء خطواته صعباً عسيراً .

لان بساطة رسالته وحياته كانت مما لا يحيط به وصف ، وقد قضت على تقاليد عشرة آلاف سنة هازئة بها .

وقد عاش ذلك الكائن المفكر الأعلى في هذا العالم فاعلاً خيراً لجميع الناس ، وكان يأخذ الأولاد الصغار ويضعهم في حضنه ويباركهم ، وكان يشفي المرضى ، ويعزي الحزانى ، ويخاطب المضطربين بما يزيل اضطرابهم ، ويفتح عيون العميان ، وينطق بما لم ولن تسمع بمثله الانسانية من آيات الحكمة والبلاغة .

وكل ما أقوله عندما أظهر للناس وجهه الجميل فخافوا لانهم لم يعرفوه كل ماقاله ذلك العدو الذي كانت ترتعد من مجرد ذكره فرائص الانسانية على ممر الأجيال السابقة لمجيئه هذه الكلمات القليلة :

« أنا هو لا تخافوا ... »

هل نموت ؟

محاضرة ألقاها معرب الكتاب

في عاصمة الجمهورية المكسيكية

في مساء الجمعة الواقع في ٢١ أغسطس سنة ١٩٢٥

في مثل هذا اليوم الحادي والعشرون من شهر أغسطس (آب) سنة ١٩٢٢ كانت الباخرة مجاستيك تمخر بنا عباب البحر مقتربة من شواطيء العالم الجديد . في مثل هذا اليوم منذ ثلاث سنوات كاملات كانت أمواج الاتلانتيك تحمل بنا إلى مدينة المدنية ، إلى عاصمة العواصم ، إلى نيويورك ، أعجوبة العمران وعروس العلم والعرفان .

في مثل هذا اليوم ، منذ ثلاثة أعوام ، كانت تتنازع قلبي عاطفتان قويتان عميقتان : الواحدة تجذب به الى الشرق فتذكره بالأهل والأوطان والثانية تجذب به الى الغرب فتثير فيه محبة الاطلاع والرغبة في المعرفة . وتحت تأثيرات هاتين العاطفتين كنت أصعد بين البرهة والاخرى إلى سطح الباخرة الجبارة فانظر تارة إلى الشرق وطوراً الى الغرب لعلي أخفف من حدة ما بي من الحنين إلى الوطن الذي فارقت ، والشوق إلى الوطن الذي سألقي . وفي مثل هذه الحالة من الحنين الشديد والشوق البعيد نظرت فاذا بي أرى صروحاً تناطح الجو ارتفاعاً ، فخيل اليّ انها جبال ارتفعت من البحر لتحدثنا بعظمة رافعها وجلال صانعها . وفيما أنا أمعن النظر فيها رأيت واذا بملاك منير قائم في أعلى قُنُنها يهتف بصوت يتدفق حلاوة وينبع حياة قائلا : « أيها الغافلون أفيقوا من غفلتكم أيها المستعبدون تحرروا من عبوديتكم ! أيها المقيدون حطموا قيودكم وكسروا أغلالكم وهلموا اليّ ، فانا رسول رب العالمين إليكم أبشركم بالحرية وبالعتق من العبودية! أيها الحزانى على أوطانكم ، أيها الراثون والنادبون كفوا عن أحزانكم ومراثيكم

فقد اكتمل دور شقائكم وآن لكم أن تنالوا قسطكم من الحياة أمام وجه الشمس ! إنهضوا ! أفيقوا ! لماذا تكونون عبيداً وقد برأكم الله أحراراً لكم ما لمستعبديكم وعليكم ما عليهم أمام وجهه القيوم ؟ هلموا اليّ فاعطيكم ماء حياً يكون لكم اذا شربتموه كل ما تريدون . أجل ، تعالوا فاعطيكم ماء المعرفة الخالدة الذي اذا شربتم منه تبرد غلتكم ، التي أوقد الجهل نيرانها في أعماقكم ، ولا تعطشون الى الأبد .»

سمعتُ كل هذا باذني ، بل بعقلي وقلبي ، فقلت في سري : « مَنْ ترى يكون هذا المنادي السماوي والرسول الالهي ؟ » ثم نظرت حوالي وإذا بشيخ جليل من رفقاء السفرة قد استرسلت لحيته البيضاء على صدره فزادته هيبة ووقاراً ، دنا مني وقال لي ، « مهلا ولا تدهش أيها الرفيق ! فقد رأيت ما لم ترَ وسمعتَ ما لم تسمع ، وما أغرب ما رأيت وما سمعت عما عرفته وألفته ! أفلا تزال تذكر الكلمات الأخيرة التي سمعتها وأنت تفارق أرض أبائك وأجدادك والدموع تذرف سخينة من عينيك ؟ »

فقلت ، « نعم ، نعم ، لا أزال أذكرها ولا استطيع أن أنساها لأنه من ذا يستطيع أن ينسى جراحه أو يغفل عن ذكر قيوده التي تحرر منها ؟ وانني لا أزال اذكر ذلك الطاغية رسول الشراهة والعبودية والطمع والجشع يتخطر في الشرق من أقاصيه إلى أقاصيه وهو يزأر بصوته كالوحش الضاري قائلاً : « ويلٌ للأحرار ! ويل للمتمردين على الظلم ! فان حبالي كثيرة ، وجيوشي غفيرة ، وثروتي وفيرة وعدتي بالغة ! أبعدوا أنوار المعرفة ! اسدلوا ستائر الجهل والظلمة ! اشتروا الوجدان ! اقتلوا الشبان ! شتتوا الشيوخ ! احرقوا زروع الوطنية وابذروا في حقولها بذار العبودية حتى لا تبقى في هذه الأرض من بقية ! فالارض للسيف وأصحاب السيوف يجب أن يرثوها ! »

وما فرغت من كلامي حتى خارت قواي فسقطت على قدمي الشيخ وتضرعت اليه قائلا ، « بربك قل لي أيها الشيخ الرفيق ، مَنْ هو هذا الصارخ الذي ينادي بالعتق من العبودية ؟ » .

فأجاب وقال ، « ان هذا الصارخ هو رسول الحرية والمعرفة الذي أنقذ أمةً هي أرقى أمم الأرض من عبودية مرة كانت تقاسي أهوالها سنين عديدة .

فقلت له ، « وما هذه الناطحات السحاب التي أراها أمامي ، وما هذه الصروح ،القباب البالغة الهندسة والاتقان ؟ » .

فاجاب وقال ، « ان ما تراه يا صاح هو ثمار يانعة أخرجتْها شجرة المعرفة التي غرستها يدا هذا الرسول في أرض هذه الأمة الصالحة ولا تنال أمة من أمم الأرض قسطها من الحياة ما لم تتذوق ثمار هذه الشجرة » .

فقلت ، « وهل في طوق هذا الرسول ان يغرس مثل هذه الشجرة في بلادنا فينقذ أمتنا من ذلك الطاغية الجبار رسول الجهل والغباوة بعد أن عزلها وسلبها انفتها وثروتها فأمستْ على شفير هاوية الموت ؟ »

فقال ، « لا تخف من الذي يقتل الجسد وأما الروح فلا يقدر أن يقتلها . فإن الأمة كالفرد ، لها جسد معرض للشقاء والأخطار كما ان لها روحاً لا يمسها ضرٌ ولا فساد . ولذلك لا تموتُ ولن تموت روح أمتكم وان خيل اليكم ان جسدها مشرفٌ على الموت . كما أن أرواحكم تظل حية وان ظهرَ لكم ان أجسادكم تصير الى الفناء » .

قال هذا وتركني مودعاً لان الباخرة وصلت في تلك الساعة الى مينائها فنزل الى البرّ مع النازلين وهو يردد بصوته اللطيف قائلاً ، « نحن لا نموت ، نحن لا نموت ، كلا ولا تموت بلادنا »

ويسرني بعد مرور ثلاث سنوات كاملات على فراق هذا الشيخ الحكيم أن أتخذ من عبارته الأخيرة - نحن لا نموت - موضوعاً للدرس الذي رغبت في أن ندرسه معاً في هذه الليلة . وقد رأيت أن يكون بشكل محاورة بيني وبين شيخ آخر تيمُناً بذكر شيخي القديم الذي أزاح أثخن غشاوة من أغشية الجهل عن عيني لأني أعتقد بأن المحاورة بين اثنين في موضوع واحد يتخذ كل منهما طريقاً يطرقها للبلوغ الى مايريد تناقض طريق رفيقه لمما يسهل فهم الموضوع على السامعين ويساعدهم على التمسك بالرأي الذي يرون صوابه . « فان أحسنت وفيه

منتهى جهدي فذلك من حسنات الاجتهاد وإلا فحسبي أن أفتحه باباً يَلِجُهُ من وفّقه اللّه إلى سبيل السداد » راجياً أن تحوز هذه الخدمة الحقيرة قبولكم أيها الأحباء فتثبت ايمانكم على صخرة الحق التي هي أساس خالد لجميع الأديان والأوطان :

هل نموت ؟ (١)

جلس جماعةٌ من الأصدقاء الى مائدة العشاء في أحد الامساء ، وشرعوا يتحدثون في آداب الشبان والشابات في القرن العشرين . فقالت سيدةٌ من الحضور، انها تحبذ العادات الحديثة التي يسير عليها الأحداث وتعتقد بملاءمتها لروح العصر الحاضر . وكان الجالسون الى مائدة الطعام يترددون في تصديق ما يسمعونه في كل يوم عن تطرف الشبان والشابات في علاقاتهم الحديثة بعضهم مع بعض وفي سائر اجتماعاتهم ، ولذلك نظرت هذه السيدة الى وجه كل منهم وقالت لهم ، « ان ما تسمعونه من هذا القبيل حقيقي لا ريب فيه ربما كان بعضاً من كل ما هو جارٍ بين أحداث اليوم . »

ثم نهضت متحمسة وقالت ، « انني لا أجد أقل غرابة في ما أراه من تصرفات الشبان والشابات في هذه الأيام ، بل أحبذ من أعماق قلبي كل ما يفعلون . ففي الأيام القديمة عندما كنا بعدُ صغاراً كان الصبيان الذين في عمرنا يتمتعون بما يشاؤون من طيبات الحياة ، أما البنات فلم يكن يؤذن لهن أن يشاركن الصبيان في شيء من دواعي المسرات والافراح ، بل كثيراً ما كان يحظر عليهن مشاهدة ما كان يجريه الصبيان في ألعابهم وملاهيهم . أما اليوم فكل ما يجوز لهذا الجنس يجوز لذاك . وما الروايات المختلفة التي نسمعها عن تطرف البنات في سلوكهن سوى تخرصات باطلة وأوهام فارغة ، لان الحقيقة التي لا مريّة فيها هي هذه : ان فريسية الانسان القديم قد تقوّض بنيانهاوتهدمت أركانها وزالت بزوالها المظالم البربرية التي ألحقتها همجية الأجيال الغابرة بالمرأة .

---

(١) الموضوع ملخص عن الانجليزية .

ولذلك فأنا أعتقد اليوم بأن لا بنتي ملءَ الحق أن تفعل كل ما يفعله أخوها من غير أقل نقصان اذا كانت في ذلك ارادتها ومسرتها . بيد انني ولاشك أرجو أن يكون كلٌ منهما معتدلاً في عمله كائناً ما كان عمله . »

وما فرغت تلك السيدة من كلامها حتى ظهرت ملامح التسليم على وجه كل من الحاضرين من غير أن يعارضها أحدٌ من الجالسين الى المائدة . غير انني وقد انحل عقد المنتظمين فى المجلس سرت مُطرقاً بعينى إلى الأرض مفكراً بما فاهت به تلك السيدة حتى بلغت الى زاوية في دار الكتب فوجدت الطبيب صديقي قد سبقني الى تلك الزاوية وجلس على مقعد خشبي أمام الموقد يصطلي ، فقعدت الى جانبه ، ثم سألته رأيه في الموضوع ، لانه كان في السابعة والستين من عمره وقد رأى وسمع وقرأ كثيراً من الأراء الحديثة المتنوعة في شأن الأحداث والشيوخ وعرف خطأها من صوابها ، وخبز الحياة بجميع مظاهرها من المهد الى اللحد . وقد كان جالساً الى المائدة مع الجالسين غير انه لم يعارض المرأة عندما صرحت برأيها ، ولذلك شرع قبل كل شيء يوضح لي السبب الذي دعاه الى السكوت فقال :

« انني لم أعترض على كلام المرأة لثقتي بأن اعتراضي يفتح الباب لمجادلة طويلة بين الجمهور ، والمجادلات بين الجماهير لا فائدة منها ، بل كثيراً ما تثبت كلا من المتجادلين في رأيه صواباً كان أم خطأ . وأما ما سمعناه من هذه المرأة فربما اظهر لك جديداً لأول وهلة لانه ينحصر بما يأتي : « ان الشبان يتمتعون بملذات الحياة ، ويشبعون حواسهم من اللهو والخلاعة ، فلماذا يكون هذا محظوراً على الشابات ؟ ، ولكن هذا ليس بالجديد أيها الصديق ، بل هو تعبير آخر للقول المشهور ، « كل ما يجوز للديك يجوز للدجاجة » . وقد بنى هذا القول على قول آخر أقدم كثيراً منه – القول الذي نراه سائداً في جميع أدوار التاريخ ، في أزمنة الرخاء كما في أزمنة الخراب على السواء . »

فسألته قائلاً ، « وأي قول تعني ؟ »

فأجاب وقال ، « انما أعني أقدم ما أخذناه عن العالم القديم ونقلناه عن

فلسفته المادية ، وهو ايضاح أبعد يأس ورثته المدنية الحديثة من مدنية الأجيال الغابرة ، بيد اننا سمعناه الليلة من سيدة تعيش في القرن العشرين وتحسب انه فلسفة جديدة هبطت لأول مرة على فكرها وتجسد بها خيالها .

أجل ، بل هو اعتراف صريح من الانسان ان حياته ليست في نظره سوى لحظة من اليقظة بين لانهايتين من الظلمة الخالدة . هو الآية القائلة ، « فلنأكل ، ولنشرب ، ولنفرح ، لاننا غداً سنموت ! » أفليس هذا نفس ما قالته هذه السيدة ولكن بعبارة مختلفة عن عباراتها ؟ »

فقلت له ، « بلى ، انه نفس موضوعها ، واني لعلى رأيك . ولكن تُرى هل نحن في زمن عاد فيه هذا اليأس القديم الى الظهور ثانية ؟ هل هذه هي روح المدنية الحديثة ؟ »

فأجاب قائلاً ، « انني لا أتطرف الى الظن بأن روح هذا العصر كلها تميل الى العمل بهذا الرأي . بيد انني أعتقد بأن الساعين وراء الملذات الجسدية على أنواعها العديدة هم أكثر في هذا العصر منهم في أي عصر كان من العصور في تاريخ العالم . »

فقلت له ، « انك محق فيما تقول . ولكنني أعتقد بأن الساعين وراء المعرفة والراغبين في تفهم هذه القضية العظمى وادراك كنهها اليوم هم أكثر من جميع من سبقهم الى ذلك من ذي قبل . »

فقال ، « وماذا تعني بقولك ، (القضية العظمى) ؟

فأجبته قائلاً ، انما أعني (بالقضية العظمى) ما استطيع أن أعبر لك عنه بما يأتي : « ولماذا لا يجب أن نأكل ونشرب ونفرح في حين اننا غداً سنموت ؟ » فإن العلم اليوم يلتمس البرهان على صحة الايمان الذي علمته الأديان في مختلف الزمان والمكان . لان الانسان لا يستطيع بعد تعرُّف القليل من أسرار الطبيعة أن يصدق بأي إيمان كان كما كان يفعل أباؤه وأجداده الأولون . فان العلم قد أكثر من اللاأدريين والغنوسطيين ولذلك نرى الحيرة قد استولت على الاكثرين غير ان بعض الطوائف قد شعرت مؤخراً بما تسرب إلى قلوب الناس من الشك والاضطراب

فرغبت في مساعدتهم على إدراك الحقيقة التي يسعون وراءها ، فقام فريق من رؤسائها وزعمائها يناقضون حرفية الشريعة ويسايرون الناس في شكوكهم ، ويفسرون ويؤولون بما ربما أقنع بعض المتعلقين باذيال الحرف والمادة دون الروح والحق . بيد أن هذا التساهل من رجال الدين لم ينزع حيرة الناس من صدورهم بل كثيراً مازاد في الطين بلة وعمل على تكاثر الشكوك والاوهام .

« وأما السيدة التي سمعناها تصرح بما صرحت على المائدة فانما هي تنطق بفم الكثيرين من الذين يعتقدون بان البرهان على صحة وجوب الايمان مستحيل على ابناء الانسان ولذلك صرحت بلسان الاكثرين ان لكل بشري على الأرض ملء الحق ان يعمل كل ما يرى لذاته لذة في عمله . فهل لديك أيها الصديق الحكيم ، وقد جاوزت السابعة والستين ، ورأيت من الاختبارات الألوف والملايين ، هل لديك أن تاتيني ببرهان صريح يزيل حيرتي ويوضح لي ما أشكل على فهمه في هذا الموضوع الخطير ؟ »

وما فرغت من كلامي حتى أغرب صديقي في الضحك ، ثم نظر اليّ وقال ، « ان سؤالك يا صاح ، لماذا لا يجب أن نأكل ونشرب ونفرح في حين اننا غداً سنموت ؟ » سؤال أجيبك عنه بجواب بسيط هو سؤال آخر : « ولكن هب أنك لا تموت ؟ فان البرهان الذي يسعى اليه العالم من هذا القبيل ما هو الا تثبيت لهذا الغرض الذي جعلته جواباً عن سؤالك فان الانسان يريد أن يعرف هل وراء حياته هذه حياة أخرى خالدة ؟ وهل يوجد إله خالق بالحقيقة كما تنص الكتب المقدسة ؟ فان وجد جواباً ايجابياً عن واحد من هذين السؤالين حسبه جواباً عن السؤالين معاً . ومتى عرف ان الموت ليس عند التحقيق سوى تغيير بسيط في مظاهر الحياة الدائمة فانه يدرك في الحال انه لابد من وجود الاله الخالق . وما أغرب أن الانسان عرف منذ البدء تمام المعرفة ان الموت تغييرٌ يطرأ على الحياة ويحولها من حالة إلى حالة وليس انقراضاً يُودى بحياته كأن لم تكن بيد انه اليوم يشكك بهذه الحقيقة »

فسألته قائلاً ، « وماذا تعني بقولك منذ البدء ؟ أفهل أنت تشير إلى كتاب

التكوين ؟ »

فأجاب وقال ، « كلا لم أقصد ذلك يا صاح ، بل انما أعني الانسان في بدء حياته المظلمة قبل ان ادخل في طور المدنية : الانسان المتوحش الذي لا يحظر له مثل هذا الشك بل هو يشعر في أعماق قلبه بأن في كيانه ذاتاً باقية لا ولن تموت وان مات جسده . لان الانسان يخامره الشك حتى يرغب في حصر كل ما في الحياة والوجود بقيود فكره المحدود . فيعمد الى تعرّف أسرار الطبيعة كلها بفكره الضيق ولكن الامتحان يظهر له عجزه بصورة واضحة ، بيد انه بما فطر عليه من الانانية والكبرياء لا يقرُّ بعجزه وقصوره ولذلك يعمد الى الانكار والالحاد والشكوك . ثم لا تلبث مثل هذه الحالة المضطربة ان تقوده الى العزم على ان يأكل ويشرب ويفرح لان عقله المقيد بقيود الأنانية والخيلاء لا يفقه للحياة من معنى أسمى وأبقى من هذا . ولكي أوضح لك عقيدة المتوحشين أودّ أن أورد لك قصة أعرفها ، فهل لك اعتراض على ذلك ؟»

فقلت له ، « عفوك يا سيدي ، قل ما بدا لك »

فاستوى في مجلسه وقال لي ، « حدثني صديق لي قال : كان لي من بضع سنوات صديق عزيز سافر الى الكونغو في أفريقيا مع رفيق له ، وبعد قليل من الزمن رجع رفيقه وبقي لوحده في بقعة من مجاهل تلك الاحراج . وكان في تلك الناحية عدد من المزارع الصغيرة الممتدة على شواطىء النهر . ولم يكن في تلك النواحي رجل أبيض غيره . ولذلك كان عليه أن يحسن التصرف مع سكان البلاد الأصليين خوفاً على حياته فلم يكن يجسر قط على التدخل في أمر أية عادة من العادات المرعية هناك . وحدث مرة أن مات زعيم القبيلة التي كان يعيش بينها فشرع أصحابه وذووه في الاستعداد للقيام بحفلة جنازته وفي جملتها ان يحرقوا عدداً كبيراً من نسائه وعبيده وهم أحياء . فلم يجرأ على مباحثتهم أو منعهم عن الاقدام على مثل هذا العمل الفظيع . ولكنه اضطرب وعرته قشعريرة الرهبة والخوف ، بيد انه لم يكن له من القوة ما يحول به دون تلك الفعلة الشنعاء وقد هم بالانصراف من ذلك المكان لئلا يرى كوم الوقيد تُعدّ لتلك الذبيحة الوحشية ،

ولكنه لم يقدر على ذلك لأن قوة خفية مزعجة كانت تمسك به وتضطره إلى البقاء لكي يرى ما سيكون .

« وقبل غروب الشمس جاء القوم بالضحايا من النساء والعبيد ووضعوهم جميعهم على أكوام الوقيد ، فاختلج قلبه في صدره إذ رأى ذلك ، ولكنه عبثاً حاول أن يهرب لان محبة الاطلاع على ما يجهله الانسان كانت تمسك به فلم يستطع الى الهرب سبيلا . وقد أسف بنوع خاص على رئيس عبيد المتوفي لان القوم بذلوا عناية خاصة في تهيئة الكومة التي خُصّصت له .

« وفيما النا س يحدقون بذلك المنظر المريع والنيران تتحفز للشبوب لتلتهم الاكوام وما عليها من الضحايا التعسة تقدم زعيم القبيلة الذي خلف المتوفي ، وكان ابن أخت له ، وجاء إلى حيث كان رئيس العبيد على أهبة الاحتراق وأدنى فمه من أذنه وأسر فيها بضع كلمات لم يسمعها أحدٌ قط . وكان هذا آخر ما رآه الرجل الأبيض لانه لم يستطع بعده أن ينظر الى ذلك المنظر المفتت الأكباد فأدار ظهره عنه وسار في طريقه راكضاً الى حيث لا يرى أحداً من أولئك البرابرة المتوحشين ولا يسمع صوتاً من أصواتهم المرعبة . وقضى تلك الليلة بين الاحراج حزيناً متألماً مما رأى وسمع ، بعيداً عن القرية وضوضائها .

وفي صباح اليوم التالي رجع الى كوخه في القرية وهو يتذكر ما مرّ به ، وقد اخبرني ان الأمر الذي لم يقدر على فهمه بل لم يستطع أن يقف عن التفكير به انما هو العمل الذي أقدم عليه الزعيم الجديد عندما دنا من رئيس العبيد وخاطبه وهو على أهبة الاحتراق بعد بضع دقائق ، وكان يفكر في ذاته قائلاً ، « ما الفائدة التي يرجوها هذا الزعيم الفتى من مخاطبة عبد سيقضي حرقاً وتندثر حياته كانه لم يكن ؟ »

« وقد زاد هذا الأمر في اضطرابه حتى اضطر أن يحضر بذاته الى دار الزعيم الجديد للفحص عن القضية . وعندما وصل الى غرفته سأله قائلاً ، « هل لك أن تخبرني بما قلته لرئيس عبيد خالك الميت وقد اوُقدتْ النار تحته وأمسى على شفير هاوية الموت ؟ »

فأجاب الزعيم الجديد وقال له ، « ليس في ما قلته له كبير أهمية . فقد طلبت اليه أن يخبر خالي ان الزورق الذي تركه لي رثٌ بالٍ . وكان أولى به ألاّ يوليني منه بمثله . »

وبعد أن فرغ الطبيب من سرد هذه الحكاية أشار إليّ بيدي إشارة أدركت منها انه يحيلني الى ذاتي لكي أستخرجَ مقصوده منها بنفسي ، فأجابته قائلاً ، « انني فهمت ما تعني . ان رئيس العبيد الذي كان يحترق كان مزمعاً على الاجتماع بالزعيم المتوفي في بضع دقائق ولذلك أرسل ابن أخته الرسالة المرقومة لكي يوصلها اليه . وبعبارة أخرى ان ذلك الرئيس المتوحش البربري كان يظن هكذا» .

فأجاب الطبيب وقال لي ، « كلا ، انه لم يفكر بذلك تفكيراً ، بل وثق به من أعماق قلبه وعرفه كما يعرف كل انسان ما يعرفه في حياته . عرف ذلك على البديه من غير بحث ولا تنقيب ولا تعليل ولا استنتاج . لان المتوحشين الذين يعيشون على الفطرة يعتقدون بالحياة بعد الموت كما يعتقدون بالحياة ذاتها . ولذلك نراهم يحرقون نساء الميت معه عند موته لكي يجتمع بهم في الحياة الثانية كما انهم يقبرون أسلحته معهم ويضعون الطعام والشراب في قبره . »

فهم لا ينشئون نظرية يبحثون صحتها في الحياة بعد الموت ، بل انما يشعرون شعوراً طبيعياً انهم سيظلون احياء وان ماتت أجسادهم وفي أعماق كل واحد من ابناء الانسان على اختلاف طبقاتهم شعور مثل هذا الشعور ولكنه قد قبر مع غيره من مئات الأنواع من طبقات الشعور الطبيعي التي ورثناها عن جدودنا القدماء . وقد ادرك أفلاطون ان في أعماق حياته مثل هذا الشعور ولذلك صرح به على رؤوس الاشهاد ، فقال انه لم يكن واثقاً اذا كان غيره من الناس خالداً. بيد انه كان على أتم الثقة بأنه هو ذاته كان خالداً . »

فأجبته قائلاً ، « ولكن أفلاطون لم يكن من عامة الناس ، واذا كان في جميع الناس مثل هذا الشعور المخفي الضائع في ذواتهم كما تقول ، فاني أخاف أن يصعب علينا الحفر لاستخراجه من أعماقه . وفوق ذلك فقد قرأت لأحدهم رأياً رشيداً في هذا الموضوع يرجع فيه هذه الوراثة الى وهم أحد الجدود السالفين

بأن له ذاتين ، وذلك انما نشأ فيه من الأحلام التي قادته الى الاعتقاد بأن شخصان : شخص يراه في الاحلام وشخص يلبسه جسده في اليقظة . فهل في هذا ايضاح لهذه القضية ؟ »

فهز رأسه وقال ، « كلا ، ليس هذا بالايضاح الذي ننشده يا صاح ، لانه لا يوضح لنا شيئاً . بل ربما كان زيادة في التضليل على الباحثين ، وأما الذات التي نراها في الأحلام فربما كانت نتيجة لشعور ذات غير متجسدة تحل بكياننا بصورة غير منظورة . وانني أسلم بأن معرفتنا الخفية لحياتنا بعد موتنا يصعب أن نظهرها من أعماقها . وقد دعا المشككون والملحدون والماديون هذا الشعور العميق القديم في حياة الانسان - تقليداً ووهماً لا حقيقة دونهما . وقالوا ان الناس الفوا الايمان بان لهم نفوساً - هي اجزاء روحية من ذواتهم تظل حية وان ماتت الاجزاء المادية التي يتالفون منها . ولكن هذا الايمان مع غيره من المعتقدات الأخرى التي لم يؤيدها العقل والعلم قد زالت وانقرضت كما يخيل الى الملحدين . اليس الحال على هذا المنوال ايها الصديق ؟ »

فقلت له ، « بلى ، وان هذا نفس ما طالما عرضته عليك اننا نريد برهاناً ينطبق على العقل ويؤيده العلم والأخبار »

فأجاب وقال ، « اذن فلنجرب البرهان العقلي لنرى اذا كان يصدقنا أم لا وليس شك ان هنالك كثيراً من البراهين الأخرى التي يسلم بها علماء النفس والقائلون بمناجاة الارواح ، ولعلهم على حق فيما يقولون ، ولكن في مثل هذه القضايا يجدر بكل انسان ان يرجع الى اختباراته الشخصية اما أنا فلم تقنعني اختباراتي . فقد رأيت وسمعت أموراً كثيرة لا يمكن ايضاحها لشديد غرابتها في مناجاة الأرواح والتنويم المغناطيسي . بيد انني لم أجد برهاناً قط أستطيع أن أوضح به انني قد تخابرت مع الاموات وناجيت أرواحهم - بطريقة يسلم بها العقل الصحيح . ولذلك عمدت الى فكري أقرأه واستجليه . لانني مثلك أيها الرفيق لستُ بأفلاطون وليست لي حكمته وعاطفته . »

فسألته قائلاً ، « وهل وجدت في العقل ضالتك المنشودة ؟ »

فقال ، « فلننظر معاً لنرى إذا كنت أنت تعتقد بذلك فقبل كل شيء أودّ أن أعلم هل في كياني شيء يبقى ويضمحل عندما يموت جسدي ؟ ذلك سؤال سهل جداً . لأننا نعرف أن الحياة التى في جسد الإنسان لا تفنى بل تتحول إلى أشكال تختلف عن الأشكال التى تحل فيها الآن ، فإذا تركت جسدي في جوانب التلال فان الحياة التي فيه لا يضيع منها شيء . وأما المادة التي يتألف منها الجسد فكلنا نعرف اليوم أنها لا يعتريها فناء أو اضمحلال بل هى تتغير وتتحول من لحم وعظم إلى دود وتراب ثم لا تلبث أن تصير نباتاً فحيواناً فانساناً .

«فإن كنت مادياً فانت تعتقد بأنني مركب من قوة أو مادة، وبما أن القوة أو المادة التي يتركب منها جسدى لاتفني بل تتحول وتتغير من شكل إلي شكل فوجب عليك والحالة هذه أن تؤمن بأنني غير قابل للفناء . وبعبارة اخرى ، انك تستطيع أن تفرق من الدقائق التي يتألف منها كياني ولكنك لا تستطيع أن تذهب بوجودي. وعندما أموت فأنا لا أفنى من الوجود بل أتغير إلى عناصر اخرى . فان قليلاً من ماء البحر تحوله حرارة الشمس إلى بخار فينفصل عن البحر ولكنه لا يلبث أن يتحول إلى نقط من المطر تتساقط ثانية إلى حيث كانت فى البحر . وكذلك جسدي يموت فيتحول إلي العناصر المختلفة التي تالف منها ، لا يبقى له وجود كجسد بشري ، غير أنك لا تستطيع أن تقول أنه قد فنى واضمحل ، لأن كل ذرة من ذراته المتفرقة في الأرض يظل لها وجود بذاتها ، وهذه حقيقة ثابتة لا يختلف فيها عالمان اليوم ».

فقلت له ، «إنني من المعتقدين بهذه الحقيقة ، وأرى أن المعارضين لها في صحتها أقل من القليلين في هذا القرن » .

فاستأنف الكلام وقال : «قد اضطرنا البحث للوصول إلى نتيجة غريبة بذاتها ولكنها ضرورية بما سيترتب عليها من الفوائد.

فقد ظهر لنا مما سبق أن الجزء المادي من الإنسان لا يفنى ، ولذلك فإن كان في كيانه جزء يفنى فلا شك أن هذا الجزء غير مادي.

لأننا رأينا بالبرهان العقلي المؤيد بالعلم والاختبار أن الجزء المادي فينا يتغير ويتحول ولكنه لا يفنى ، فإذا كان للإنسان روح وكان لا بد أن يكون فيه جزء فإن هذا الجزء هو الروح بعينها . ولذلك وجب على المادى أن يسلم بأن جسده خالدٌ لا يفنى وان الحياة التي في جسده خالدة باقية ، ولكن نفسه يجب أن تكون زائلة فانية . ولا تنس اني سبقت فقلت ان البحث قد أرغمنا للوصول إلى نتيجة غريبة ، وهل هنالك أغرب من هذه النتيجة ؟

فقلت له ، « رويدك أيها الصديق ، ان المادي لا يسلم بتة ان له نفساً - أو روحاً مستقلة عن المادة »

فأجاب وقال ، « حسنٌ ما تقول ، فان كان المادي لا يسلم بان له نفساً مستقلة عن المادة فهو ولا شك يسلم بأن له نفسا غير منفصلة عن المادة . وهو يؤيد بتسليفه هذا ان هذه النفس المتصلة بالمادة هي خالدة بخلود المادة المتحدة بها . وانني اصارحك القول أيها الصديق أن في رأي الماديين من الغرابة اضعاف اضعاف ما في رأي الروحيين . فالمادي يخيل اليه أن ليس له نفس كما يعتقد الناس بل انما له دماغ مادي يموت بموت جسده ، فهو يحسب ان دماغه هو ذاته الخفية التي يسميها (أنا) . وهل سبق لك أن رأيت دماغاً مصبراً بالكحول ؟ » .

فقلت له ، « نعم ، ولماذا ؟ »

فأجابني قائلاً ، « انما سألتك هذا السؤال لأرى اذا كنت تعتقد بأن هذه التلافيف هي التي أوجدت البخار والكهرباء والتلغراف اللاسلكي وهي التي كتبت الياذة هوميروس وفلسفة سقراط وأشعار شكسبير وملتون ودانتي والمعري وهيغو وغيرهم من أئمة الفكر الانساني . فان كنت كذلك فاني أود أن أمعن النظر في وجهك وفي عينيك ! »

فقلت ، « وهل تريد أن تنظر الى وجهي وعيني لترى اذا كان دماغي مختلاً ؟ » فأجاب على الفور قائلاً ، « نعم ! » فخيل اليَّ إذ ذاك اني انتصرت عليه . فقلت له ، « وهل نستطيع أن نفكر صواباً اذا كانت أدمغتنا مختلة ؟ أم هل كان

في وسع هوميروس أو غيره من النابغين أن يكتبوا كتبهم لو كانوا مصابين بمس من أدمغتهم ؟ »

فأجاب قائلاً ، « كلا ! ولم يكن لباغانيني [1] أن يؤلف موسيقاه الخالدة بقيثارة مكسورة أو رباب مقطع الاوتار .

ولكن باغانيني وان انكسرت قيثارته أو ربابه يظل موسيقياً من غير أن يتغير . لان القيثارة لا تصنع الموسيقى كما ان الجبة لا تصنع الكاهن . ولنبحث برهة عن هذا الرجل باغانيني كيف صار موسيقياً عظيماً في العالم . أفهل صار موسيقياً عظيماً لأن أصابعه كانت مرنة تعرف الضرب على القيثارة بسرعة ومهارة ؟ كلا ، بل انما كان عليه أن يمرن أصابعه ولم يكن له ذلك إلا بعد جهاد طويل . يعني انه كان يجب عليه أن يعلم أصابعه ويدربها في دماغه من القوة . وربما خيل الى المبادي هنا انه قد فاز في ميدان المناظرة ، لان دماغ باغانيني هو الذي هذّب أصابعه في فن الموسيقى ، ولكن ذلك خطأ فاضح لأن دماغه ذاته يجب أن يُدرِّب ويتمرن قبل أن يصير قادراً على تدريب أصابعه . فان عليه أن يعلم دماغه علوماً عديدة ويدرسه دروساً كثيرة قبل أن يصير موسيقياً . وما هو هذا الذي أثر في باغانيني فجعل دماغه يميل الى درس الموسيقى وتعلمها ؟ أليس هو باغانيني نفسه ؟ ولذلك فان وراء دماغه قوة مستقلة لها السيادة على الدماغ، أليس كذلك ؟»

فقلت له ، « يمكن أن يكون هنالك ما تقول . ولكن كثيرين من الناس يقولون ان الوراثة الطبيعية تفعل ذلك وان ضغط هذه الوراثة أو قوتها الكائنة في جزء من أجزاء دماغه قد جعله يميل الى الموسيقى ويتعلم دقائقها وأسرارها . »

فقال ، « وأي دماغ تعني ؟ »

فأجبته قائلاً ، « دماغ باغانيني . »

فقال ، « اذن كان لباغانيني دماغ ، وكان له تأثير وراثة راسخة في قسم من دماغه تعمل على تهذيب سائر الأقسام الأخرى في فن الموسيقى ؟ »

---

(١) هو نقولا باغانيني الايطالي أشهر مشاهير الضاربين على الرباب ، ولد في سنة ١٧٨٤ وتوفي سنة ١٨٤٠ ، وقد ظهرت عبقريته في فن الموسيقي وهو لم يتجاوز التاسعة من عمره ولم تفارقه كآبة الحياة .

فقلت له ، « كلا ، فانني اذا سلمت انه كان لباغانيني دماغ فانما أخسر بذلك دعوى المادي التي أدافع عنها ، لانه يجب علي والحالة هذه أن أسلم بوجود المالك الشخصي الذي يملك هذا الدماغ . فالمادي لا يسلم بوجود هذا الشخص بتة فهو يقول انه لم يوجد قط شخص باسم باغانيني مستقل عن دماغه لان دماغه كان اياه كما انه هو عبارة عن دماغه فقط . وإن قسماً من هذا الدماغ كان يحتوى على قوة وراثية هذبت الأقسام الأخرى في الموسيقى »

فسألني قائلاً ، « ولكن من هو منشىء هذه القوة الوراثية ؟ وماهو أصلها ؟ »

فأجبته ، « لا شك أن أصلها ميلٌ قديم للموسيقى في بعض جدود باغانيني. وقد اتصل اليه بالوراثة من جيل الى جيل . »

فقال ، « حسنٌ ما تقول . ولكن فلنذهب الى ذلك الجد القديم الذي ورث عنه باغانيني ميله الى الموسيقى ، من اين جاء ذلك الجد الأول بميله الى الموسيقى؟ كيف حصل على هذه الهبة ؟ »

فقلت له ، « يستحيل أن يكون هذه هبة في الأصل . فان أول جد من جدود باغانيني انما مال الى الموسيقى بتأثير المحيط ، بل ربما كان ذلك بطريق الصدفة. ومن يدري ما إذا كان قد خسر رجلاً من رجليه فاضطر ان يلتمس معاشه من الضرب على القيثارة . »

فقال ، « لنفرض انه خسر رجلا من رجليه كما تقول ، وانه لم يجد طريقاً لتحصيل معاشه بغير الضرب على القيثارة ، في حين انه لم يكن له أقل معرفة بذلك العمل قط . فان قسماً من دماغه ، في مثل هذه الحالة ، يجب أن يقول للقسم الآخر ، أصغي الى أيها الرفيق ، انك مائت اذا لم تتعلم الضرب على القيثارة ، فابذل في ذلك منتهى جهدك والا كنت من الخاسرين . فما هو الذي جعل القسم الآخر الآمر من الدماغ يخاطب القسم الثاني بمثل هذا ؟ فانت تقول انه لم يكن في دماغ ذلك الجد الأول أقل أثر للوراثة ، فكيف استطاع القسم الآمر من الدماغ أن يصدر مثل هذه الأوامر ؟ »

فقلت له ، « ان هذا القسم الأمر كان قادراً على الاستنتاج بقوة العقل . »

فقال ، « ومن أين حصل على هذه القوة ؟ »

فقلت له ، « انه ورثها ممن قبله . »

فقال ، « حسن ما تقول ، فان هذا يعود بنا الى حيث كنا ، ان باغانيني كان موسيقياً لانه ورث في جزء دماغه قوة من احد جدوده القدماء الذي كان موسيقياً، وان هذا الجد كان موسيقياً لانه ورث عمن تقدمه القوة على الاستنتاج بالأدلة العقلية ولكن هذا الجد الأول الذي كان عارفاً بالمقدمات و النتائج العقلية ولم يكن في دماغه أقل أثر للوراثة ، من أين حصل على هذه القوة ؟ »

فقلت له ، « لا أعرف ، ولا أظن أن أحداً في العالم يعرف هذا . »

فقال لي ، « وهل تعتقد بان ذلك سرٌ غامض ؟ »

فأجبته قائلاً ، « هكذا يظهر لي . بيد انني أقدر أن أقول أن جد باغانيني الأول الذي كان قادراً على الاستنتاج قد نشأت فيه هذه القوة من ضغط المحيط على حياته ، ولكن هذا يعيدنا الى بداءة النشوء والارتقاء واصل بذرة الحياة ، وهنالك يقوم أمامنا السر الغامض ثانية كما يقوم ههنا .

فقال لي ، « وكأني بك تريد أن تقول إن مذهب الماديين مبني على الاسرار شأن سائر المذاهب والنظريات الأخرى . يعني ان المادية سرٌ غامض كجميع النظريات الأخرى أليس كذلك ؟ »

فقلت له ، « ان هذا نفس ما أريد أن أقوله »

فأجابني قائلاً ، « إذن ، فالمادي شخص مخير بين افتراضات متعددة . ينظر إلى دماغ مصبر بالكحول فيقرر في ذهنه بان هنالك في ذلك الوعاء الصغير الموضوع أمامه ، بقطع النظر عن الدورة الدموية ، يرى ذات بولس الرسول أو اسحق نيوتن أو ابا العلاء المعري أو أيوباً أو محمداً أو أشعيا . وان هذا الدماغ هو الذي يفكر دون صاحبه .»

« ان فريقا من القدماء كان يعتقد بان الكليتين مركز الفكر ، وغيرهم قالوا بالعكس من ذلك ان الكبد مركز الفكر ، وذهب غيرهم الى ان القلب هو بالحقيقة

مركز الفكر دون غيره . بيد انهم قد اقتصروا في عقائدهم المختلفة على ان الكليتين أو الكبد أو القلب انما كانت مراكز للفكر فقط ، ولم يقل أحد قط بين سقراط وكليتيه أو الاسكندر وكبده أو شارلمان وقلبه .

« ولكن العلم المقرون بالاختبار المتواصل قد أظهر ان الدماغ هو مركز العقل دون سائر الأعضاء . وانك تستطيع أن تغير الطريقة التي يفكر بها الرجل العادي من الناس بان تغرس ابرة في هذا أو ذلك الجزء من دماغه . وكل ما نعرفه عن الدماغ انه المركز الوحيد للعقل والادراك . فدماغي هو جزء من جسدي واقع في ملكيتي أملكه كما أملك قلبي وكبدي وسائر أعضاء جسمي . واني اسلم بانه لو تعطل أي عضو في جسدي تعذر عليّ قضاء حوائجي كما لو يتعطل ذلك العضو ولكن لا دماغي ولا كبدي ولا أي جزء آخر من جسدي هو ذاتي .»

فقلت له ، « ولكن لا تنس انه اذا مس دماغك أقل ضرر تتغير طبيعتك بكاملها . »

فأجاب وقال : « حسناً تقول انه اذا اصيب دماغي بضرر تغيرت مجاري حياتي وعجزت عن القيام بامور كنت أقوم بها لو ظلت لدماغي سلامته الأولى . ولايضاح ذلك جيداً نعود الى صديقنا باغانيني فلنفرض انه جلس أمامنا يضرب على قيثارته ونحن نستلذ أنغامها . فاذا حللنا وتراً من أوتار قيثارة فان ذلك ولو قلل من جمال الانغام فانه لا يبرهن على ان باغانيني غير موسيقى . بل اذا حللنا سائر الاوتار وتراً وتراً وحطمنا القيثارة تحطيماً فان باغانيني لا يتغير شيء من فنه البتة بل يظل كما هو . وهكذا الحال معي ، فان مرض دماغي أظل أنا ذاتي ، وإن مرض قلبي أو أي عضو آخر أظل كما أنا الى ان تنحل جميع أعضاء جسدي فتظل الذات التي كانت هذه الأعضاء آلات لها تديرها كيف شاءت تظل - حية الى الأبد .

« فان باغانيني ليس بالقيثارة التي يستخدمها فكره لاستخراج الانغام ولذلك يظل كما هو ، ويظل فنه على حرمته ولو تكسرت قيثارته ، وأنا لستُ بدماغي الذي هو آلة فكرة ، ولذلك فانني لن أموت ولو مات دماغي وكل جسدي . »

فقلت له ، « انني أتمنى لك من صميم قلبي أن تنال رغبتك ولكن أليس في الامكان اقناع الملحد بالبراهين العقلية ؟ »

فضحك وقال ، « ان ذلك بسيط جداً يا صاح ، ولكن الملحد ينكر العقل وكل ما يأتي به العقل من الأدلة والبراهين. ومع انه قليل المعرفة فهو شديد التعصب لجهله فلا يسلم إلا بما تقع عليه حواسه وتصل اليه معرفته القاصرة .

« فان الانسان على هذه الأرض أشبه بطالب العلم في مدرسته . لا يستطيع أن ينال من المعرفة إلا ما يستطيع ادراكه . ولو رجعت بفكرك الى الانسان في جميع أدوار التاريخ لرأيت انه لم يستطع أن يتعلم الا ما كان في طوقه أن يدركه . أجل ، ان الانسان طالب علم ، يأخذ فروع المعرفة الكائنة في العالم شيئاً فشيئاً . فيدرس الحساب أولاً ومتىأتم دراسته انتقل الى الجبر لانه يصير قادراً على ادراك قضاياه ومسائله .

« وفي عقيدتي أن أنصع حقيقة في تاريخ تقدم الانسان انه يحصل على المعرفة في حياته بنفس الطريقة التي يتلقى فيها تلميذ المدرسة علومه . لأن المعرفة انما ينالها الناس بالنسبة الى مقدرتهم على فهمها وادراكها . ولإيضاح ذلك نُمَثِل بمعرفتنا لفن الطيران : فقد كان الرجل الذي يعتقد بالطيران في السنين الماضية يحسب مجنوناً خيالياً . وكان الناس في ذلك العهد يعتقدون بأن سكك الحديد والتغراف هي آخر ما بلغت اليه مقدرة الانسان وان الاعتقاد بالطيران وهمٌ من الأوهام .

« ولاشك ان كل انسان كان يودّ لو ان في إمكانه أن يخلق فوق الأوض ولو قليلاً ، ولكن لم يكن قط من رجل يحلم بأن في طوق الانسان أن يسابق الطير في جريها . ومن الناس من قالوا ، (اننا لم نخلق لنطير) ومنهم من قال ، (ان الطيران مستحيل علمياً بل هو خطيئة في عيني اللّه) وكان الناس ينظرون الى من يشتغل بآلة من آلات الطيران نظرهم الى مجنون قد أضاع رشده . ولم يُصرّح أحدٌ بتصديقه لمثل هذه الهرطقة إلا وكان يهزأ به ويتهكم عليه كانما هو يؤمن بالجن والعفاريت. ومع كل ذلك فان نفراً قليلاً من الناس كانوا يعتقدون بأن الطيران غير مستحيل

فعمدوا الى تحقيقه بالفعل لانهم اعتقدوا بأنه حقيقة كائنة في الوجود منذ الأزل لم يهتد اليها أحدٌ من أبناء الانسان لانهم لم يكونوا إذ ذاك قد بلغوا الى المستوى الذي يدركون به جوهرها، وأدركوا انها لا تزال تنتظر مَنْ يظهرها للناس لكي يستخدموها في ما يعود عليهم بالخير والفلاح . وقد ظلت هذه الحقيقة في الوجود تنتظر الانسان حتى يتم له قدر كاف من المعرفة للبلوغ اليها.

«وقد تشوق الناس الى الطيران ألوفاً من السنين، وتاقت نفوسهم الى تعرّف حرية الجو ، وقد كان شوقهم عظيماً ولّدَ في قلوبهم آمالاً كباراً . ومع كل ذلك كانوا يضحكون من نفوسهم لانهم كانوا يعللون ذواتهم بمثل هذا الوهم الفارغ وكانوا ينظرون الى الطيران نظرتهم الى اكثر الأحلام خمولا، والاحلام رفيقة الخياليين ولا تليق برجال الجد والعمل.

«وعندما ظهر هذا الحلم الى حيز الحقيقة وطار الانسان للمرة الأولى فرح الناس بتحقيق حلمهم القديم وصاروا ينظرون الى الطيران كعمل عادي لا يحتاج الى كبير اجهاد في الفكرة للتصديق به. وبعد أن كان البشر يعتقدون بأنه حلمٌ غريب صاروا يثقون اليوم بأنه حقيقة ناصعة . ولكن لماذا لم نعرف هذه الحقيقة قبلا ؟

«اننا لم نعرف هذه الحقيقة قبل ذلك الحين لاننا لم يكن لنا من الادراك ما كنا نستطيع به ان نتفهم ماهيتها وجوهرها. ولكن عندما نما ادراكنا وازدادت معرفتنا صار المستحيل عندنا ممكناً والغريب المستهجن عادياً مألوفاً.

«أجل، ان الانسان تلميذ مدرسة ذاهب الى مدرسته ، وهو كالتلميذ شديد التعصب لما يعرفه . فقد كان يعرف قبلاً أن الأرض مسطحة وكان شديد الثقة بمعرفته. وكان العلم قد قرر وقتئذ ان الأرض مسطحة وكان كل انسان يسلم بصحة هذه الحقيقة ماعدا نفراً من الروحانيين الغرباء عن زمانهم . أما الماديون فلا يصدقون بشيء لا تقع عليهم حواسهم الخمس أو يؤيده الحساب المبني على هذه الحواس الخمس، والحواس تقودك الى الأعتقاد بان الأرض مسطحة لانك هكذا تراها بعينيك ولذلك لم يخطر للماديين غير هذا قط فاضطهدوا كل من خالفهم

في عقيدتهم هذه .

« وفي صدر التاريخ رأى الانسان الشمس في كبد السماء فخيل اليه انها إلهه واثبتت له حواسه صدق خياله . وكان يعتقد بأن الشمس إذا رضيت عنه تنبتُ زروعه وتكثر الخيرات في أرضه . وكان الانسان في ذلك العهد سعيداً بأنوار إلهه وما يبعثه اليه من الأشعة والحرارة . وكان يعتقد بان هذا الاله اذا غضب يقنع وجهه بقناع أسود ويحجب النور عن الانسان فتحل به المصائب والأحزان. ومن في تلك الأيام استطاع ان ينكر ان الشمس هي اله السماء والأرض ؟ ومن الصوفيين من تجرأ في ذلك الحين وقال ان الشمس لا تفرق بشيء عن النار . وانه لابد من وجود إله عظيم يدير هذا الكون ، وهذه الشمس هي آلة بيد اللّه يستخدمها لمنفعة أبناء العالم . غير أن أمثال هؤلاء كانوا يضطهدون ويقتلون لأنهم احتقروا الاله المنظور الذي كان جميع الماديين يؤمنون به . فالصوفيون الحكماء الذين يخضعون لسلطان العقل الداخلي كانوا في جميع أدوار التاريخ يعارضون الماديين الذين لا يؤمنون الا بما يعرفون وبما تقع عليه حواسهم الخمس . أفليس عجيباً والحالة هذه ان المادي المتكل على حواسه الخمس في تفهم أسرار الطبيعة كان في كل زمان ومكان مخطئاً في احكامه في حقيقة الانسان ، والمادة والوجود ؟ »

فسألته قائلاً ، « وهل كان الماديون مخطئين في جميع أحكامهم على السواء ؟ »

فأجاب والحِدّة ظاهرة في كلامه ، « نعم ، نعم ، انهم كانوا ومازالوا بعيدين عن الحقيقة بعد السماء عن الأرض فقد اعتقدوا بأن الشمس إله . وان الأرض مسطحة ، وانه يستحيل على الانسان أن يطير عن الأرض ، وان الكبد مركز الشعور، واليوم يصرحون بعقيدة جديدة هي أغرب من جميع ما تقدمها من العقائد وخلاصتها ان توماس اديسون هو عبارة عن بضعة دراهم من اللحم تستطيع أن تضعها في قنينة صغيرة . وهم يقولون أيضاً ان دماغ الانسان هو ذات الانسان ، وان لا وجود حقيقياً له على الأرض ، بل لا رجاء له بالوجود إلا إذا كان دماغه

يتحرك ويعمل ، فان مات دماغه مات هو أيضاً وانقطع من الأرض ذكره .
غير انني أعتقد من صميم روحي بانهم بعد ان خطئوا في جميع معتقداتهم التي عرفناها قبلا صار يستحيل على فكري أن يصدقهم في عقيدتهم هذه لا سيما وهي أعظم جميع العقائد »

فقلت له ، « إذن من هو في جانب الحق ؟ وما هو الحق ؟ »

فأجاب قائلاً ، « يجدر بي قبل الجواب عن سؤالك هذا أن أعود بك إلى السؤال الأول . فانه لما كانت الحياة الكائنة فينا ستظل حية الى الأبد ، ولما كان كل شيء فينا سيظل في الوجود غير قابل للفناء بل يتحول من شكل الى شكل ، فيجدر بنا أن نحصر القضية بهذا السؤال : هل في الانسان جوهر روحي أو شعور مستقل هو غير دماغه وجسده ؟ فاذا كان له مثل هذا الجوهر الروحي فانه سيظل حيا وان تفرقت دقائق الجسد الى عناصرها الأولى وتحولت الحياة التي فيه الى حياة غيرها في كائنات أخرى . وقد انقسم الناس في الجواب عن هذا السؤال الى ثلاث طبقات : الماديون واللاأدريون والصوفيون . فالماديون في الطرف الواحد عباد الدماغ يجيبون بصراحة ، كلا وألف كلا ، ليس للانسان مثل هذا الجوهر الروحي ! واللاأدريون في الوسط يواظبون على حيادهم وجهلهم لكل شيء فيجيبون اننا لا نعرف شيئاً . أما الصوفيون فيجيبون بكل ثقة قائلين ، نعم ، نعم ، ان هذه القوة كائنة في الانسان و هي هي دون اللحم والعظم تمثل ذات الانسان .

« أما اللاأدريون الذين لا يدرون بشيء ولا جواب عندهم سوى « لا نعلم » فهم أحياء أموات يحيون ولا يريدون أن يعرفوا من الحياة شيئاً . وأما الماديون الذين يجيبون « بالنفي الصريح » فقد أوضحنا قبلا انهم منذ البدء اتخذوا لنفوسهم هذه الصفة ، وأظهرنا انهم كانوا مخطئين في جميع آرائهم . ولكن ترى من هم الصوفيون الذين يجيبون بالاثبات والايجاب ؟ ألا انهم أبناء الطبيعة الساذجون الذين يعيشون على الفطرة وقد تعلموا من الطبيعة الشعور بدوام البقاء - الشعور بالخلود الشخصي الذي دفع زعيم والقبيلة الجديد أن يحملّ

العبد المرتجف فوق النيران والسائر الى الموت رسالة الى خاله الميت لانه كان يؤمن بأن العبد ماض إلى سيده . هم الروحيون وجماعات العلماء المتزايدة كل يوم الذين اظهرت لهم المعرفة الحقيقية والاختبارات المتواصلة حقيقة النفس والخلود . هم الأنبياء الذين نبغوا في جميع الأديان . ورجال الدين والفضيلة في كل زمان ومكان واتباعهم الذين ماتوا والذين هم في قيد الحياة الى الآن - وجميع الملايين وملايين الملايين من الناس الذين آمنوا بهذه الأديان ويؤمنون بها حتى اليوم . هم جميع الذين يعتقدون كما أعتقد أفلاطون بان الانسان لا يموت وان تحول دماغه ولحمه وعظمه الى عناصر أخرى . وبعبارة وجيزة هم جميع الذين أدركوا قيمة النظام والحكمة البالغة التي تدير هذا الوجود»

فقلت ، « وهل تعتقد بأن وجود النظام في الوجود - النظام الذي لا يستطيع رجل عليه مسحة من التهذيب أو العلم أن ينكره متى عرف شيئاً قليلاً عن مسير السيارات ونظام القبة الزرقاء - ان هذا النظام العجيب يدل دلالة واضحة على الحقيقة الواحدة التي تشير اليها ؟ »

فأجاب وقال ، « ان هذا نفس ما أردت أن أوضحه . وأخص بالذكر النظام الذي أظهرنا ثمراته النافعة في أثناء حديثنا ، النظام المتناهي في الكمال الذي يمنح الانسان من المعرفة على مقدار ما يستطيع أن يبلغ اليه فهمه وإدراكه فهل تعتقد بأن هذا النظام صدفة عمياء ؟ كلا وألف كلا . فانه كما ان نظام النجوم الذي يُسيّر كلا منها في دائرته بملء الدقة بعيدٌ عن الصدفة كذلك لا شيء من الصدفة والاتفاق في هذا النظام الكامل .

« وحيثما يوجد نظام أو ترتيب أو هندسة فلا أثر هنالك للصدفة أو الاتفاق. لان النظام يحتاج الى المنظم والترتيب الى المرتب والهندسة الى المهندس . ولذلك عندما نرى الهندسة ندرك للحال انها عمل أو اختراع شخص حكيم لعملها فكر أو قصد - ولا يمكن أن نتصور غير ذلك- ونحن واثقون بأن الرجاء بدوام البقاء المغروس في أعماق الملايين العديدة من مخلوقات المهندس الأعظم انما هو جزء من التدبير السامي الذي رسمه المهندس الحكيم في هندسته ولكن بشكل

متناه في البساطة . ولو كان هذا الرجاء بعدم الموت بلا معنى مقصود لما رأيناه منتشراً في جميع أنحاء الوجود . فالرجاء بالطيران مثلاً كان حقيقة كائنة في العالم ولكنه كان حقيراً جداً بالنسبة الى هذا الرجاء العظيم ، بيد انه تحقق عندما حان وقت تحقيقه . وهكذا ستأتي ساعة نعرف فيها جميعنا اننا لا ولن نموت عندما يحين الوقت لمعرفة ذلك ورؤيته رأى العين . فان المهندس الأعظم لا يخيب آمال الناس ، لانه هو نفسه غرس هذه الآمال في صدورهم لكي يحققها ولذلك فاني لا أوافق حضرة السيدة على ما صرحت به في هذه العشية واعتقد بأنها قد أخطأت في كل كلمة من كلامها . »

فسألته قائلاً ، « وأي سيدة تعني ؟ لأن الموضوع إنساني حديث العشاء . »

فقال ، وقد وقف وهم بالخروج ، « انما أعني السيدة التي كانت جالسة الى مائدة العشاء معنا . فاني أؤمن من أعماق قلبي بأن الآية ، « فلنأكل ولنشرب ولنفرح لأننا غداً سنموت ، » محفوفة بالأخطار مملوءة بالاضرار . لانه من يكفل لك ان الاستسلام للاكل والشرب والفرح لا يكون ضرراً عليك بعد أن تموت ؟ فأنا أؤكد لك انه سيكون كذلك اذا فرطت به . »

فسألته ، « وما هي الآية التي تشير على أن أتخذها دستوراً لحياتي بدلاً من هذه ؟ »

وكان إذ ذاك قد بلغ الى باب المكتبة وهم بالخروج ، فلما سمع سؤالي وقف، وأطرق يفكر برهة ثم قال ، « انه لا يوجد اليوم قاعدة أو آية فتأخذ محل هذه القاعدة الوثنية الممتلئة يأساً وضلالاً . ولذلك فهي ستظل شريعة نافذة في العالم الى أن يحين الزمان لانقراضها وزوالها فتلقى في سلة المهملات . حينئذ ينظر اليها الانسان نظرته الى الرأي القائل بعدم حركة الأرض أو بألوهية الشمس أو بعدم الطيران »

فقلت له ، « ومتى يكون ذلك ؟ »

فقال ، « ربما يكون في السنة القادمة أو في الجيل القادم ، لأن المعرفة تأتي

في أية ساعة شاءت . ومتى ظهرت يقبلها جميع الناس على السواء ، بيد انني لا أعرف الساعة التي تأتي فيها لأن المعرفة قد أبقت هذا لذاتها ولا تبوح به لأحد غيرها . ثم أغرب في الضحك وخرج وهو يقول في ذاته « انني لم أعرف قط متى كان الانسان مزمعاً أن يطير بل لم يخطر لي مثل هذا بتة ولكنه بعد أن حدث عرفته وصرت أعتقد بأنه حقيقة راهنة .»

ثم أشار اليّ بيده مودعا وسار في طريقه وكنت اسمعه يردّد في ذاته قائلاً ، « أجل ، قد تعلم الانسان فن الطيران عندما آن الآوان . »

أما أنا فرجعت الى مقعدي أمام الموقد وما شعرت الا وقد قادني فكري الى جمجمة رأيتها مرة في احد الأديار وقيل لي حينئذ انه جمجمة قديس . ثم مالبثت أن تذكرت ما قاله صديقي الحكيم عن ادمغة الرجال العظام المحفوظة في الكحول فخامرني الشك ان تلك الجمجمة يستحيل أن تكون محتوية على القديس في داخلها ، فقد أخبرني المكلفون بالمحافظة عليها ان القديس المقيم في الفردوس. وسواء كان في الفردوس أم لا فانه لابد ان يكون في مكان ما من الوجود ، ولما كان كل جزء من الأجزاء التي تركب منها جسده لا يزال في الوجود ولكن بشكل آخر وعنصر آخر لذلك لم يبق قلبي أقل ريبة في أنه هو ذاته أيضاً لا يزال خالداً كما أن مادة جسده خالدة . فهو ذاته ولا شك كان أعظم جزء من كيانه المحدود ، وأما الأجزاء الأخرى فلم تكن سوى مقتنيات خاصة به لوقت معين تخدم الجزء الأهم الذي هو ذاته ، وبعد أن فكرت برهة رجعت الى نفسي وقلت في سري ، « ألا ان الاعتقاد بان المادة الحقيرة في الانسان الخادمة لذاته العظمى المتسلطة عليها ، هذه المادة الحقيرة تكون خالدة باقية والذات أوالروح أو النفس تكون معرضة للفناء هو أشبه بالاعتقاد بأن رداء الانسان دون رجليه يحتوى على الحياة ويمشي من مكان الى مكان .

أجل ، إن هذا الرأي بعيد عن فكرتي ، إذ كيف يمكن أن يكون الرداء هو الذي

يمشي دون الساقين - كلا و لا أستطيع أن أصدق أن القديس الذي رأيت جمجمته هو الآن عصارة في الياف شجرة السرو النابتة على قبره . أما الذين يصدقون مثل هذه الغرائب فلمثل هؤلاء أقول ، « لكم دينكم ولي دين » .

دار البستاني للنشر والتوزيع

دار البستاني للنشر والتوزيع
الفجالة - القاهرة